فون شاك

الفن العربى فى إسبانيا وصقلية

ترجمة

دكتور الطاهر أحمد مكى

أستاذ الأدب ووكيل كلية دار العلوم
جامعة القاهرة



دار المعارف

● الطبعة الأولى:
ربيع الأول ١٤٠٠ هـ
أكتوبر ١٩٨٠ م

● الطبعة الثانية:
ذو الحجة ١٤٠٦ هـ
أكتوبر ١٩٨٥ م

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

كلمة المترجم

هذا هو الجزء الثالث من كتاب : «شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية Poesie und Kunst der Arabe rin Spanien und Sicilien» للمستشرق الألمانى الكبير أدولف فريدريتش فون شاك A. Fr. V. Schack آثرت أن أدفع به إلى المطبعة والنشر، ليأخذ طريقه إلى القارئ منفصلا عن بقية الكتاب، لأسباب تتصل بالطباعة دون غيرها.

وفضلت وقد صدر منفصلا أن أضع له عنوانًا مستقلا، يومئ إلى الموضوع الذى بين دفتى الكتاب بدقة، وهو: «الفن العربى فى إسبانيا وصقلية»، دون أن يعنى هذا استقلالا كاملا عن الجزئين الأخيرين، وسوف يصدران فى مجلد واحد بعنوان: «الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية» ذلك لأن العالم الألمانى يزاوج بين الشعر والرسم، يأخذ من الثانى للأول، ويستشهد بهذا على سابقه، لما بين الفنّين، أو الفرعين من الفن إذا شئت، من وشائج وصلات، ومن هنا فإن أحد الكتابين يكمل الآخر، فكرة وموضوعًا.

لن أتحدث هنا عن المؤلف ومكانته فى عالم الاستشراق، أو الكتاب وحظه من الذيوع والشهرة، والأقبال الذى لقيه، والطبعات التى صدرت منه، وعن منهجى فى الترجمة، فلذلك مكانه من مقدمتى للمجلد الأول.

بحسبى هنا أن أشير إلى جملة أشياء تتصل بهذا القسم، أتمنى أن يأخذها القارىء فى الحسبان.

● أن الكتاب يعطى صورة صادقة لما كانت عليه آثارنا العربية فى إسبانيا وصقلية فى مطلع النصف الثانى من القرن الماضى، وقد ظلت الصورة فى مجملها حتى اليوم، ولكن تغييرًا طفيفًا طرأ عليها، إلى أفضل أو أسوأ، ذلك أن بعض

المعالم الأثرية لقيت من الأسبان عناية وترميمًا، وحتى بحثا دءوبا عنها، وبخاصة مدينة الزهراء، ولهذا آثرت أن ألحق بالكتاب ترجمة لدراسة حديثة قام بها المستشرق القرطبى الجليل روفائيل كستيخون عن الحفريات التى تمت للكشف عن المدينة، ولكن من جانب آخر بعض الآثار أصابها الإهمال فهى فى طريقها للتلاشى، أو جنت عليها السياحة، فأفسد الترميم كثيرًا من معالمها الأولى.

● العنوان الرئيسى لكل فصل من عمل المؤلف، أما العناوين الجانبية، فكلها من عملى أنا، آثرت أن أضعها تسهيلا للقارئ، وإرشادًا إلى معالم الكتاب الرئيسية، لمن يود العودة إليه مستشيرًا أو مهتديًا.

● أن الهوامش التى بأسفل الصفحات تمثل أنواعًا ثلاثة : بعضها من عمل المؤلف نفسه، وتجىء غير مذيلة بأى توقيع. والثانية من عمل المترجم الإسبانى، تجىء إضافة فى أغلب الأحيان، وهى هامة ومفيدة، وأبقيتها، وذيلتها بتوقيعه «خوان باليرا». وأما الثالثة فمن عملى أنا، وذيلتها بتوقيع «المترجم».

● أن بعض الهوامش طالت حتى أصبحت موضوعًا مستقلا، وآثرت تسهيلا للطبع، وتيسيرًا على القارئ، أن آتى بها آخر الكتاب فى شكل ملاحق.

● أن قضية مصحف عثمان فى الأندلس جاءت مجملة، ومثيرة، ومختلطة بالأساطير، ورأيت من الحق أن ألحق حديثًا عنها فى آخر الكتاب، عن قصة هذا المصحف فى إسبانيا، فى ضوء التاريخ الصحيح.

● أن المقام كان يقتضى أحيانًا حين نرد رواية إلى أصلها العربى أن نأتى بها كاملة، رغم أن المؤلف أوجزها، تفاديًا لمشاكل الترجمة طبعًا، أو نزيد فقرة قصيرة تفسر موقفًا، وفى كل الحالات أشرت إلى هذا فى الهامش أو وضعته بين خاصرتين [ ].

● أننى ألحقت بالكتاب عددًا من الصور والرسوم الموضحة، ولم يكن ذلك موجودًا فى الأصل الذى ترجمت عنه.

وبعد،

فآمل أن يسد الكتاب بما فيه من نظرة منصفة، ومن روح موضوعى، فراغًا فى المكتبة العربية الأندلسية، وأن يجد فيه القارئ بعض ما عليه أن يعرفه من أمجاد هذه الأمة وتاريخها.

ومن الله العون، وبه التوفيق، وهو يهدى السبيل.

الطاهر أحمد مكى

٣٩ شارع المراغى - العجوزة - القاهرة

٢٧ من يناير ١٩٨٠م

٩ من ربيع الأول ١٤٠٠هـ

- ١٥* -

فن الأندلسيين ومعمارهم

حتى القرن الثالث عشر الميلادى

○ موقف الإسلام من الفن :

الكتب التى تعرض لتاريخ الفن تقرر كلها أن النحت والرسم فنون غريبة على العرب دائمًا، وأن الإسلام حين حرّم التصوير جفّف ينابيعها ولم يبق للشعوب الإسلامية ما تمارسه منها إلا فن المعمار، ولكن.. مهما تكن عالمية هذا الرأى فى انتشاره فهو يبدو لمن يدرس تاريخ الشرق وأدبه أنه يقوم على غير أساس، وليس ثمة ما يذكرونه، أو يعتمدون عليه، حين يتحدثون عن هذا التحريم المفترض، غير هذه الآية من القرآن، وجاءت فى سورة المائدة : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾. وقد اختلفت آراء المفسرين كثيرًا حول معنى هذه الآية وفهم منها معظمهم أنها تتصل بالحديث عن الأصنام وعبادتها.

ومن الحق أيضًا أن أحاديث كثيرة عن الرسول عليه الصلاة والسلام، رُويتْ شفاها على امتداد أعوام طويلة، ولا تمثل وحدها حكما قاطعًا، لا تبيح تصوير الكائنات الحية، غير أن تنفيذ مثل هذا المنع لم يحدث أبدًا، ولم يُحرِّم التصوير بصورة حاسمة ومؤكدة، حتى ولا تصوير الشخصيات الإنسانية نفسها، على نحو ما حدث فى تحريم شرب الخمر مثلا. وهو تحريم يرد فى القرآن أكثر من مرة، ولكنه لم يحل فى الوقت نفسه بين شعراء بلاط بنى أمية فى دمشق وبين أن يجعلوا من الخمر الموضوع المفضل فى قصائدهم، وحدث هذا على الرغم من وجود من يتشددون فى رعاية الأخلاق، ويديرون ظهورهم لهذا اللون من اللذائذ، ويمكن القول أن جانبًا من المسلمين بعامة على امتداد البلاد الإسلامية، أظهروا منذ البدء ميلا عنيدًا إلى الشراب، وانغمسوا فيه بلا تردد.

* يشير هذا الرقم إلى مكانة هذا الفصل من الكتاب ككل على نحو ما أشرنا فى المقدمة. (المترجم)

وأدان القرآن، والسنة أيضًا، الغناء والرقص والموسيقا[١]، ومع ذلك فالعازفون على القانون، والمغنون، والراقصات، كانوا يملأون قصور الخلفاء قبل أن ينتهى القرن الأول من الهجرة، وقلّ أن تخلو حفلة فى البلاط، أو عند عامة الناس، لا يشاركون فيها، ويأخذون بحظ منها. ومن المؤكد أن [جانبا من] المسلمين منذ العصور الأولى نّفذوا بدقة ما جاء يسرًا من أوامر الدين، وكان وفق ميولهم[٢].

ولم يحدث أبدا أن حرمت قواعد الدين على المسلمين استخدام الصور، وكل ما هنالك أن المؤمنين الطيبين كانوا على حذر منها، ولم يحل ذلك دون استخدامها منذ بدء الإسلام. ولقد ضرب كل من الخليفة معاوية بن أبى سفيان، وعبد الملك ابن مروان، عملة عليها صورة إنسان كامل تمنطق سيفا[٣].

وعمل خمارويه «فى داره مجلسًا برواقه، سماه بيت الذهب، طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد، المعمول فى أحسن نقش وأظرف تفصيل، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورًا فى حيطانه بارزة، من خشب معمول على صورته، وصور حظاياه والمغنيات اللاتى يغنينه، بأحسن تصوير، وأبهج تزويق، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز الرزين، والكودان المرصعة بأصناف الجواهر، وفى آذانها الأجراس الثقال الوزن، المحكمة الصنعة، وهى مسمرة فى الحيطان، ولونت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة[٤]»، ومن الشائع جدا تزيين السجاد برسم الشخصيات، واستخدموه على نطاق واسع فى كل البلاد الشرقية، وكان ما يملكه الفاطميون منها مزينًا بصور «الدول وملوكها، والمشاهير فيها، ومكتوب على صورة كل واحد اسمه، ومدة أيامه، وشرح حاله»، وتضم أحيانًا صورًا لأسر ملكية بكاملها[٥]، ويرى على جدران مساكنهم صور شخصيات بشرية وحيوانات[٦]، ويحتفظون فى خزائنهم

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى، الأغانى، طبعة كوزجارتن، المقدمة ص ٧.

(٢) أضفت ما بين الحاصرتين لتصبح الجملة تعبيرًا عن الواقع والحقيقة التاريخية. (المترجم).

(٣) المجلة الأسيوية، عام ١٨٣٩، المجلد الثانى، ص ٤٠٤ وبها صور لهذه العملات.

(٤) المقريزى، الخطط، طبعة بولاق، جـ ١، ص٣١٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤١٧.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٧٤.

بأقداح من البللور الفاخر، صنعت فى أشكال فنية دقيقة[٧]. إلى جانب أشياء أخرى طليت بالميناء، وتلمع عليها جميع الصور الآدمية والوحشية ومن كل نوع[٨]، مثل فرسان بدروعهم وسيوفهم. وعرفت القاهرة صناعة التماثيل الصغيرة لأشكال الوحوش «من الغزلان والسباع والفيلة والزرافات، ومنها ما هو ملبّس بالعنبر، أو بالصندل»، وتعرض هذه التماثيل فى الحفلات مع الأطعمة اللذيذة، وكان قاضى القضاة فحسب هو الذى يحمل إليه الطعام من غير تماثيل توقيرًا للشرع[٩].

وكان الوزير البازورى، الحسن بن على بن عبد الرحمن، وعاش فى منتصف القرن الحادى عشر للميلاد فى بلاط الخليفة الفاطمى المستنصر، نصيرًا متحمسًا للفنون، ومغرمًا بالرسم، وأحب شىء إليه «كتاب مصور، أو النظر إلى صورة أو تزويق»، ومن بين الفنانين الذين قربهم إليه، واستخدمهم لصالحه، وكانوا أعظم الفنانين شهرة على أيامهم، القصير، وكان مصريا، وفاق فى مواهبه بقية الفنانين من مواطنيه وابن عزيز وجاء به البازورى من العراق إلى القاهرة لينافس القصير، لأن هذا «كان يشتط فى أجرته، ويلحقه عجب فى صنعته، وهو حقيق بذلك، لأنه فى عمل الصورة كابن مقلة فى الخط، وابن عزيز كابن البواب، وكان الوزير يدفع لهما ثمنًا عاليًا فيما يبدعان من صور، ويثير بينهما روح المنافسة والسبق».

وحدث أن اجتمع القصير وابن عزيز بمجلس البازورى، فقال ابن عزيز: أنا أصور صورة إذا رآها الناظر ظن أنها خارجة من الحائط. فقال القصير: ولكن أنا أصورها فإذا نظرها الناظر ظن أنها داخلة فى الحائط، فقالوا: هذا أعجب. فأمرهما أن يصنعا ما وعدا به، فصورا صورة راقصتين فى صورة حنيتين مدهونتين متقابلتين، هذه تُرى كأنها داخلة فى الحائط، وتلك تُرى كأنها خارجة من الحائط. فصور القصير راقصة بثياب بيض فى صورة حنية دهنها أسود، كأنها داخلة فى صورة الحنية. وصور ابن عزيز راقصة بثياب حمر فى صورة حنية صفراء كأنها بارزة

(٧) المصدر نفسه، ص ٤٧٢.

(٨) المصدر نفسه، ص ٤٧٢.

(٩) المصدر نفسه، ص ٤٧٧، ٤٧٩.

من الحنية، فاستحسن البازورى ذلك، وخلع عليهما، ووهبهما كثيرًا من الذهب[١٠].

وقد أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بأن «تبنى منظرة من خشب مدهونة، فيها طاقات تشرف على خضرة بركة الحبش، وصوّر فيها الشعراء، كل شاعر وبلده واستدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر فى المدح وذكر الخركاة، وكتب ذلك عند رأس كل شاعر، وبجانب صورة كل منهم رف لطيف مذهب، فلما دخل الحاكم وقرأ الأشعار أمر أن يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارًا، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده، ففعلوا ذلك وأخذوا صرارهم، وكانوا عدة شعراء»[١١].

وكان فى دار النعمان بالقرافة فى القاهرة رسم من عمل الفنان الكتامى، يصور يوسف فى الجب وهو عريان، والجب كله أسود، وما أروع اللون الذى تميز به الجسد العارى فى عمق البئر المظلم.

ولما كانت الأمثلة التى أتينا عليها حتى الآن فى الجانب الأكبر منها، من مصر فى عصر الفاطميين، وربما ظن البعض أنه تحت حكم هذه الأسرة الخارجة على الإسلام السنى، تخلى المسلمون علانية عن أحكام الإسلام، ولكن. . ألم نر أميرًا قديمًا من الأسرة الطولونية أمر بأن ترسم صورًا له ولنسائه؟ ويمكن أن نضيف إلى هذا أنه كان فى قصر أحمد بن طولون باب يسمى باب الأسود، لأنه كانت توجد أمامه تماثيل أسود[١٢].

ولم تكن مصر وحدها فى هذا المجال، وثمة بلاد أخرى كثيرة يمكن أن نقول عنها الشىء نفسه. وهناك إناء صنع فى العراق خلال القرن الثالث الميلادى عليه صور فرسان وصقور فى أيديهم يصطادون بها، وكل أنواع الحيوانات المفترسة، وموسيقيون ومغنون وراقصات[١٣]. وقد أرسلت مصر فى طلب الرسام ابن عزيز

(١٠) المقريزى، الخطط، طبعة بولاق، ٣١٨/٢.
(١١) المصدر نفسه، ٤٨٦/١.
(١٢) المقريزى، خطط، ٣١٠/١.
(١٣) Reynaud, discription de monuments musulmans, etc., 11. 425.

من العراق، كما أشرنا من قبل. وفى حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة يقال عن دار فى بغداد: «كان فى وسط الحديقة جدار عليه رسوم من كل لون، فثمة ملوك يتصارعون، ورجال مشاة، وفرسان، وطيور زاهية، إلى جانب رسومات أخرى كثيرة»[١٤]. ويذكر المقريزى بين مؤلفاته كتابًا له عن «طبقات المصورين»، واسمه: «ضوء النبراس، وأنس الجلاس، فى أخبار المزوقين من الناس» ولعله ضاع، وربما تحدث فيه عن مذاهب واتجاهات الرسامين[١٥]. ورأى ابن بطوطة فى أحد قصور أمراء آسيا الصغرى نافورة تعتمد على أسود من النحاس، يتدفق الماء من أفواهها[١٦]. وطبقًا للمؤلف نفسه كان فى أفريقيا ملك مسلم يذهب إلى المسجد دائمًا، وفوق رأسه أربع مظلات كل واحدة منها مزينة بصورة طائر مذهبة[١٧]. وأخيرًا، فقد جرت العادة أن تضم المخطوطات العربية زخارف كثيرة مرسومة بالألوان المائية، تصور ألوانًا عديدة من مواقف الحياة.

وهكذا نجد مخطوطة كتاب «سلوان المطاع فى عدوان الأتباع» لابن ظفر [محمد ابن على الملقب بحجة الدين الصقلى المتوفى عام ٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م]، وتوجد فى مكتبة الأسكوريال، فهو مزين برسوم ملوك أو قواد أو فقهاء، أو ملكات فى ملابس فاخرة فخيمة، على رءوسهن التيجان، ويسترحن فوق قطائف alcatifas مشرقية، أو رهبان فى أزيائهم الدينية، أو أساقفة فى كل أبهتهم الرعوية، على رءوسهم تيجان المنصب، ومن أعناقهم يتدلى الصليب. وليست قليلة أيضًا مخطوطات «مقامات الحريرى» التى وصلتنا تبرق فى كثير من الرسوم، تزين أبوابها المختلفة، وتمثل آونة حفل استقبال فى بلاط الخليفة وسوقًا للرقيق آونة أخرى، وتعرض استراحة قوافل فى الصحراء مرة، واجتماع العلماء مرة ثانية[١٨].

وليس ثمة عائق خارجى أيضًا يحول دون تطور فنى الرسم والنحت. نعم، إنّ كلا الفنين ظلا فى أدنى حدود الازدهار، ولكن الدافع يجب أن نفتش عنه بين

---

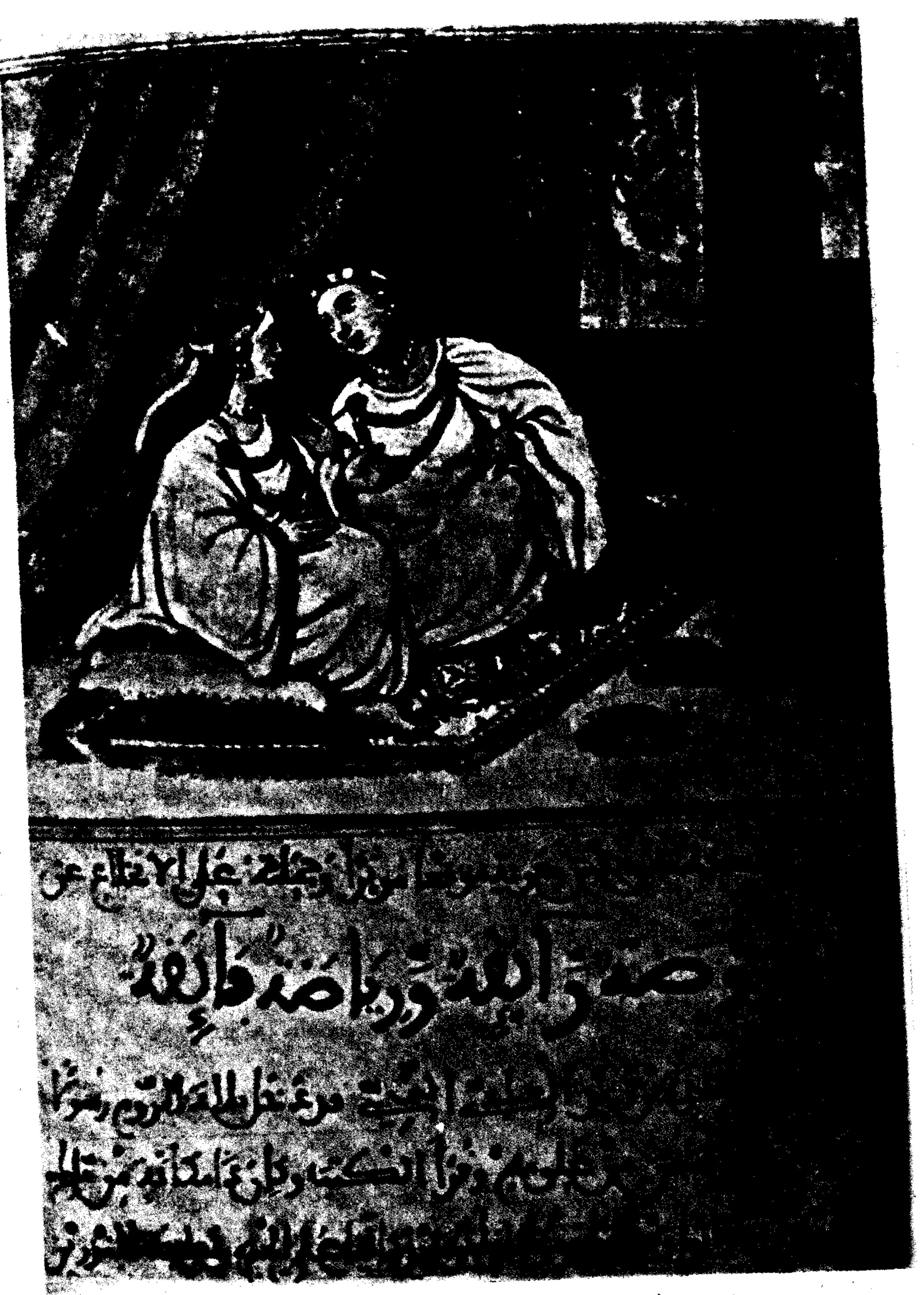
(١٤) Kosegarten, Chrestomathia arabiga.

(١٥) المقريزى، الخطط، ٣١٨/٢.

(١٦) ابن بطوطة، ٣٠٣/٣.

(١٧) المصدر نفسه ١٨٧/٣.

(١٨) المجلة الآسيوية، عام ١٨٣٣، جـ١، ص ٣٢٦.



صورة وردت فى كتاب «سلوان المطاع فى عدوان الأتباع» لابن ظفر الصقلى

أسباب أخرى، أقلها أن نرده إلى طبيعة الإسلام التجريدية، وتوجيده الواضح لكل صورة، وربما يرجع على نحو أشد إلى نقص جوهرى فى روح العرب، ويحول بينهم، على الرغم من كل مواهبهم اللامعة، وبين أن يبلغوا أعلى درجات التقدم فى أشكال الشعر التى تصف مصورة، وتعرض للشخصيات. وكان ممكنًا أن يجد الفن فى معانى القرآن وتاريخ الرسول، والمسلمين الأولين، مواضيع أخّاذة، فيرسم لنا فنان مسلم فى مستوى تيشيانو Tiziano[١٩] لوحات تصوّر سعادة الذين كان من نصيبهم الجنة، وبين أحضان الحور العين، أو يصور لنا شقاء الذين انتهى بهم المطاف إلى جهنم، على نحو ما رسمها رمبرانت Rembrandt[٢٠]. ولكن العرب، فيما يقال، لا يرون أشياء العالم الخارجية فى صورة مجملة، واضحة ومحددة، وإنما خلال ضباب شفاف يلفها، تتلاشى فيه الخطوط وتذوب، حتى لا نحس بالرغبة فى إعطائها شكلا محسوسًا.

وعندما يريد العربى أن يصف منظرًا طبيعيًّا، أو مشهدًا من مشاهد الحياة الإنسانية، يظهر انطباعه وتأثره أكثر مما يصوِّر الواقع كما رآه. ومن ثم فإن وصفه للصور الجانبية يفتقر إلى كثير من اليقين والدقة، على حين أنهم برعوا فى وصف الألوان الزاهية. والاستعداد لفهم الملامح الذاتية لأى شىء ونسخها عنصر جوهرى لمن يود أن يرسمه بالقلم، أو ينحته بالإزميل. ومن الضرورى أن يكون قادرًا على فهم الشىء فى جملته، وكل عناصره المتصلة به. ولم يرزق العرب، فيما يتصل بهذه النقطة، قدرًا كافيا من التنظيم ،وإنما يغلب عليهم الميل إلى التثبت فى الخصائص المميزة، ويهملون ما بينها من صلات، أو تتطلبه من تناسق، ويلتقى فى هذا العرب وكل الشعوب السامية الأخرى، وهم فيها على نقيض واضح من الإغريق الذين يتمتعون بقدر عال من القدرة على التشكيل، ويستطيعون أن يعطوا أيا من أحلام خيالهم شكلا محسوسا، واضحًا ودقيقًا، وبطريقة منتظمة، تخضع لها جميع أجزاء الكل فى تناسق، وهى صفات تتوهج فى أعمالهم الفنية وفى شعرهم

---

(١٩) رسام إيطالى (١٤٧٧ - ١٥٧٦)، من أبرز رسامى مدرسة فنيسيا وعصر النهضة، تفوق فى كل أنواع الرسم، والجمال النسائى بخاصة.

(٢٠) رسام هولندى (١٦٠٦ - ١٦٦٩)، من أكبر الرسامين فى العالم، وتميز بالواقعية فى لوحاته وباستخدام تأثير الضوء واللون. (المترجم)

أيضًا. أما العرب فقد فهموا العالم الخارجى بطريقة ذاتية، وكان حظهم من الذكاء محدودًا فى الرسم الإجمالى والخطوط والمساحة والمجموع، ولهذا لم يستطيعوا أبدًا أن يتجاوزوا المبادئ فى الرسم، أو النحت، أو الشعر الملحمى، أو المسرحى.

● **فن المعمار عند العرب:**

وظروف العقل الطبيعية هذه نفسها لم تتح للعرب أن ينافسوا فى فن المعمار الشعوب التى أبدعت أرقى أشكال هذا الفن، وظلوا فى التخطيط لمشروع عظيم، وإخضاع كل جوانبه لفكرة مهيمنة، أدنى بكثير من قدامى بناة المسرح، والمعابد، وميادين السباق، والحمامات العامة، أو الفنانين الذين أقاموا الكنائس القوطية. ومع ذلك، ولأن فن المعمار لا يتطلب ذاتًا متميزة عميقة، ولا ذكاء باهرًا، ولا نسخًا محسوسا لظواهر معينة من الحياة، فتح أمام إمكانات العرب مجالا حققوا فيها ذاتهم أكثر من غيره. نعم إن قواهم لم تكن تمدهم بالوسائل التى ترمى إلى خلق مجموعة متناسقة، إلا أنهم فى هذا الفن استطاعوا أن يحققوا نزعتهم، وأن يظهروا ذكاءهم، وقدرتهم على تنفيذ التفاصيل فى دقة وروعة. ولقد أبدع العرب أعمالا معمارية إذا لم تقم دائمًا وفق خطة واسعة وكاملة إلا أنها مارست فتنة عارمة بتفوقها الرشيق، وثرائها الفياض بالتفاصيل.

ومازال موضع شك ومبهمًا: إلى أى حد أثّر فن المعمار عند عرب الجاهلية فى العصور التالية لهم؟ الحق أنه لا يمكن أن يتطور أى فن معمارى بين القبائل البدوية تظعن من مكان إلى آخر، تحمل معها خيامها المتنقلة. وحدث العكس فى بعض المناطق الخصيبة، حيث ازدهرت المدن، وارتفعت قصور الملوك، وذهبت مثلا فى ترفها وبهائها، كما نقرأ عن الخورنق والسدير، وقصور وحصون أخرى بناها ملوك الحيرة[٢١]، ومع ذلك لم تصلنا أدنى إشارة تلمح إلى الطراز الذى كانت عليه هذه الأبنية. ومن ثم ليس من الممكن أن نتابع خطى تطور فن المعمار عند العرب قبل ظهور الإسلام[٢٢].

---

(٢١) حمزة الاصفهانى: تاريخ، ص ١٠١، طبعة جوتوالدت، ليبزج، ١٨٤٤. وأبو الفدا: تاريخ الجاهلية، ص ١٢٢ و٢٢٧، طبعة فليتشر.

(٢٢) مقدمة ابن خلدون، طبعة كترمير، ٢٣١/٢.

ومع الإسلام كان تقدم فن المعمار بطيئًا للغاية فى البدء، بسبب الانشغال فى حركة الفتوح، وصرامة التقاليد، وبساطة الخلفاء الراشدين، ولأن الأبنية التى يحتاجونها لإقامة العبادة كانت تتم بأقل النفقات. وكما حدث مع المسيحيين فى أيامهم الأولى حين اتخذوا من معابد الرومانيين المهذبين أماكن لطقوسهم الدينية، كذلك فعل المسلمون المنتصرون فاتخذوا من الأبنية الدينية فى البلاد التى خضعت لهم أماكن لصلواتهم وحفلاتهم. وفيما بعد، عندما فتحوا الإمبراطورية الساسانية، وأخضعوا الكثير من مقاطعات الامبراطورية البيزنطية، استلهموا ثقافة المغلوبين، وأعرضوا عن الظعن والرحلة، والحياة غير المستقرة، واتخذوا لهم سكنًا ثابتا، وتمكن منهم حب الفنون التى تجعل من الحياة شيئًا جميلاً[٢٣]. وحب الترف، وبدأ يعلن عن نفسه فى بلاط الخلفاء، وبين الأغنياء من سكان المدن السورية، حاول أن يلبى هذه الرغبات فأنشئت القصور الضخمة، والبيوت الجميلة، ورغب الدين فى مكان متسع وأنيق لغاياته التقية، ووجد العرب فى مقاطعات آسيا الصغرى التى فتحوها كثيرًا من الآثار الاغريقية والرومانية، ووقعوا فى فارس على قصور الساسانيين الرائعة، وبدأ المعماريون فى كل مكان يواصلون العمل بلا كلل، كما كانوا من قبل، طبقًا لذوقهم وأسلوبهم فى البناء والزخرفة، وسلك كثير من ذلك كله طريقه إلى فن المعمار العربى. وأدت بهم الحاجة إلى البناء إلى أن يغتنموا، بطرق متنوعة، أطلال المدن الخربة، وأيضًا لم يكن قليلا عدد المهندسين المعماريين البيزنطيين الذين ساعدوا فى إقامة مساجد الإسلام[٢٤]، ولكن عقائد الفاتحين وتقاليدهم وكانت على قدر من القوة يكفى لكى يطوِّعوا هذا التبادل المدهش لحاجتهم الذاتية، وليوافق خططهم وغاياتهم من منشآتهم الجديدة.

والشكل الذى يعرض لنا بدءا لا يعدو أن يكون مساحة مربعة، ذات أعمدة، ويحيط بها جدار، وتتوسطها ساحة، ويمكن أن نعتبر هذا الشكل البدائى نقطة انطلاق للإبداعات العربية التالية. وكان الأساس كما سنشير إليه عرضًا فيما بعد، الذى قامت عليه بيوتهم وقصورهم، فهى تتكون من ساحة حولها رواق، وتتوسط

(٢٣) المصدر السابق، ٢٣١/٢.

(٢٤) مقدمة ابن خلدون، الفصل الخاص بالبناء، ٣٢٣/٢.

القاعات والأعمدة التى تتجمع على جوانبها. ومن هنا انبثق أيضًا تكوين المسجد، وهو لا يضم، فى أحايين كثيرة، غير الرواق ممتدًا فى جانب، عبر كثير من الأعمدة، وفيه يكون المكان المخصص للعبادة عادة.

● معمار المسجد:

وهناك من يرون أن المسجد فى تكوينه تقليد للكنيسة المسيحية القديمة Basilique، وبالتأكيد لا يمكن إنكار أن هذه الأخيرة مارست تأثيرًا ما على المسجد الإسلامى، ولكن هذا التأثير لا يتجاوز التفصيلات الدقيقة، لأن المسجد والكنيسة يختلفان جذريًا فيما يتصل بالشكل الجوهرى، لأن رواق الأعمدة يشكل فى الكنيسة مدخلا، وهو أضيق مساحة بالنسبة للجانب الرئيسى من البناء، ومنه يدخل القادم إلى المعبد عبر أحد الأبواب. والمسجد العربى على النقيض من هذا، فهو فى شكله الأوّلى، وحتى فى تلك الأشكال التى بلغت الغاية من الدقة، لا يعدو أن يكون مدخلا تحيط به الأروقة، وأحدها يمتد عادة من جانب فى بلاطات أبعد عمقًا. وهكذا نجد مسجد ابن طولون فى القاهرة، وأُسس فى القرن التاسع الميلادى، ففى جوانب ثلاثة منه صفان من الأعمدة، وفى الجانب الرابع خمسة صفوف، والمدخل فى الوسط. وأصل هذا الشكل يمكن أن نرده ببساطة إلى ما عليه، وما كان عليه فى الماضى البعيد، مسجد مكة أعظم المساجد قداسة على الإطلاق عند المسلمين. وقد قام عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين بإقامة سور يحيط بالمكان الذى توجد الكعبة فيه. وفى عام ٦٦ هجرية أقام ابن الزبير رواقًا على امتداد السور[٢٥]. وظل فى هذا الشكل حتى اليوم، باستثناء تعديلات وإضافات بسيطة، مجرد مكان مسور مفتوح أمام الأروقة، وفى وسطه توجد الكعبة وبئر زمزم.

ومن الواضح أن هذا المعبد الموقَّر عند كافة المسلمين، والذى يجب أن يحج إليه كل مسلم مرة فى حياته على الأقل، يبدو فى نظر الجميع نموذجًا أعلى لبقية المساجد. وعلى المسلمين أن يتجهوا فرضًا فى صلاتهم إلى مكة، أى أن يولوا

---

(٢٥) تاريخ مكة، طبعة وستنفلد، جـ٤، ص ١٢١ و١٣٨.

وجوههم شطر القبلة فى المسجد، طبقًا للآية رقم ٨٧، الواردة فى سورة يونس ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتًا، واجعلوا بيوتكم قبلة، وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين﴾، وحُدِّد مكان القبلة بأنه المحراب فى الآية رقم ٣٧، من سورة آل عمران: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا﴾. وقد اضطر المسلمون إلى توسيع هذه الرقعة، ومد صفوف الأعمدة، لشدة ازدحام المؤمنين فى هذا الجانب من البناء.

ومن المناسب فيما يبدو أن نقدم هنا وصفًا قصيرًا لأهم أجزاء مسجد كبير، أو مسجد جامع كما يطلق عليه، لأن كلمة «مسجد» فحسب تطلق على الصغير منه، والمسجد الجامع هو الذى تقام فيه صلاة الجمعة، إلى جانب أنه مركز عدة منشآت أخرى نافعة وتربوية، فحوله يوجد المستشفى، ومن المسجد الجامع تنطلق القوافل المتجهة إلى الحج، وإلى جانبه ملجأ الفقراء، والحمام، والكتّاب، والمدرسة. والمسجد نفسه، بيت الله، ينقسم إلى صحن وجامع بالمعنى الدقيق. وفى مركز الصحن، أو الساحة، يوجد الماء للوضوء عادة، عيونا أو جداول أو نوافير، مغطى بسقف يأخذ شكل قبة، ويتجه نحو مكة، وفى داخل الجامع يوجد المحراب فى نهاية صفوف الأعمدة، مزخرفًا بإتقان، وهو تجويف، أو مصلى صغير، جانبه الأعلى فى شكل صدفة عادة، ويجيء أحيانًا تقليدًا للقبوة فى الكنيسة المسيحية[٢٦]، وأحيانًا توجد الروضة وراء المحراب، وهى قبر منشئ المسجد عادة. ويوجد المنبر على يمين المصلى الذى يتجه نحو المحراب، ومن عليه يلقى الإمام خطبة صلاة الجمعة ويؤم الناس فى الصلاة أمير المؤمنين، سواء أكان الخليفة فى القديم، أم السلطان كما فى أيامنا هذه. وفى مواجهة المحراب، فى نهاية خط يجيء قبل الصحن، تقوم شرفة على أربعة أعمدة، وعلى جانبيها مقعدان، واحد من كل جانب، لقارئى القرآن، مع مسند يوضع عليه المصحف. ولم تكن المئذنة حتى زمن متأخر تكون جزءًا جوهريًا من المسجد، ومن أعلاها، فى ساعات معينة، يكبر المؤذن داعيا الناس إلى الصلاة، والمساجد الرئيسية الكبرى لها عادة أكثر من

(٢٦) يحتفظ بالمصحف فى محراب المسجد، ولا استثناء فى هذا، وفى دمشق مثلا كان يوجد فى قبلة المسجد ازاء المحراب، (ابن بطوطة ٢٠٢/١)، وفى قرطبة كان محفوظًا فى المنبر، (نفح الطيب، طبع أوربا، ٣٦٠/١).

مئذنة. وفضلا عن ذلك تتعدد فيها المنابر أيضًا، فإلى جانب المنبر الذى تلقى من عليه خطبة الجمعة، ويوجد آخر للوعظ، يسمى «الكرسى»، وفوق أكثر الأمكنة قداسة من قاعات الأعمدة ترتفع القبة طبقًا للقواعد.

ومن نافلة القول أن نصرح هنا بأننا نتحدث عن الطراز المعمارى لتلك المساجد التى أقامها العرب بأنفسهم فحسب، وليس عن تلك التى استغل فيها المسلمون أعمال الأمم الأخرى، وجاءت المساجد تقليدًا دقيقًا لها، وفى هذا الجانب تدخل كل المساجد التركية تقريبًا، ويضم إليها مسجد عمر فى بيت المقدس، والذى يعتبر من بين أقدم المساجد فى الإسلام.

ومن بين أكثر المساجد أهمية وشيدها المعمار العربى فى طريقه إلى أوربا، مساجد المدينة ودمشق والقيروان، والأول أقدمها على التأكيد، وأقامه الرسول نفسه، والحق أنه بنى خلال إقامته بالمدينة مسجدا بسيطا، أسهم فيه بنفسه، وعمل بيديه، واستخدموا جذوع النخل فى إقامة أعمدته، وجريده فى السطح، وأصبح هذا البناء فيما بعد، حين استراح فيه جسد مؤسسه الطاهر، من أعظم الأمكنة قداسة فى الإسلام. وبناه خلفاء الرسول من بعده، بأشد المواد صلابة، وأعطوه الشكل الذى لا يزال يحتفظ بأهم خصائصه، فهو فراغ مربع مكشوف، يحوطه رواق يمتد طويلا نحو الجانب القبلى، حيث توجد روضة الرسول، ومقابر أوائل الخلفاء الراشدين(٢٧).

وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك هو الذى أتم العمل فى مسجد المدينة، وهو من أعظم الخلفاء تعميرًا، وحكم من ٧٠٥ إلى ٧١٥ م، وأمر أيضًا ببناء جامع دمشق أحد أشهر المساجد فى الإسلام، «وأتقنها صناعة، وأبدعها حسنًا وبهجة وكمالا» و«كان موضع المسجد كنيسة، فلما افتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الوليد، رضى الله عنه، من إحدى جهاتها بالسيف، فانتهى إلى نصف الكنيسة، ودخل أبو عبيدة بن الجراح، رضى الله عنه، من الجهة الغربية صلحا، فانتهى إلى نصف الكنيسة، فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذى دخلوه عنوة مسجدًا،

---

(٢٧) ابن بطوطة، ١/٢٦٣. وبرتون، الحج إلى مكة والمدينة.

وبقى النصف الذى صالحوا عليه كنيسة، فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة فى المسجد طلب من الروم أن يبيعوه كنيستهم تلك بما شاءوا من عوض، فأبوا عليه، فانتزعها من أيديهم» وأمر بهدم البناء القديم، وأقام عليه هذا البناء الجديد الشامخ، ويتكون من ثلاث بلاطات مستطيلة، تمتد من الشرق إلى الغرب، وأمامها الصحن يحيط به رواق من الجوانب الثلاثة. واستقدم الخليفة عمالا من القسطنطينية، إذ وجه رسالة إلى ملك الروم «يأمره أن يبعث إليه الصناع فبعث إليه أثنى عشر ألف صانع». وطبقًا لرواية المؤرخ أبى الفدا جاء عمال آخرون من بلاد إسلامية أخرى، وعملوا فى تشييد البناء.

وزخارف مسجد دمشق الداخلية بالغة الجمال والثراء، فالأرض مغطاه كلها بالقيشانى، والجانب الأسفل من الحيطان مغطى بالرخام، وفوقه تتعرج كروم مذهبة، وأعلاه مزيّن «بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء، تخالطها أنواع الأصبغة الغريبة الحسن»، وتختلط معها قطع صغيرة من الزجاج، مذهبة أو ملونة، صُورت فيها أشكال أشجار أو مدن أو أشياء أخرى، والسقف سماوى اللون ومطعم بالذهب. ويبدو المحراب الرئيسى متوهجًا، غارقًا فى زخارف بالغة الروعة والثراء، وتقوم فوقه قبة قوية، وثمة أربع وسبعون نافذة، ذات زجاج ملون تمد المسجد بالضوء ويحار المؤرخون العرب كيف يعثرون على المصطلح المناسب فى وصفهم للروائع المدهشة فى هذا المسجد، ويعتبره المسلمون فى الشرق والغرب من «أعظم مساجد الدنيا احتفالا»، ويبدو كما لو كان مدينة، وفيه جماعة من المجاورين لا يتجاوزون عتبات أبوابه أبدًا، مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون عن ذلك. وصلاة واحدة فى هذا المسجد تعدل ثلاثين ألف صلاة فى أى مسجد آخر، «وفى الأثر عن النبى ﷺ، أنه قال: يعبد الله فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة»[٢٨].

---

(٢٨) ابن جبير، طبعة رايت، ص ٢٦٢. وابن بطوطة ١٩٧/١. والمقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٢٦٨/١/٢. وعلى أية حال فإن المبنى القديم احترق عندما فتح تيمور مدينة دمشق، انظر: ابن عر بشاه، حياة تيمور، طبعة منجير، ١٣٢/٢.

● المسجد الجامع فى القيروان :

ويصبح تاريخ المعمار أسطورة عندما يشير إلى تأسيس مسجد القيروان، ذلك أن القائد العظيم عقبة بن نافع بعد أن فتح كل شمال إفريقيا، فى انتصار سريع وحاسم أراد أن يؤسس مدينة «تكون عزا للإسلام وأهله إلى آخر الدهر» فشرع فى بناء مدينة القيروان، وأجابه العرب إلى ذلك، ثم قالوا : «إنك أمرتنا بالبناء فى شعارى وغياض لا ترام، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك. وكان فى عسكره ثمانية عشر رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ، وسائرهم من التابعين، فدعا الله سبحانه وتعالى، وأصحابه يؤمنون على دعائه، ومضى إلى السبخة وواديها ونادى : أيتها الحيات والسباع ! نحن أصحاب رسول الله ﷺ فارحلوا عنا، فإنَّا نازلون، ومن وجدناه بعد هذا قتلناه». فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر معجب، من أن السباع تخرج من الشعرى وهى تحمل أشبالها سمعًا وطاعة، والذئب يحمل جروه، والحية تحمل أولادها، ونادى فى الناس : كفوا عنهم حتى يرحلوا عنها».

«فلما خرج ما فيها من الوحش والسباع والهوام والناس ينظرون إليها حتى أوجعهم حر الشمس، فلما لم يروا شيئًا منها دخلوا فأمرهم أن يقطعوا الشجر، فأقام أهل افريقية بعد ذلك أربعين عامًا لا يرون بها حية ولا عقربًا ولا سبعًا. فاختط عقبة أولا دار الإمارة، ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاختطه، ولم يحدث فيه بناء، وكان يصلى فيه وهو كذلك، فاختلف الناس عليه فى القبلة، وقالوا : إن جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد، فأجهد نفسك فى تقويمها. فأقاموا أيامًا ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس، فلما رأى أمرهم قد اختلف بات مغمومًا، فدعا الله عز وجل أن يفرج عنه. فأتاه آت فى منامه، فقال له : إذا أصبحت فخذ اللواء فى يدك، واجعله على عنقك، فإنك تسمع بين يديك تكبيرًا لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك، فانظر الموضع الذى ينقطع عنك فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك، وقد رضى الله أمر هذا العسكر، وهذا المسجد وهذه المدينة، وسوف يعز الله بها دينه، ويذل بها من كفر به».

«فاستيقظ من منامه وهو جزع، فتوضأ للصلاة، وأخذ يصلى، وهو فى المسجد

ومعه أشراف الناس، فلما انفجر الصبح، وصلى ركعتى الصبح بالمسلمين، إذا بالتكبير بين يديه، فقال لمن حوله: أتسمعون ما أسمع؟، فقالوا: لا، فعلم أن الأمر من عند الله. فأخذ اللواء فوضعه على عنقه، وأقبل يتتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب، فانقطع التكبير، فركز لواءه، وقال: هذا محرابكم، فاقتدى به سائر مساجد المدينة. ثم أخذ الناس فى بناء الدور والمساكن والمساجد وعمرت، وشد الناس إليها المطايا من كل أفق، وعظم قدرها»[٢٩].

وهكذا تم تشييد الجامع فى العاصمة الوليدة لشمال أفريقيا، وكان يحتوى فى البدء على أربعة أجنحة، وصحن صغير، ومنارة منخفضة، وفى عام ٨٣٦ م جدد تمامًا، وأصبح بناء بالغ الروعة، يتكون من سبعة عشر جناحًا، ويقوم سقفه على أربع مئة واثنى عشر عمودًا، وأصبح محرابه من الرخام الأبيض، وقد حفر بدقة، ونحت بعناية، تغطيه نقوش وزخارف عربية، ويضيئه ألف وسبع مئة مصباح خلال شهر رمضان[٣٠].

● آثار الأندلس:

أما آثار بغداد المعمارية فلا تنتمى إلى الفترة التى سبقت الآثار الأندلسية، لأن الخلفاء العباسيين حين أخذوا فى تجميل عاصمة امبراطوريتهم بالمساجد والقصور، كان خلفاء بنى أمية المستقلون فى الأندلس قد بدأوا يمارسون النشاط نفسه فى الغرب الإسلامى. ومنذ اللحظة التى فتح فيها المسلمون الأندلس وجدوا مبانى رائعة من العصرين الرومانى والقوطى، ولا يتردد المؤرخون العرب فى إطراء الروعة التى كانت عليها هذه المبانى، قصورًا أو كنائس أو جسورًا، ويشهدون بأنها ملأت بالدهشة قلوب الفاتحين[٣١]، ومع ذلك لم يتخذوا من هذه الآثار نماذج لهم، إلا فى حالات نادرة، رغم أنهم اعتمدوا كثيرًا على موادها فى أعمالهم المعمارية

(٢٩) البيان المغرب، ١٩/١ وما بعدها.

● وقد أورد المؤلف القصة موجزة تمامًا، وأتينا عليها كاملة ففيها من الدلالات على تحرى المسلمين أمر القبلة الشيء الكثير. (المترجم)

(٣٠) البكرى، طبعة سلان، ص ٢٢ - والقرطاس، طبعة تورنبرج ص ٢٩.

(٣١) البيان المغرب، ١٦/٢.

العربية، ومر زمن طويل قبل أن يقع فى خاطر العرب أن هذه الآثار لها أية أهمية. وكذلك كان الإسلام فى الأندلس، وفى أى مكان إذا شئت، يواصل فتوحاته، ويقيم المساجد وتعوّد المسلمون أن يخططوا لها بأنفسهم، رفقة راياتهم، فى البلاد التى يفتحونها، وكانت هذه المساجد، دون جدال، فى الجانب الأكبر منها، كنائس مسيحية طوّرها المنتصرون جزئيا، وحولوها إلى أمكنة لعبادتهم[٣٢].

ولكن الفتن التى تلت مباشرة فتح البلاد البعيدة لم تسمح بقيام أى بناء ذى أهمية فى زمن سريع، وقبل أن يتمتع الأندلس بلون من الاستقرار تحت حكم الخليفة الأموى الأول لم يستطع أن يفكر فى منشآت فنية ضخمة.

● المسجد الجامع فى قرطبة :

ويروى المقرى، نقلا عن الرازى «أنه لما افتتح المسلمون الأندلس امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، عن رأى عمر رضى الله عنه، بالشام من مشاطرة الروم فى كنائسهم، مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذ صلحا، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التى كانت داخل مدينتها تحت السور، وكانوا يسمونها بشنت بنجنت Sant Vincent، [وكانت فى الأصل معبدا رومانيا]، وابتنوا فى ذلك الشطر مسجدا جامعا، وبقى الشطر الثانى بأيدى النصارى، وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة، واقتنع المسلمون بما فى أيديهم، إلى أن كثروا، وتزيّدت عمارة قرطبة، ونزلها أمراء العرب، فضاق عنهم ذلك المسجد وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكنون بها، حتى كان الناس ينالون فى الوصول إلى داخل المسجد الأعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف، وقصر أبوابها، وتطامن سقفها، حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض»[٣٣].

---

(٣٢) ابن القوطية، نقلا عن المجلة الأسيوية، ١٨٥٦، المجلد ٢، ص ٤٣٩.

(٣٣) هذه الفقرة ليست فى الأصل وإنما أضفتها لتصويب فكرة المؤلف، فقد غم عليه الأمر، وتصوّر أن بدء بناء المسجد بدأ فى عهد عبدالرحمن الداخل، على حين أنه فى صورته الأولى بدأ مع الفتح نفسه، أما عبدالرحمن فقد وسّعه، وأكمله على ماستبرى، نفح الطيب، ٥٦٠/١، طبعة احسان عباس. (المترجم)

«ولم يزل المسجد على هذه الصفة إلى أن دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية المروانى إلى الأندلس، واستولى على إمارتها، وسكن دار سلطانها قرطبة، وتمدنت به، فنظر فى أمر الجامع، وذهب إلى توسعته وإتقان بنيانه، فأحضر أعاظم النصارى، وسامهم بيع ما بقى بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع، ليدخله فيه، وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه، فأبوا من بيع ما بأيديهم، وسألوا بعد الجدّ بهم أن يباحوا بناء كنائسهم التى هدمت عليهم بخارج المدينة، على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذى طولبوا به، فتم الأمر على ذلك، وكان ذلك سنة ثمان وستين ومائة»(٣٤) = ٧٨٥م. وبعد ذلك هدم ما كان قد تبقى من الكتدرائية وأقيم المسجد الجامع العظيم فى المكان نفسه، ومن الطبيعى أن يستغل المسلمون الأحجار والمواد الأخرى التى كانت فى المبانى القديمة فى البناء الجديد، واستخدموا بخاصة الأعمدة ذات الطرز المختلفة، وحتى عندما كان ينقص عمود هنا أو عمود هناك كانوا يستكملونه بعمل أعمدة من الطراز نفسه، لكى تحتفظ بلون من التناسق فيما بينها، وكانت قلة المعرفة، وربما نقص الادراك، عند المهندسين المعماريين سببًا فى أنهم وضعوا فوق الأعمدة، غالبا، موادًا لا صلة لها بساق العمود، وانتهى بناء المسجد الجامع فى فترة قصيرة لا تتجاوز العام، وبصورة أولية ومؤقتة.

وقد حاول الأمراء الذين جاءوا بعد عبد الرحمن الداخل جميعا أن يضيفوا إليه المزيد من المساحة، والجميل من الزينة والزخارف، فأضاف إليه هشام بن عبد الرحمن منارة، وأرغم المسيحيين على أن يحضروا ما ليس بقليل من بقايا أسوار مدينة نربونة التى افتتحها إلى أبواب قصره فى قرطبة، واستخدمها فى تشييد مساجد أخرى(٣٥). وجاء عبد الرحمن الثانى فوسع فيه أكثر وزين ابنه محمد داخل

---

(٣٤) أوجز المؤلف هذه الفقرة وآثرت أن آتى بها كاملة لتتضح القضية من جوانبها المختلفة. (المترجم)

(٣٥) لذريق الطليطلى، الفصل ٢٩. والحق أن المقرى فى نفح الطيب، طبع أوربا، ٢١٨/١، و ٣٣٧/١ طبعة احسان عباس، يتحدث عن بناء المسجد «الذى قدام باب الجنان»، وهو، طبقا للمقرى نفسه، فى نفح الطيب أيضا، طبع أوربا ٣٠٣/١، غير المسجد الجامع. ومع ذلك يشير ابن القوطية إلى أن هشاما استخدم خمس فئ نربونة فى بناء المسجد الجامع.

المسجد بزخارف بديعة، وأقام فيه مقصورة، وأنشأ الأمير عبد الله طريقا مغطى يصل ما بين قصر الإمارة وهذه المقصورة.

أما عبد الرحمن الناصر، والذى استحق لقب العظيم، فقد أقام منارة جديدة رائعة، فى مكان المنارة القديمة التى هدمت[٣٦]، وبنى إلى جانب هذه المنارة حجرة للمؤذنين. وأعظم تجديد أصاب المسجد الجامع تم فى عهد الحكم الثانى، فقد وسع الإحدى عشرة بلاطة العريضة التى وجدها قائمة، وزاد فى طوله مئة ذراع وخمسة نحو الجنوب، حيث أقام محرابا جديدا[٣٧]، ومقصورة جديدة[٣٨].

● ويشير المقرى أيضا فى موضع آخر غير الموضعين اللذين أشار إليهما المؤلف إلى أن هشاما الرضى زاد فى المسجد الجامع، وجدده من خمس فئ أربونة. انظر ٥٦١/١ طبعة احسان عباس. (المترجم)

(٣٦) وهذه المنارة سقطت بدورها فى زلزال، ويقوم مكانها اليوم برج لدق الناقوس، من عمل المهندس المعمارى هرنان رويث، وهو من الطراز الإغريقى الرومانى، ويتوج البرج تمثال لرئيس الملائكة القديس رفائيل.

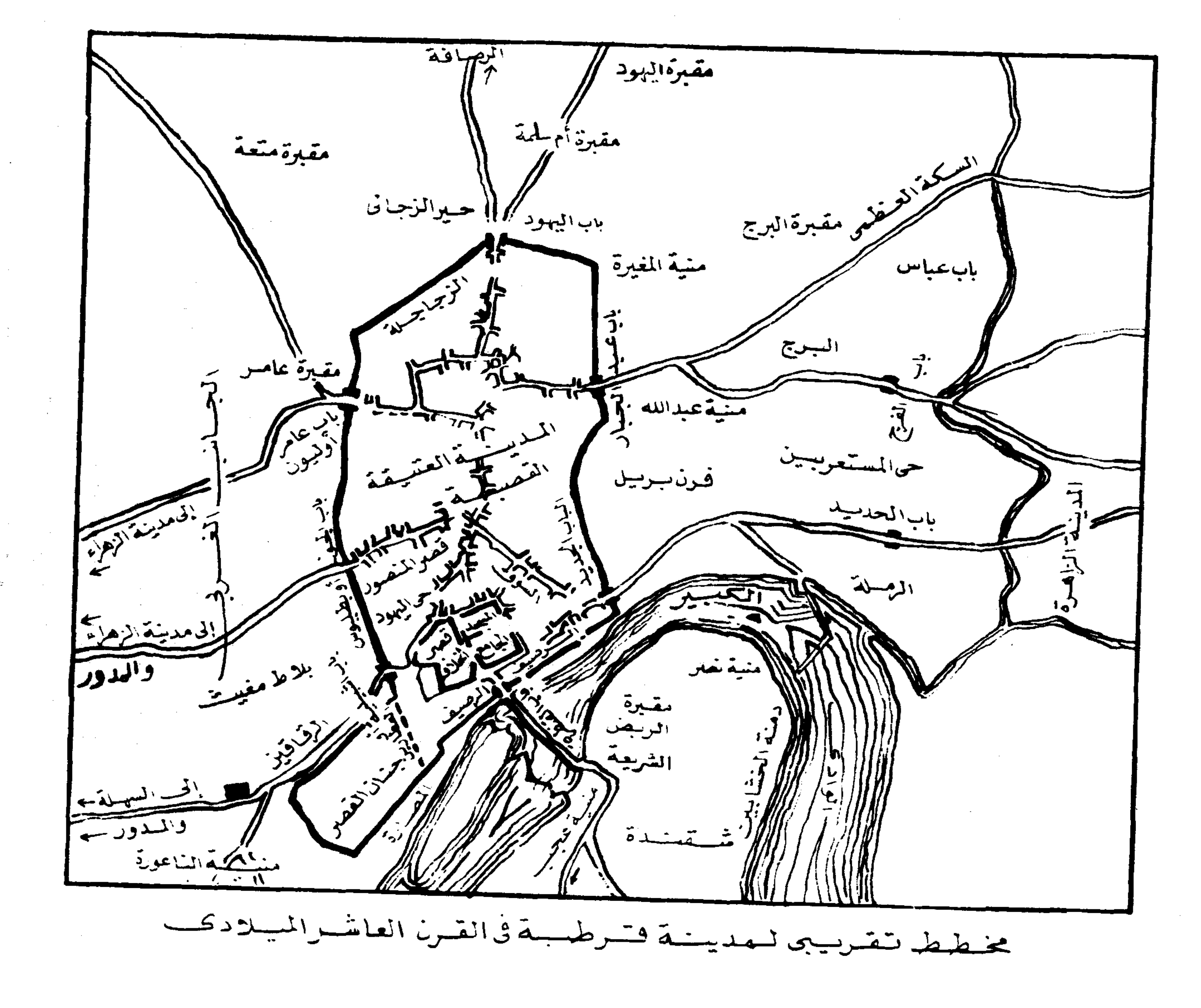
(٣٧) وإلى جوار هذا المحراب كان يقوم المنبر، وصنع من أكارم الخشب، ما بين آبنوس وصندل ونبع وبقم وشوحط، وما أشبه ذلك، مزينا بالجواهر، فجاء غاية فى الروعة، واستمر العمل فى صنعه ثمانية أعوام. وفى داخل المنبر مكان لمصحف عثمان الذى خطه بيده «وعليه حلية ذهب مكللة بالدر والياقوت، وعليه أغشية الديباج، وهو على كرسى العود الرطب بمسامير الذهب»، ويحتاج فى حمله إلى رجلين، وجىء به إلى الاندلس عام ٥٥٦ هـ، وطبقا للرواية الشعبية فإن الخليفة عثمان كتب النسخة بدمه نفسه، وأخذه من مسجد قرطبة عبد المؤمن بن على أمير الموحدين، وكان يصحبه معه فى حملاته الحربية. (خوان باليرا)

● انظر الملحق رقم ١ الخاص بقصة مصحف عثمان فى الاندلس. (المترجم)

(٣٨) مع أن مكة تقع جنوب شرقى اسبانيا، ومن ثم يجب أن يتوجه إليها المحراب والقبلة، إلا أنهما واقعا يتجهان نحو الجنوب.

أنظر : Las siete partidas، التدوين الثالث، العنوان الحادى عشر، الفصل الواحد والعشرين، حيث يصف الطريقة التى يحلف بها المسلمون : «يديرون وجوههم، ويرفعون أيديهم نحو الجنوب، باتجاه ما يسمونه القبلة»، وانظر أيضا المقرى، نفح الطيب ٣٦٩/١، طبعة أوربا.

● ذكر المقرى فى نفح الطيب، جـ١ ص٥٦١ طبعة احسان عباس، أن الحكم الثانى شاور «العلماء فى تحريف القبلة نحو المشرق، حسب ما فعله والده الناصر فى قبلة جامع الزهراء، لأن أهل التعديل يقولون بانحراف قبلة الجامع القديم إلى نحو الغرب، فقال له الفقيه أبو إبراهيم : يا أمير المؤمنين، أنه قد صلى إلى هذه القبلة خيار الأمة من أجدادك الأئمة وصلحاء المسلمين وعلمائهم، منذ افتتحت الاندلس إلى هذا الوقت، متأسين بأول من نصبها من التابعين كموسى بن نصير وحنش الصنعانى وأمثالهما، رحمهما الله تعالى، وإنما فضل من فضل بالاتباع، وهلك من هلك بالابتداع، فأخذ الخليفة برأيه، وقال، نعم ما قلت وإنما مذهبنا الاتباع». (المترجم)



مخطط تقريبى لمدينة قرطبة فى القرن العاشر الميلادى

[ولما زاد الناس بقرطبة، وانجلب إليها قبائل البربر من العدوة وأفريقية، وتناهى حالها فى الجلالة، ضاقت الأرباض وغيرها، وضاق المسجد الجامع عن حمل الناس]، فشرع المنصور بن أبى عامر فى الزيادة بشرقيه، حيث يمكن الزيادة، لاتصال الجانب الغربى بقصر الخلافة، فأضاف ثمانى بلاطات جديدة فى الحجم نفسه إلى الإحدى عشرة التى كانت قائمة، لتصبح جملتها تسع عشرة بلاطة(٣٩). وكانت المواد المستخدمة فى بناء هذه الزيادة من بقايا الكنائس التى هدمها المنصور فى شمال اسبانيا، وجاء بها الأسرى المسيحيون يحملونها على أكتافهم حتى قرطبة(٤٠).

وتوالى الخلفاء من بنى أمية على الزيادة فيه، وتم البناء بعد أن شغل قرنا كاملا من الزمان، حتى صار المثل مضروبا به، وأصبح متوازى الأضلاع، يمتد من الشمال إلى الجنوب، يحيط به سور مرتفع تتخلله الشرفات، وينهض عاليا قلعة للعقيدة، «وعدد أبوابه الكبار والصغار واحد وعشرون بابًا: [فى الجانب الغربى تسعة أبواب، منها واحد كبير للنساء يشرع إلى مقاصيرهن، وفى الجهة الشرقية تسعة أبواب، منها لدخول الرجال ثمانية أبواب، وفى الجهة الشمالية ثلاثة أبواب، منها لدخول الرجال بابان كبيران، وباب لدخول النساء إلى مقاصيرهن. وليس لهذا الجامع فى القبلى سوى باب واحد بداخل المقصورة المتخذة فى قبلته، متصل بالساباط المفضى إلى قصر الخلافة، منه كان السلطان يخرج من القصر إلى الجامع لشهود الجمعة](٤١)، وكل هذه الأبواب تكسوها صفائح من النحاس الأصفر، بالغة الروعة والجمال، مخرمة تخريما عجيبا بديعا، يعجز البشر ويبهرهم. [وفى كل باب منها حلقة فى نهاية الصنعة والحكمة، وعلى وجه كل باب منها فى الحائط ضروب من الفص المتخذ من الآجر الأحمر المحكوك، أنواع شتى وأجناس مختلفة،

---

(٣٩) اعتمدنا فى هذا على البيان المغرب بخاصة، جـ٢، الصفحات: ٢٤٤ و ٢٤٩ و ٢٥٤ و ٣٠٨، حيث توجد الفقرات الخاصة بتاريخ بناء المسجد الجامع واضحة، وانظر أيضا المقرى، فى نفح الطيب، طبعة أوربا ٣٥٨/١ وأمكنة أخرى.

(٤٠) المقرى ١٤٦/٢.

(٤١) التفصيل من نفح الطيب، جـ١ ص ٥٥٠، طبعة احسان عباس. (المترجم)

من الصناعات والتريش وصدور البزاة][٤٢]، وهذه الأبواب توصل إلى داخل السور.

وفى الجانب الشمالى تقوم منارة عبد الرحمن الثانى، وفى قمتها، «أعلى القبة المفتحة التى يستدير بها المؤذن»، تلمع إلى جانب شمس الأندلس الساطعة ثلاث رمانات، اثنتان من الذهب الخالص، والثالثة من الفضة، [وتحت كل واحدة منها وفوقها سوسنة قد هندست بأبدع صنعة، ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج، وهى إحدى غرائب الأرض]. وإلى جانب هذه المنارة يوجد المدخل الرئيسى إلى صحن المسجد، تحيط به الأعمدة من جوانبه الثلاثة، [وكان الحكم الثانى قد هدم الميضأة القديمة التى كانت به، ويستقى لها من بئر السانية، وبنى موضعها أربع ميضآت، فى كل جانب من جانبى المسجد الشرقى والغربى منها اثنتان، كبرى للرجال وصغرى للنساء، أجرى فى جميعها الماء فى قناة اجتلبها من سفح جبل قرطبة، إلى أن صبت ماءها فى أحواض رخام لا ينقطع جريانه الليل والنهار، وأجرى فضل هذا الماء العذب إلى سقايات اتخذهن على أبواب هذا المسجد بجهاته الثلاث الشرقية والغربية والشمالية، أجراها هنالك إلى ثلاثة جوانب من حياض الرخام، استقطعها بمقطع المنستير، بسفح جبل قرطبة، بالمال الكثير، وألفاه الرخامون هنالك، واحتفروا أجوافها بمناقيرهم فى المدة الطويلة، حتى استوت فى صدورها البديعة لأعين الناس، فخفف ذلك من ثقلها، وأمكن من إهباطها إلى أماكن نصبها بأكناف المسجد الجامع، وأمد الله تعالى على ذلك بمعونته، فتهيأ حمل الواحدة منها فوق عجلة كبيرة اتخذت من ضخام خشب البلوط، على فلك موثقة بالحديد المثقف، محفوفة بوثاق الحبال، قرن لجرها سبعون دابة من أشد الدواب، وسهلت قدامها الطرق والمسالك، وسهل الله تعالى حملها واحدة بعد أخرى على هذه الصفة، فى مدة اثنى عشر يوما، فنصبت فى الأقباء المعقودة لها][٤٣]، وهذه الميضآت توجد بين أشجار البرتقال الوارفة.

---

(٤٢) الزيادة من الادريسى، بتصرف، فى كتابه «نزهة المشتاق». وصدور البزاة يعنى بها، فيما يبدو، لونا من الزخرفة، من حجر أوخشب لاخفاء الزوايا بين عقدين متماسكين. (المترجم)

(٤٣) أورد المؤلف الخبر مجملا فيما يتصل بالميضآت، وأسقط ذكر سبل المياه، وطريقة عملها، رغم أهميتها، وجئت بالنص كاملا، نقلا عن المقرى، فى نفح الطيب، ج ١ ص ٥٥٥. (المترجم)

وفى الجانب الرابع من الصحن، وهو الجنوبى، يمتد القسم المسقوف من المسجد، بأبهائه الكثيرة الموزعة بين الأعمدة، ويظن الناس فى ضوء واقعه الحالى أن الجدار الذى يفصل هذا القسم عن الصحن كان موجودا فى الأصل، ولكنى أعتقد أنه فى القديم كان مفتوحا كله نحو الصحن، كبقية مساجد الشرق، أى أن البصر يمكن أن يمتد ويتعمق فى المسجد بوضوح منذ أول النهار إلى أن يتغشى الظلام العقود والقباب(٤٤). وحين يمضى المرء داخل المسجد يظن أنه فقد نفسه فى غابة بدائية من الأحجار، لأنها تبدو له ممتدة إلى ما لا نهاية فى كل الجوانب، «وعدد سوارى هذا المسجد الجامع الحاملة لسمائه، والملصقة بمبانيه وقبابه ومناره، وغير ذلك من أعماله، بين كبار وصغار ألف وأربع مئة سارية وتسع وسوار، منها بداخل المقصورة مئة وتسع عشرة سارية» تنهض على قواعد من الرخام، أخذت من المبانى القديمة، وتميزت بتنوع تيجانها، وتحمل فوقها سقفا محكما مطليا بثراء، ومغطى بنقوش(٤٥). وهذه النقوش عملت على نوع من الأخشاب، تؤخذ من أشجار تنبت فى شمال أفريقيا بخاصة، تعمر طويلا وتقاوم الفناء، وتوجد النوافذ على امتداد الجدران، والتى غُطِّيت بالرخام المنحوت فى دقة من أدنى أسفلها حتى السقف(٤٦). وبين عمود وآخر ينهض عقد حدوى، وفوقه يرتفع عقد آخر مدور، ممتد من عمود إلى آخر، وعبر هذا التيه، بين تسع عشرة بلاطة عريضة، وثلاثة وثلاثين أخرى تتقاطع معها، نصل إلى جدار مدهون، تعلوه شرفات صغيرة، ذات زخارف بالغة الروعة والثراء، وربما أفرغت فى شكل حاجز من الحديد، وهو يحيط بالمقصورة، الجانب الأكثر قداسة فى المسجد، وكان هذا الجدار إلى الجنوب، فيما أقامه الحكم الثانى، ويحتضن البلاطات الخمس الوسطى، من الإحدى عشرة

---

(٤٤) يمكن أن نفهم من هذا أن الجدار الذى يفصل بين الصحن وبقية المسجد، الذى حول الآن إلى كنيسة، يحتوى على عقود وأعمدة مجلوبة، تتفق فى نظامها وموقعها مع الأعمدة التى بداخل المسجد. وثمة نقش على هذا الجدار ونشر فى «الدراسات التاريخية لمجمع التاريخ»، المجلد ٦، ص٣١٧، يشير إلى أن الجدار من عمل عبد الرحمن الناصر، ويتفق فى هذا مع ما أورده ابن عذارى، فى البيان المغرب ٢/٢٤٦ حيث يقول: أقام عبد الرحمن الناصر الجدار الذى إلى جانب الاحدى عشرة بلاطة.

(٤٥) تختلف رواية المؤرخين العرب كثيرا فيما بينها حين تعرض لعدد الأعمدة، وما يوجد الآن بالمسجد منها يبلغ ٩٠٠ عمود، وهى شاهد ناطق على القسوة التى تعرض لها عند تحويله إلى كنيسة.

(٤٦) الإدريسى، ٢/٦٢.



منظر خارجي لمسجد قرطبة الجامع

بلاطة التى كانت تكون المسجد فى البدء، أى أنه بقيت ست بلاطات فحسب، ثلاث من كل جهة، أى أن مساحة المقصورة كانت تضم مئة وتسعة عشر عمودا، وتمتد من الشرق إلى الغرب خمسة وسبعين ذراعا، وعرضها من جدار الخشب إلى سور المسجد بالقبلة، أى من الشمال حتى حائط المسجد الجنوبى، اثنان وعشرون ذراعا، وارتفاعها فى السماء إلى حد شرفاتها ثمانية أذرع[٤٧].

ويصل الخليفة من قصره إلى المقصورة، عبر ممر مغطى، وباب مخصوص يوجد فى الجدار الجنوبى، ويأخذ مكانه وسط المقصورة[٤٨]، ودون أدنى شك كان دخول الجمهور إليها متاحا فى ذلك الوقت، [ولهذه المقصورة ثلاثة أبواب بديعة الصنع، عجيبة النقش، شارعة إلى الجامع، شرقى وغربى وشمالى]. وتصل من بقية السور إلى داخل المسجد وإلى المقصورة، ونظر من يمر بها يقع فى تلك اللحظة على الجدار الجنوبى من المسجد، فيتغشى بصره الوهج القوى المنعكس من الرخام المذهب الذى يغطيه، ومن الفسيفساء المزين به. ويرى هناك «قدس الأقداس»، إذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير، ويتكون من ثلاث مصليات متجاورة، ذات عقود حدوية مدببة، عملت فى إتقان بالغ، وهى فى الجدار الجنوبى، ومغطاة بفسيفساء مشع جميل، مصنوع من أحجار صغيرة، تخالطها قطع الزجاج المذهب، أو الملون، ونقشت عليها آيات من القرآن، أو كتابات أخرى بالخط الكوفى، أو عقود من الأزهار، وبعض الزخارف العربية الفاتنة، ذات الألوان الزاهية، فوق أرضية من الذهب، والوسطى أكبر، وأشد هذه المصليات بريقا، وفوقها قبة كبيرة مفرطحة

---

(٤٧) انظر : المقرى، ٣٦٢/١ طبع أوربا.

ويفهم من المقصورة «المصلى المنفصل عن بقية المسجد، ويقفل ليلا، على حين يظل المسجد مفتوحا، ولهذا فان المسجد الجامع فى تلمسان كان مسورا بدر ابزين، كما فى مسجد قرطبة». انظر : لين بول، المصريون المحدثون : عاداتهم وشمائلهم، ١١٩/١. وبارجيه، تلمسان : طبوغرافيتها وتاريخها، باريس ١٨٥٩، ص ٣٣٤.

وعندما يجىء لفظ المقصورة مطلقا يجب أن نفهم منه على الدوام أنهم يعنون به هذا الجانب المعزول عن بقية المسجد. ومع ذلك فإن الكلمة قد تعنى مكانا ما مسورا، أو منصة، وبهذا المعنى الآخر يوجد فى المساجد الجامعة مقاصير عديدة، كما فى مسجد دمشق مثلا. أنظر : المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٢٨٣/١/٢.

وبهذا المعنى يمكن أن تشمل أيضا المكان المسور، أو منصة الخليفة، وكانت هذه وسط مساحة كبيرة، ويطلق عليها اسم : «المقصورة».

(٤٨) المقرى، ٣٦٢/١.

من الرخام الأبيض، تتدلى منها ثريا كبيرة، وإلى اليمين منها يوجد المحراب الرئيسى[٤٩]، وهو حنية قاعدتها مثمنة، وينتهى أعلاها بصدفة عملاقة من الرخام، وتعكس حولها بريق زخارفها من الفسيفساء المذهب والملون. والبلاطة التى تقود من الباب الشمالى إلى هذه المصلى الرئيسية أعرض من بقية البلاطات الأخرى، وتتميز بزخارف أبهى جمالا، وأشد ثراء فى عقودها، وفى تيجان الأعمدة.

وعلى يمين المحراب نرى المنبر، جميلا وفخيما بما يحوى من صناعة فنية رائعة، وبالخشب النادر الذى صنع منه، [وليس على معمور الأرض أنفس منه، ولا مثله فى حسن صنعته، وخشبه ساج وآبنوس وبقّم وعود قاقلىّ، ويذكر فى تاريخ بنى أمية أنه أحكم عمله ونقشه فى سبع سنين، وكان يعمل فيه ثمانية صناع، لكل صانع فى كل يوم نصف مثقال محمدى[٥٠]، فكان جملة ما صرف على المنبر لا غير عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالا][٥١]. وفى مواجهة المحراب مع ميل إلى الشمال قليلا توجد منصة تقوم على أعمدة تسمى «المحفل» أو «الدكة»، مع سندى كتابين على الجانبين[٥٢]، وعدد لا يحصى من الثريات، بعضها من الفضة الخالصة، والبعض الآخر من النحاس المسبوك، وأخذ من الكنائس المسيحية،

---

(٤٩) يوجد، دون شك، من هذه الحنايا أو التجاويف أكثر من واحدة فى كل مسجد، وحتى اليوم يمكن أن نميز اثنتين منها فى مسجد قرطة، واحدة على اليمين، وأخرى على الشمال، وكان فى المسجد الجامع فى دمشق ثلاثة محاريب على الأقل.

أنظر: المقريزى، السلوك ٢٢/١/٢٨٣. وابن بطوطة ٢٠٣/١.

(٥٠) المثقال فيما يرى الأصمعى دينار ثقيل، كامل لا ينقص، والمثقال المحمدى دينار له نفس السمات، وهو منسوب إلى محمد بن الناصر الموحدى، ولا يتأتى هنا تاريخا، غير أن هناك دنانير محمدية أخرى تنسب إلى محمدية العراق، أو إلى مدينة المحمدية فى المغرب.

انظر: أبو الحسن على بن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة، ص١٤٩، والحاشية رقم ٥، فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، المجلد السادس، عام ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م. (المترجم)

(٥١) الزيادة من نفح الطيب، جـ١، ص٥٥٨، طبعة احسان عباس. (المترجم)

(٥٢) كل المساجد التى زرتها فى مصر أو الجزائر أو تركيا فيها مكان مخصص لهذا اللون، منصة أو شرفة، وهى فيما يبدو أساسية فى العبادة الإسلامية، ومن ثم يمكن أن نستنتج أنها كانت موجودة فى مسجد قرطبة، رغم أن المدونات التاريخية العربية لا تشير إليها

معلقة فى القباب. أما الرخام المختلف الألوان، والمتقن الصناعة، والمذهبات والفسيفساء فتوجد فى كل جوانب البناء.

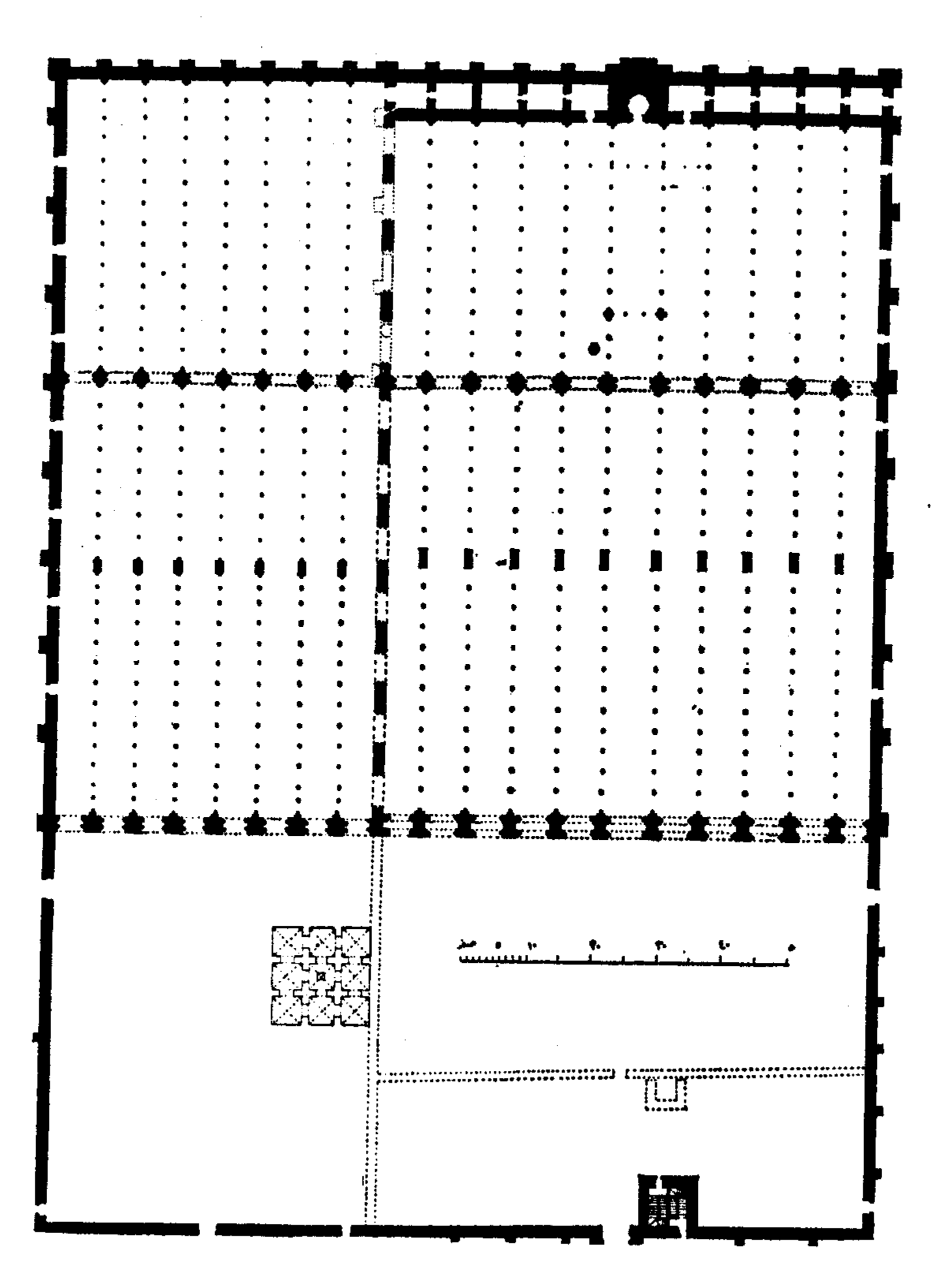
وتوجد أيضا شخوص منحوتة أو مرسومة، على أعمدة ثلاثة حمراء اللون، «مكتوب على الواحد اسم محمد، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف، وعلى الثالث صورة غراب نوح، خلقة ربانية». وذلك شاهد ناطق على أن الإسلام لم يحرم اطلاقا تصوير الكائنات الحية، فقد كانت موجودة فى هذا المسجد، وهو أحد المساجد الكبرى فى العالم الإسلامى[٥٣].

ولا يمكن أن نتجاهل أن المبنى فى مجمله وفى تفاصيله ينطوى على كثير من العيوب، ويحمل طابع فن محدود التقدم، فلا نلحظ فيه ذلك التناسق البديع الذى يولد فى أعماق النفس أرق المشاعر إحساسا بالجمال، ويشرق فيه الجلال الإلهى للمعبد الأغريقى، والذى يعكس معماره الدقة فى كل جوانبه، ولا نلحظ فيه أيضا الإبداع الرائع الذى نلتقى به فى الكتدرائية القوطية، تنهض على أعمدة من الرخام، تشد الفكر نحو السموات العلى فى انبهار خاطف قوى، لأنها تتنفس من كل جوانبها حياة تنبض بالأسرار، وتسهم جميعها فى تكوين ما يمكن أن يكون رمز العقيدة، وموطنا خاصا بالتقوى، ومناسبا للتأملات العميقة، ومليئة بشخوص المرمر الجادة، وطوائف من الصور تسطع فى النوافذ، ويتغشى المؤمنين عند العبور بها إلى قداسهم بريق صدفى، يشبه أن يكون شعاعا من المجد الإلهى.

ولكن، حتى إذا لم يستطع مسجد قرطبة الجامع أن ينافس فى الدقة المعمارية البارثنون الإغريقى، أوكتدرائية ستراسبورج الفرنسية، يجب أن ننظر إليه على الدوام كواحد من أروع الأعمال التى أبدعتها يد الإنسان، فى عمارته وعظمته، وفى جلاله وضخامته وصلابته، وفى بريقه الذى يُعشى، والروح المهيب الذى يملأ جوانبه، وحين نتأمل داخله، وترن آيات القرآن فى أنحائه، تغشانا فتنة لا تقاوم.

---

(٥٣) ما عرضته يقوم على الموازنة الدقيقة بين كل المعلومات المختلفة، والتى يصعب التوفيق بينها فى أحايين كثيرة، ونجدها فى : المقرى، جـ١، ص٣٥٨ و ٣٦١ و ٣٦٧ وغيرها، مطبعة أوربا. والبيان المغرب ٢٤٤/٢، والإدريسى ٥٨/٢.



مخطط مسجد قرطبة الجامع بعد الزيادات المتعددة التى أدخلت عليه

وما أروع أن يقيم الإسلام مسجدا، يصور نفسه، ويجلو ذاته، ويجسّد أبعد أعماقه، بمواد غريبة فى الجانب الأكبر منها. ولأن العرب يحنون إلى الفىء، ويشتاقون إلى الشراب، تخيلوا جنتهم مكانا فياضا بالملذات، مليئا بالطراوة، وبالنوافير الموشوشة، وأرادوا أيضا أن يجعلوا من بيت الله شيئا شبيها بجنة عدن، وأوقفوا عليه كثيرا من الخير والفضل، وبها وعد الله السعداء المتقين، ولهذا توجد فى الصحن، تحت الأشجار الوارفة، الينابيع الموشوشة، تشبه تلك التى تستريح عندها الصفوة المختارة، ومن يدخل تحت سقف المسجد يغمره شعور شبيه بأحاسيس من يدخل غابة مقدسة وسط ظلام دامس، فهنا وهناك أطياف من أشعة الضوء، تخترق الجو، وتعكس شفقا ناعما، ثم تعود من حيث أتت، إلى ظلام الغابة العميق، وتنهض الأعمدة كسيقان الأشجار، وتتقاطع العقود كالأغصان، وتكون سقفا ظليلا، على نمط «التوبة»، شجرة الجنة الرائعة، والتى تتوالد بالطريقة نفسها، كأشجار الجميز الهندى، وحتى لا تمتد أغصانه عاليا فى الهواء، تعود إلى الأرض، وتتعمق فيها، وتصبح جذعا جديدا، وإلى جانب ذلك تتزين الجدران برسوم تأخذ شكلا عربيا، ومتاهات رائعة بديعة، تجىء فى شكل نباتات متسلقة، أو أزهار أريجة، أو أشجار مثمرة، تتعلق بالجدران، وتتلوى على امتداد السقف، ويقال أنها تتوقف فوق رءوس المؤمنين (٥٤).

هذا شعب مختلف العقائد والتقاليد إلى حد كبير، وخصص لعبادته مسجد الإسلام هذا، وفى زمن آخر كان المسلمون يحجون إليه مثل كعبة ثانية(٥٥)، وأبواب النحاس التى كانت فى كتدرائية شنت ياقو Santyago، وكان يحتفظ بها قليلا كتذكار فى المسجد، وجىء بها حتى قرطبة على أكتاف المسيحيين، عادت إلى مكانها الأول بأمر من الملك سان فرناندو، ومحمولة على أكتاف الأسرى المسلمين. واليوم فى أحايين قليلة نادرة فحسب، يستطيع المسلم، كغريب وتائه، أن يتعمق داخل ذلك المسجد، وأن يتجول تحت قبابه، وطالما صلى فيه أجداده من قبل، ولو

---

(٥٤) علق خوان باليرا على هذه الفقرة بأن أورد قصيدة طويلة للشاعر الألمانى الدكتور فشتنراته، ولأنها طويلة جدا، آثرت أن أترجمها كاملة، وأن الحقها بآخر الكتاب، انظر: الملحق رقم٢. (المترجم)

(٥٥) هذا مايعتقده أهل قرطبة، ويردده الأدلاء الأثريون، وهم جد فخورين بعاصمتهم حين كانت مسلمة، فى آذان السياح، ولكن الرواية لاتقوم على سند تاريخى، ولم أجد لها أثرا فيما قرأت من مصادر أندلسية. (المترجم)

قدر لهذا المسلم أن يرى المسجد فى حالته الأصلية لما تعرف عليه الآن إلا بجهد وفى مشقة[٥٦]، لقد شوهوا زخارفه ونهبوها، وتركوا منها فقط ما يتيح لنا الآن أن نخمن، على نحو ضعيف، ما كان عليه المسجد فى حالته الأولى. فالحليات المعمارية، ذات السواكف والطنف والأفاريز شوهتها قباب لا تتفق مع طراز المجموع، واستبدلوا قيشانى التبليط الرائع بآخر خشن، فرفع الأرضية من جانب، وغطى قواعد الأعمدة من جانب آخر، وأخيرا فإن بناء مكان لفرقة المرتلين الدينيين المسيحيين فى وسط المسجد قطع امتداد البلاطة العريضة. وفى لحظة الشفق فحسب، عندما تمتد الظلال فوق الأطلال، وتخفى أعمال التدمير نستطيع خيالا أن نرد بناء العمارة العظيمة إلى روعتها الأولى، وأن نملأها بالحياة التى كانت تشيع فيها من قبل، وأن نتصوره فيما كان عليه خلال ليالى شهر رمضان، عندما تضىء آلاف الثريات والمصابيح، كشموس ساطعة، شوارع الأعمدة التى تمتد بلا نهاية، وتنعكس أشعتها فتاتا فوق السوارى، والعقود، والجدران، وتصبح بهجة فاتنة من الألوان والبريق واللمعان، وتجعل اللازوردى وفسيفساء الزجاج يسطع، مثل جواهر أخرى كثيرة.

ولنا أن نتخيل المسجد فى يوم الجمعه: على كلا جانبى المنبر ترفرف راية، إشارة إلى أن الإسلام قد انتصر على اليهودية والمسيحية وأن القرآن غلب العهدين القديم والجديد. ويصعد المؤذنون إلى أعلى المنارة، فيؤذنون داعين الناس إلى الصلاة، ويسلمون على النبى، وحينئذ تمتلئ بلاطات المسجد بالمؤمنين، وهم

---

(٥٦) كان ذلك طبعا زمن تأليف فون شاك كتابه، وصدرت الطبعة الأولى منه عام ١٨٦٥، واستمر على ذلك طويلا، وفى عهد الجمهورية الثانية، ١٩٣٢ - ١٩٣٩، وكانت علمانية تغير الأمر شيئا، فلما سقطت الجمهورية عاد الأمر إلى ما كان عليه فى عهد الفاشية، ولو أن الأمور بفضل الجنرال فرانكو، أخذت فى تنفيذها، لأسباب سياسية، شكلا ناعما، وحين مر المرحوم الملك سعود بن عبد العزيز، ملك العربية السعودية باسبانيا، عائدا من الولايات المتحدة، عام ١٩٥٦، واستقبل بحفاوة، زار قرطبة، وزار المسجد الجامع، وحين دخله صلى ركعتين تحية المسجد، ففقدت الكنيسة صوابها، وكادت تحدث أزمة سياسية، غير أن الأمور فى أواخر حياة فرانكو، وبعد وفاته، ولأسباب سياسية وسياحية، وتتصل بموقف الفاتيكان من الأديان الأخرى، خفت قبضة الكنيسة على الجامع شيئا، وبدأت بلدية قرطبة تبذل جهدا مضاعفا، ومشكورا، فى ترميم ما وهى من معالمه، وفى رده إلى حالته الأولى، شيئا فشيئا، وبوسع أى مسلم الآن أن يدخله فى أى وقت يشاء، ولكن الصلاة فيه لغير الأسباب السياسية، والإعلامية لا ينظر إليها بعين الارتياح. (المترجم)

يذهبون للصلاة فى ملابسهم البيضاء، وقد احتفوا بمظهرهم، وبعد قليل لا ترى العين إلا أناسا راكعين أو ساجدين، على امتداد ساحة المسجد كله. ويصل الخليفة من قصره إلى المسجد عن طريقه الخاص، ويجلس فى مكانه المرتفع، ثم يأخذ قارئ القرآن فى ترتيل آيات منه [من سورة الكهف]، وهو جالس على دكته، فى أعلى المنصة. ويعلو صوت المؤذن من جديد، ويدعو الناس إلى الصلاة، ويقف المؤمنون جميعا، ويؤدون صلاتهم فى تقوى خاشعة. وخادم المسجد، ويدعى المرقى يفتح أبواب المنبر، ويشهر سيفا، ثم يتجه نحو مكة، أو القبلة إن شئت، يحث على الضراعة، وينذر من يتخلف، على حين أن المبلِّغين فى المحفل يرددون قوله منغّما. ثم يصعد الخطيب على المنبر، ويأخذ السيف من يدالمرقى، الذى يذكّر ويتخذ من خضوع إسبانيا للإسلام رمزا، وإلى انتشاره بحد السيف[٥٧]، وهو اليوم الذى يحث الناس فيه على الجهاد، ودعوة كل الرجال القادرين إلى حمل السلاح، والانتظام فى صفوف الذاهبين إلى قتال المسيحيين، وفى صمت خاشع تستمع جماهير المصلين إلى الخطبة، وتتخللها آيات من القرآن، وتجيء على النحو التالى:

«الحمد لله، نحمده ونستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدى الساعة، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فلا يضير إلا نفسه، ولا يضر الله شيئا، أسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتبع رضوانه، ويجتنب سخطه، فإنما نحن به وله».

---

(٥٧) قاتل الاسلام كدولة دفاعا عن نفسه ما فى ذلك شك، ولكنه لم يفرض عقيدته على أحد بالقوة، ﴿لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾. وفيما يتصل بالسيف وحمله على المنبر، يقول الأمام ابن القيم الجوزية، فى كتابه «زاد المعاد فى هدى خير العباد»، جـ١ ص ١٦٦، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤م بالحرف: «وكان «الضمير يعود على الرسول عليه الصلاة والسلام» فى الحرب يعتمد على قوس، وفى الجمعة يعتمد على عصا، ولم يحفظ عنه أنه اعتمد على سيف، وما يظنه بعض الجهال أنه كان يعتمد على السيف دائما، وأن ذلك أشارة إلى أن الدين قام بالسيف، فمن فرط جهله، فانه لا يحفظ عنه بعد اتخاذ المنبر أنه كان يرقاه بسيف ولا قوس ولا غيره، ولا قبل اتخاذه أنه أخذ بيده سيفا البتة، وأنما كان يعتمد على عصا أو قوس». (المترجم)

«لقد انتشر الإسلام بفضل إيمان الرسول وكفاحه، ولقد وعد الله المجاهدين فى سبيله بإحدى الحسنيين: إما النصر أو الشهادة، ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا﴾ ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا﴾، ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم منى نفسه وماله»، ألا وإن الدعوة إلى الله لن تتوقف حتى يأتى الله الأرض ومن عليها، والبركة الإلهية تقع على أعراف خيل المجاهدين إلى يوم الدين. أيها المؤمنون: ﴿مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلاقليل﴾، ﴿انفروا خفافا وثقالا، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾. إن الجنة تحت ظلال السيوف، وما من مؤمن يَكْلَم فى سبيل الله كَلْمًا إلا وجاء يوم القيامة، اللون لون الدم، والريح ريح المسك، ولهذا فإن الشهداء لايغسلون ولايكفنون، وعندما ينادى فى الدار الآخرة على المجاهدين لكى يردوا الجنة، سوف تناديهم الملائكة من داخلها: ماذا قدّمت أيديكم؟ فيردون: لقد أشهرنا سيوفنا دفاعا عن دين الله، حينئذ تفتح لهم أبواب الخلود، فيدخلونها قبل الآخرين بأربعين عاما. هيًّا إذن أيها المؤمنون، دعوا نساءكم وأبناءكم وإخوتكم وأموالكم وجاهدوا فى سبيل الله مالك الدنيا والآخرة، ﴿قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر﴾، وأنزلوا الرعب فى قلوب الكافرين والوثنيين وأعداء الإسلام، اللهم اهزم جيوشهم واجعلهم ومايملكون غنائم للمسلمين»[٧٤].

وما ان ينتهى الخطيب من صيحته الواعظة، حتى يتوجه إلى المصلين: ادعو الله يغفر لكم، أقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، ثم يبدأ الصلاة، يؤم الناس، وهم وراءه فى صمت. يتابعونه فى ركوعه وسجوده،

(٥٨) لم يذكر المؤلف المصدر الذى اعتمد عليه فى نقل خطبة الجمعة هذه، وعبثا حاولت، فيما قرأت من مصادر، أن أجد نصها، فترجمتها، وحاولت أن أضفى عليها روح الخطبة دون أن أخرج بها عن الأفكار التى أوردها المؤلف، فقط أضفت إليها المقدمة فى البدء، ووضعتها بين خاصرتين، وأخذتها من كتاب «المعجب» لعبد الواحد للمراكشى. (المترجم)

ويردد المبلغون : «آمين . . آمين . . يا مالكَ الملك ! ». وتلتهب جماهير المصلين حماسة، كالحر الذى يسبق العاصفة، والتى تمضى بلا توقف، ويظلون فى صمت رائع ما يلبث أن يتمزق فى همس أصم، يرتفع كالموج، ويفيض عبر كل المسجد، ويرن فى نهاية البلاطات، وبين الأعمدة، وتحت القباب والمصليات، مع صدى ألف صوت تصيح : لا إله إلا الله ![٥٩].

وقبل أن نغادر أشهر بناء معمارى أقامه العرب بأيديهم فى إسبانيا ينبغى أن نعرض لنقطتين هامتين فى تاريخ هذا الفن المعمارى، الأولى : أن المواد التى بُنى بها هذا المسجد أُخذت فى جانب منها من المبانى القديمة. والأعمدة ذات التيجان الكورنثية استخدمت ليعتمد عليها سقف بيت الله. وأخذ العرب شيئا، على طريقتهم فى البناء، من المعمار الرومانى، ولو أنهم طوّروا كل شىء طبقا لذوقهم الذاتى، وما هو عربى بدءا وأصيل، وأضفى على كل ما بقى طابعا متميزا، ويجب أن نلحظه أولا فى وضع الأعمدة فى شكل مربع، أو متقاطعة على هيئة صليب، أى أنها ترى فى خطوط منحرفة، وأكثر كثافة مما هى عليه فى الواقع، وفى الربط بين الأعمدة بواسطة عقود مزدوجة، وفى الشكل المميز الذى يغلب على هذه العقود. وهذا الطابع يقوم فى جانب منه على أن العقود متشابكة، أو متصلة فى سلسلة من أشباه الدوائر، ولها شكل حدوة الفرس، من جانب آخر، أى أنها فى نهاياتها السفلى تقترب من جديد، وتكاد تأخذ شكلا دائريا. وفيما يتصل بالزخرفة، وبخاصة تلك التى تتناثر فى كل الجانب الذى أقامه الحكم الثانى، ليس من الصعب علينا أن نتعرف على أصلها البيزنطى، فزينة المحراب، وهى من الفسيفساء الذى صنع من الأحجار الصغيرة وقطع الزجاج هى فن أغريقى بكاملها على نحو ما نجد فى كنائس مدينة رفينا Revena الإيطالية، وعلى أى حال فإن كتب التاريخ تذكر بوضوح وصراحة أن هذا الفسيفساء المذهب والملون

(٥٩) ليس هذا الوصف مجرد خيال عابث، ومن ليست لديه فكرة عن عبادة المسلمين، لا يستطيع أن يفهم معمارهم، ولا تكوين المسجد الا على نحو نصف.

(٦٠) التيجان الكورنثية، هو ما زينت أوجهه بورقة شوكة اليهود فى صفوف متراصة، وبأركانه الأربعة لفائف تسند قرمة التاج.

مما بعث به صاحب القسطنطينية العظمى هدية إلى عبد الرحمن الناصر[٦١]. وفيما عدا ذلك فإن هذا الفسيفساء صنع على نحو متميز طبقا للذوق العربي، وبعد أن استخدم فى مسجد دمشق، وفى مساجد الله القديمة الأخرى، امتد استعماله إلى أشياء أخرى مختلفة جدا، حتى أنهم رصفوا به الأرضية[٦٢]، وكان يوجد فى الأندلس مصانع خاصة بعمل الفسيفساء[٦٣]، وبلغ فن الرسم عليه من زخرفات ونقوش هندسية متشابكة، وزهور ونباتات متسلقة، أروع آيات الإتقان. وأما استعمال الكتابة فى الزخرفة فهو فن عربى أصيل وذاتى، حيث يكتبون على امتداد الجدران آيات من القرآن، وبعض الأمثال، والحكم، وأبيات من الشعر، فى حروف مذهبة، على أرضية ذات ألوان زاهية، زرقاء اللون عادة. وقديما كانوا يستخدمون الخط الكوفى الصعب فى هذه الكتابة، وفيما بعد استخدموا خط النسخ أو الثلث، ويتخلل الكتابة من حين لآخر زخارف عربية، وتمتد الكتابة على الجدران والعقود والنوافذ والأعمدة فى شكل أكاليل.

ليس هنا المكان الذى نعرض فيه تفاصيل تقنية حول طريقة المعمار العربى، وقد فصلها ابن خلدون فى دقة بالغة، ويكفى أن نلحظ أنهم استخدموا «الحجارة المنجدة، يقام بها الجدران ملصقا بعضها إلى بعض بالطين والكلس الذى يعقد معها ويلتحم كأنها جسم واحد، ويعالى عليها بالأصبغة والجص، ويبالغ فى ذلك بالتنجيد والتنميق»، أو خليطا يعمل من التراب والكلس بخاصة، ويشكل طابية تمتاز بالصلابة والتحمل. والمادة الأولى تستخدم فى القلاع والحصون عادة، والمادة الثانية فى القصور وبقية المساكن المختلفة[٦٤].

وفيما عدا المسجد، وهو أثر معمارى ضارب فى القدم، ومازال يقاوم الفناء حتى يومنا، ثمة أبنية عربية فى قرطبة وما حولها، غفر لها الزمن والحروب المدمرة فبقيت، ولم يبق من قصر الخلافة إلا كتلة مشوهة لما كان عليه، وهو لا يبعد عن

---

(٦١) البيان المغرب ٢٥٣/٢، والادريسى ٦٠/٢

(٦٢) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٢٧٢/١/٢.

(٦٣) المقرى ١٢٤/١ طبع أوربا.

(٦٤) مقدمة ابن خلدون، ص ٤٠٦ وما بعدها، طبعة المكتبة التجارية، القاهرة بلا تاريخ

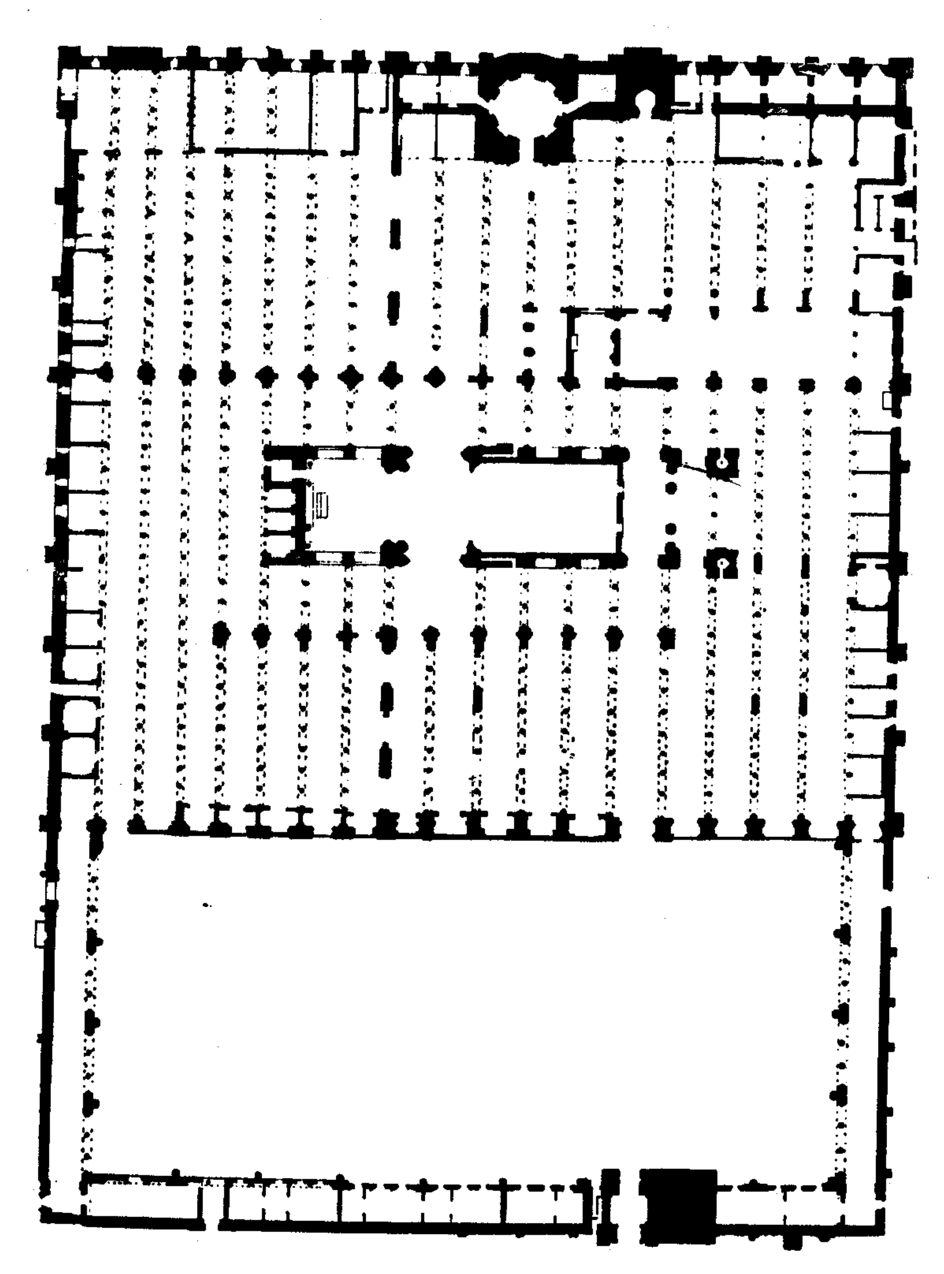
نهر الوادى الكبير، إلى الغرب من المسجد الجامع، وكلمة قصر العربية انتقلت إلى اللغة الاسبانية معرفة فى صورة Alcazar، وقبل أن يتخذه العرب كان قصرا قديما لملوك القوط، واختاره الأمويون الأندلسون مقرا لاقامتهم، وأضافوا إليه منشئات جديدة، وحدائق فسيحة، وزخرفوه بكل رائع، وليس ثمة شك أنهم أدخلوا على داخله ألوانا من التعديل ليوائم عادة سكانه الجدد، ولكنه بقى إجمالا يتمتع بوحدة ما، ويجب اعتباره مجموعة من الأبنية والساحات والحدائق، ولأن الذين قاموا على بنيانه أمراء كثيرون أخذ كل واحد من أجزائه اسما مختلفا، فهو يدعى: «قصر البستان، والكامل، والمجدد، وقصر الحائر، والروضة، والزاهر، والمعشوق، والمبارك، والرشيق، وقصر السرور، والتاج، والبديع، أو غيرها»[٦٥]. «وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة، وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر المكرم، وأجروها فى كل ساحة من ساحاته، وناحية من نواحيه، فى قنوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز، والفضة الخالصة، والنحاس المموه، إلى البحيرات الهائلة، والبرك البديعة، والصهاريج الغريبة، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة».

ومما يدعو إلى الأسف الشديد أن القسيس جوهانز جورزينسيس Johannis Gorziensis، وأتيحت له فرصة أن يعمل سفيرا للملك أتون Oton العظيم فى بلاط عبد الرحمن الناصر، ورأى روائع قرطبة من قريب، لم يضمن كتابه عن تاريخ هذه السفارة أى خبر عن هذه الأشياء، أما عن القصر، وفيه استقبله الخليفة فيما يبدو، فيقص علينا فقط أنه منذ الساحة الخارجية وجد الأرض مفروشة بالبسط الغالية، وأن القاعة المنفصلة حيث يجلس الخليفة متربعا، مستريحا فى مقعده، كانت مغطاة كلها، أرضها وجدرانها بفاخر السجاد[٦٦].

---

(٦٥) مقر كل هذه المبانى يجب أن يكون فى المكان يشغله الآن قصر الأسقفية، ومدرسة سان بلاخيو، وكانت تشغله محكمة التفتيش فيما خلا من أيام، ولا يزال حتى اليوم يحتفظ بحدائق ذات ذوق عربى، تنتشر فيها البرك والنوافير، وتضم بستانا متسعا يمتد حتى يبلغ شاطئ النهر. (خوان باليرا)

(٦٦) حياة جوهانز جورز ينسيس، الفصل ١٣٦، فى Monumenta, T.IV.



مخطط مسجد قرطبة بعد أن حوله الإسبان إلى كنيسة

وقد حاول كل أمراء بنى أمية أن يضفوا على مملكتهم كل مظاهر الروعة والعظمة، بإقامة المنشئات المعمارية الضخمة الفخيمة، وكان عبد الرحمن الناصر من بينهم جميعا أكثرهم إنشاء للعمائر والقصور والأبنية، على نحو لم تعرفه أبدا، ووصلتنا أبيات من الشعر يتحدث فيها الخليفة عن نفسه، ويزهو بأعماله العديدة التى من هذا الطراز:

هِممُ الملوكِ إذا أرادُوا ذِكْـرَهـا ... من بعــدِهم فبـألْسُنِ البنْيـانِ
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكمْ ... ملـكٌ محـاه حـوادثُ الأزمـان
إن البنــاءَ إذا تعـاظمَ شـأنُـه ... أضحى يدلُّ على عظيم الشان[٦٧]

● ضاحية الزهراء:

أعظم الأعمال المعمارية التى قام بها عبد الرحمن الناصر كلها، وأجملها أيضا، مدينة الـزهراء، وكـانت على مقـربة من قـرطبة، وعنـدما تقـرأ الأوصاف البليغـة لروائع هذه المدينة، وبخاصة القصر الريفى، تظن أننا قد انتقلنا إلى عالم الأحلام على جناح خيال شاعر خصيب، أما المناسبة التى أدت إلى بناء تلك المدينة فكانت:

يروى محيى الدين بن عربى فى كتابه «المسامرات»: أخبرنى بعض مشايخ قرطبة عن سبب بناء مدينة الزهراء أن الناصر ماتت له سرية، وتركت مالا كثيرا، فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين وطلب فى بلاد الإفرنج أسيرا فلم يوجد، فشكر الله تعالى على ذلك، فقالت له جاريته الزهراء - وكان يحبها حبا شديدا - اشتهيت لو بنيت له به مدينة تسميها باسمى، وتكون خاصة لى، فبناها تحت جبل العـروس من قبلة الجبل، شـمال قرطبـة، وبينها وبـين قرطبـة ثلاثـة أميال أو نحـو ذلـك، وأتقن بناءهـا، وأحكم الصنعة فيهـا، وجعلها متنـزها ومسكنـا للزهـراء، وحاشية أرباب دولته، ونقش صورتها على الباب[٦٨].

وقد امتدت المدينة تدريجا تحت سفح الجبل، وكانت مقسمة إلى ثلاثة أجزاء:

---

(٦٧) المقرى ١ / ٣٧٨ طبع أوربا، ج ١، ص ٥٧٥، ط. إحسان عباس.
(٦٨) المقرى، نفح الطيب ١/٣٤٤ طبع أوربا، ٥٢٣ إحسان عباس.

الجـزء الأسفل وكـان بستانًـا، غنيًا بـأجمل الأشجـار المثمرة، وبـه توجـد حـظائـر وأعشاش كبيرة، وأمكنة مسورة، بها أزواج الطيور، والحيوانات النادرة، وخصص الجزء الأوسط لمساكن موظفى القصر، وفى الجزء الأعلى حيث يستطيع الانسان أن يتمتع بمناظر الحدائق الرائعة كان يقوم قصر الخلفاء(٦٩). ويصف ابن بشكوال هذا القصر بأنه «من عجائب الدنيا»، وأجمل وأكبر بناء أقامته يد إنسان على الإطلاق(٧٠). ويقول كاتب آخر: «ولما بنى الناصر قصر الزهراء، المتناهى فى الجلالة والفخامة، أطبق الناس على أنه لم يبن مثله فى الإسلام ألبته، وما دخل إليه قط أحد من سائر البلاد النائية، والنحل المختلفة، من ملك وارد، ورسول وافد، وتاجر جهبذ، وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة، إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبها، بل لم يسمع به، بل لم يتوهم كون مثله، حتى أنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس فى تلك العصور النظر إليه، والتحدث عنه، والأخبار عن هذا تتسع جدا، والأدلة عليه تكثر، ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرد، المشرف على الروضة، المباهى بمجلس الذهب والقبة، وعجيب ما تضمنه من إتقان الصنعة وفخامة الهمهمة، وحسن المستشرف وبراعة الملبس والحلة، ما بين مرمر مسنون، وذهب موضون، وعمد كأنما أفرغت فى القوالب، ونقوش كالرياض، وبرك عظيمة محكمة الصنعة، وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص، لا تهتدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها»(٧١).

وفضلا عن ذلك، كانت هناك قاعة أخرى تسمى قصر الخلافة، وتتميز بين الجميع بما عليه من روعة لا توصف، سقفها من الذهب والرخام، الغليظ فى جرمه، الصافى لونه، المتلونة أجناسه، وجـدرانه مثـل ذلك، وفى وسـطها اليتيمـة التى أتحف الناصر بها أليون ملك القسطنطينية، وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة، وفى وسط القاعة صهريج عظيم مملوء بالزئبق، وفى كل جانب من جوانبها ثمانية أبواب، انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس، المرصع بالذهب وأصناف الجواهر، قامت على سوارى من الرخام الملون والبللور الصافى

(٦٩) Weyers, Loci de Ibn Zeiduno. 78

(٧٠) ابن خلكان فى ترجمة المعتمد بن عباد.

(٧١) المقرى، نفح ١/٣٧٢، و ١/٥٦٥ إحسان عباس.

وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار. وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق، فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور، ويأخذ بمجامع القلوب، حتى يخيل لكل من فى المجلس أن المحل قد طار بهم، ما دام الزئبق يتحرك(٧٢). وطبقا لابن حيان فإن هذا المجلس، أو هذه القاعة إن شئت، لم يتقدم لأحد بناؤه فى الجاهلية ولا فى الإسلام.

واشتهر فى الجانب الشرقى من القصر المجلس المعروف بالمؤنس(٧٣) وفى وسطه كان يوجد الحوض المنقوش المذهب، الغريب الشكل، الغالى القيمة، جلبه أحمد اليونانى من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء، وقالوا: إنه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله، وحمل من مكان إلى مكان حتى وصل فى البحر، ونصبه الناصر فى بيت المنام، فى المجلس الشرقى، المعروف بالمؤنس، وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر، مرصعة بالدر النفيس الغالى، مما عمل بدار الصناعة بقرطبة: صورة أسد إلى جانبه غزال، إلى جانبه تمساح، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل، وفى المجنبتين حمامه وشاهين وطاووس، ودجاجة وديك ونسر، وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس، ويخرج الماء من أفواهها(٧٤).

وكان امتداد الزهراء من الشرق إلى الغرب ٢٧٠٠ ذراع، وعرضها من الشمال إلى الجنوب ١٥٠٠ ذراع، وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب، كلها ملبسة بالحديد والنحاس المذهب، وجملة السوارى فيها ٤٣٠٠ سارية(٧٥)، وبلغ

---

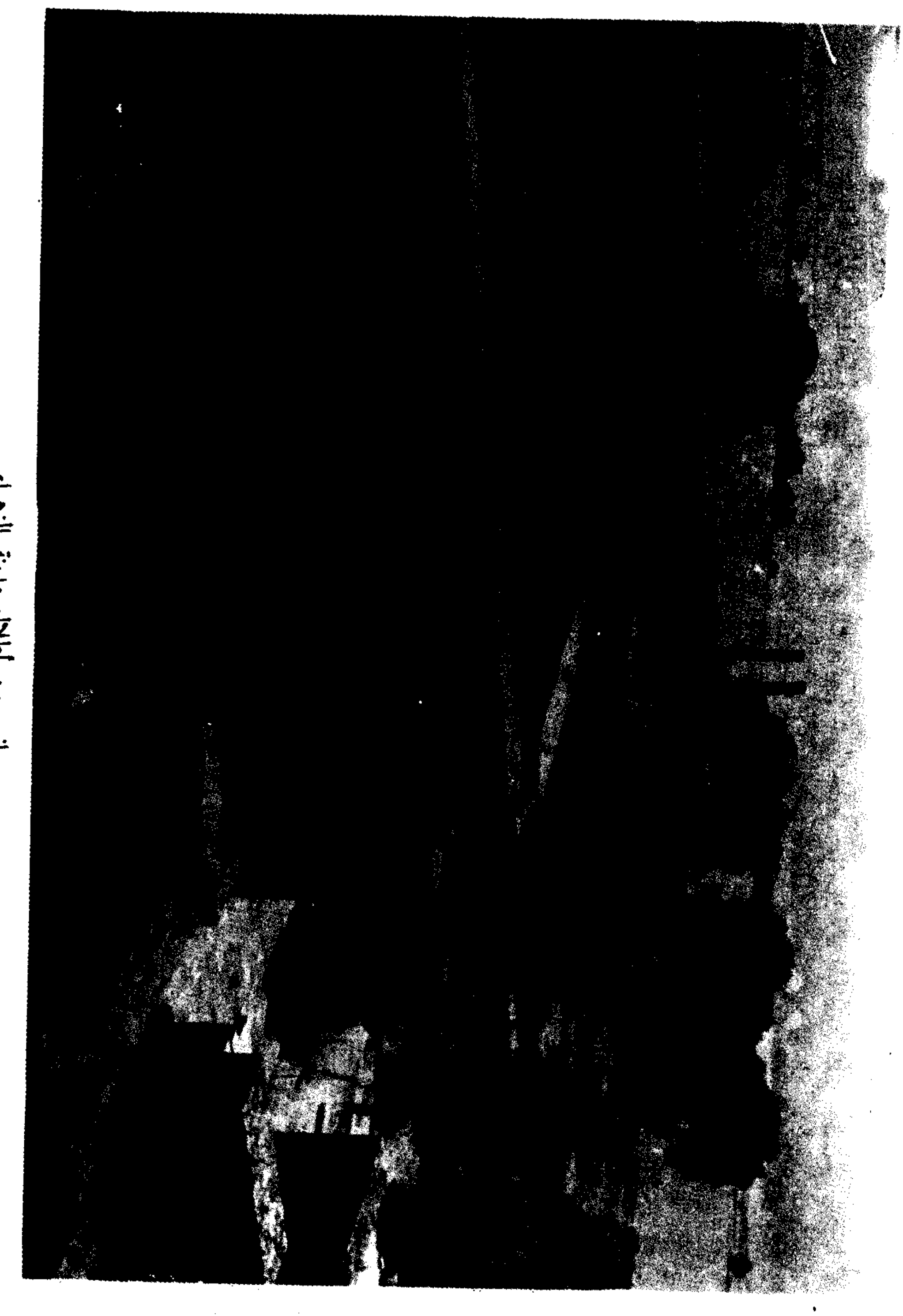
(٧٢) المصدر السابق ١ / ٣٤٦ و ١ / ٥٢٧.

(٧٣) فى الأصل المنية، وهو وهم من المؤلف، وصحتها المؤنس كما أوردناه. (الترجم)

(٧٤) المقرى، النفح ١ / ٣٧٤، و ١ / ٥٦٩ طبعة إحسان.

● رغم أن المقرى ذكر أنها اثنا عشر تمثالا، فقد أورد عند تعدادها ثلاثة عشر نوعا، ما أورده المؤلف أعلاه، مضافا إليها الحدأة. وفى أزهار الرياض عد منها أحد عشر ثم قال: والثانى عشر لم يحضرنى اسمه. وذلك لأنه لم يذكر الحدأة ولا النسر. (المترجم)

(٧٥) من الصعب المضنى أن نفسر كيف اختفت تلك الروعة كلها، وحاول العالمان لويس مارية راميريث و دى لاس كاسيس ديثا فى كتابهما: الدليل القرطبى، أن يفسراه، وجاء تفسيرهما غير مقنع تماما، وإن كان موضحا بعض الشىء، فقد أوضحا أنه فى بدء القرن الخامس عشر الميلادى أقام رهبان سان خرونيمو ديرهم المشهور قريبا=



جانب من أطلال مدينة الزهراء

عدد المجلوبة من إفريقية منها ١٠١٣ سارية، ومن بلاد الافرنج ١٩، وأهدى ملك الروم إلى الناصر ١٤٠، وبقيتها من مقاطع الأندلس من طركونة وغيرها، فالرخام المجزع من رية أو مقاطعة مالقة، والأبيض من غيرها، والوردى والأخضر من إفريقية من كنيسة اسفاقس[٧٦].

ورغبة فى إطراء الروعة الفاتنة، والفخامة البالغة، التى جاءت عليها القصور والحدائق المحيطة بها، يذكر المؤرخون العرب ثمن كل صنف من المواد وما كلفه إحضارها من بلاد العالم الأخرى. ويذكرون أن المرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة كل يوم، وينقع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة فى اليوم، وبلغ عدد الفتيان الذين يعملون فى القصور ثلاثة عشر ألف وسبع مئة وخمسين فتى، إلى جانب ثلاثة آلاف وسبع مئة وخمسين من فتيان الصقالبة، ومنهم كان يتكون حرس الخليفة، وعدة النساء، الصغار والكبار، وخدم الخدمة، ستة آلاف وثلاث مئة وأربع عشرة امرأة[٧٧].

وعندما انتهى البناء الرائع. قالت الزهراء، وكانت وراء إنشائه، فى شجاعة واثقة للخليفة، حين قعدت فى مجلسها ونظرت إلى بياض المدينة وحسنها فى حجر ذلك الجبل الأسود : يا سيدى، ألا ترى إلى حسن هذه الجارية الحسناء فى حجر ذلك الزنجى ؟ فأمر بزوال ذلك الجبل، فقال بعض جلسائه : أعيذ أمير المؤمنين أن يخطر له ما يشين العقل سماعه، لو اجتمع الخلق ما أزالوه حفرا ولا قطعا، ولا يزيله إلا من خلقه، فأمر بقطع شجره، وغرسه تينا ولوزا، ولم يكن منظر أحسن منها، ولا سيما فى زمان الأزهار وتفتح الأشجار، وهى بين السهل والجبل[٧٨].

ولأن عبد الرحمن الناصر أنجز هذه الجنة الفاتنة، وتوج النجاح كل أعماله تقريبا، خلال حكمه الذى استمر خمسين عاما، رسموا له صورة الإنسان الأعمق

= من هناك، وبنوه من أساسه باطلال هذه القصور، ثم يضيفان : «والآن يمكن أن نتبين معالم هذه الأبنية فحسب، وثمة أكوام من الزخارف العربية التى كانت تزين الجدران، وبعض القطع والعدد، ولكن كيف اختفى هذا العدد الهائل من الأعمدة الرائعة، ذلك شىء لا يمكننا التخمين به». (خوان باليرا)

(٧٦) البيان المغرب ٢ / ٢٤٧، المقرى ١ / ٢٧٢ و ١ / ٥٦٨ إحسان.

(٧٧) المقرى ١/٣٧٣ و ١/٥٦٧ إحسان.

(٧٨) المصدر السابق، ٢/٢٣١

سعادة بين الفانين، وعلى الرغم من كل هذا وُجد مكتوبا بخط يده بعد وفاته: «أيام السرور التى صفت له دون تكدير يوم كذا، من شهر كذا، من سنة كذا، ويوم كذا من كذا، وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوما». ويضيف المؤرخ الذى أورد الخبر: «فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها، هذا الخليفة الناصر حلف السعود، المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود، ملكها خمسين سنة وستة، أو سبعة، أشهر وثلاثة أيام، ولم تصف له إلا أربعة عشر يوما، فسبحان ذى العزة القائمة والمملكة الدائمة، لا إله إلا هو»[٧٩].

لم يكن سحر مدينة الزهراء فى أنها شاهد على عظمة الأمويين فحسب، وعلى بهاء خلافة الغرب المذهل، وإنّما مثل ناطق أيضا على أن كل ما فى الدنيا إلى زوال، فبعد أربعة وسبعين عاما من وضع أول لبنة فيها أتت عليها تخريبا وتدميرا شراذم البربر الهمجية، أسلمتها للنيران، وحولت الجانب الأكبر منها إلى أكوام من الخرائب والأنقاض.

وفى خراب مدينة الزهراء يقول محيى الدين بن عربى فى كتابه المسامرات: قرأتُ على مدينة الزهراء بعد خرابها وصيرورتها مأوى الطير والوحش، وبناؤها عجيب فى بلاد الأندلس، وهى قريبة من قرطبة، أبياتا تذكِّر العاقل، وتنبّه الغافل، وهى:

ديارٌ بأكناف الملاعب تلمـعُ	وما إنْ بها من ساكنٍ وهى بلقعُ
ينوحُ عليها الطيرُ من كل جانب	فيصمتُ أحياناً وحيناً يُرجِّع
فخاطبتُ منها طائرا متفـرِّداً	له شَجَنٌ فى القلبِ وهو مُروَّع
فقلتُ: على ماذا تنوح وتشتكى؟	فقال: على دهرٍ مضى ليس يرجع[٨٠]

ورغم ذلك كانت توجد حتى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى

(٧٩) المصدر السابق، ١/٣٤٤ و ١/٣٧٩.

(٨٠) المقرى، ١/٣٤٤. و ١/٥٢٣ إحسان عباس.

● أورد المؤلف الأبيات دون أن ينسبها إلى راويها، ولأهميته، ذكرت النص كاملا (المترجم)

بعض أجزاء هذه القصور[٨١]. وفى أيامنا هذه تلاشى كل هذا العمل الرائع كما لو كان حلما، لم يبق منه غير بعض أكوام من الأنقاض فحسب، على مسافة ثلاثة أميال إلى الشمال من قرطبة، تحت سفح الجبل، فى مكان يطلقون عليه قرطبة القديمة Cordeba La Vieja وهو المكان الذى شغلته الزهراء يوما. ومن قريب وجدوا هناك قطعا من الرخام، ومن القيشانى والفسيفساء، ولكن عمليات الحفر لم تتواصل مع الأسف الشديد[٨٢].

● ضاحية الزاهرة:

وكانت الزاهرة، وهى المدينة التى أنشأها المنصور بن أبى عامر حاكم المملكة القوى، أقصر عمرا، وتقع إلى الشرق من قرطبة، على ضفة نهر الوادى الكبير[٨٣]، «وسّع مع الأيام تشييد أبنيتها، حتى كملتْ أحسن كمال، وجاءته فى نهاية الجمال، نقاوة بناء، وسعة فناء، واعتدال هواء رق أديمه، وصقالة جو اعتل نسيمه، ونضرة بستان، وبهجة للنفوس فيها افتتان». وفى إحدى هذه النوافير أنشد الشاعر صاعد البغدادى هذه الأبيات:

يا أيها الملكُ المنصورُ من يمنٍ ... والمُبْتنى نسباً غير الذى انتسبا
بغزوةٍ فى قلوب الشرك رائعة ... بين المنايا تناغى السُّمْرَ والقُضُبا
أما ترى العينَ تجرى فوق مَرْمَرِها ... هوًى فتجرى على أحفافها الطربا
أجْرَيْتها فطما الزاهى[٨٤] بَجَرْيتها ... كما طموْت فسدْتَ العُجْمِ والعرَبا
تخالُ فيها جنودَ الماءِ رافلةً ... مُستلئمات تُريك الدرْعَ واليَلَبا
تحفُّها من فنونِ الأيكِ زاهرة ... قد أورقتْ فضةً إذ أورقتْ ذهبا

---

(٨١) دوزى، بنو عباد، ١/١٠٤.

(٨٢) كان ذلك طبعا حتى زمن تحرير المؤلف كتابه، ولكن محاولات اكتشاف وترميم مدينة الزهراء توالت بعد ذلك فى فترات غير متواصلة، وأوجز المستشرق الأسبانى القرطبى الجليل، السنيور رفائيل كاستيخون هذه المحاولات فى دراسة ألقاها فى مؤتمر الدراسات الاسلامية والعربية الذى عقد فى روما عام ١٩٦٦، ولأنها تسد نقصا فى معلوماتنا ترجمتها كاملة، وألحقتها بآخر الكتاب. أنظر الملحق رقم ٣. (المترجم)

(٨٣) دوزى، تاريخ مسلمى أسبانيا ٣/١٧٩.

(٨٤) الزاهى، اسم قاعة، وكان يطلق أيضا على منية للمعتمد بن عباد فى إشبيلية، وأيضا على عدد من المنيات الصقلية فى العزيزة، وفافرة، وبها قاعات كهذه يجرى من تحتها الماء.

بـديعةُ الملكِ مـا ينفكُ نـاظرُهـا يتلو على السمع منها آيةً عجبا
لا يُحسِنُ الدهرُ أنْ يُنشى لها مَثلا ولـو تعنَّت فيها نفسَـه طلبا[٨٥]

ويحكى أن المنصور كان «فى قصره بالزاهرة، فتأمل محاسنه، ونظر إلى مياهه المطردة، وأنصت لأطياره المغردة، وملأ عينه من الذى حواه من حسن وجمال، والتفت فى الزاهرة من اليمين إلى الشمال، فانحدرت دموعه، وتجهم وقال : ويها لك يا زاهرة!، فليت شعرى من الخائن الذى يكون خرابك على يديه عن قريب؟. فقال له بعض خاصته : ما هذا الكلام الذى ما سمعناه من مولانا قط؟، وما هذا الفكر الردىء الذى لا يليق بمثله شغل البال به؟ فقال : والله لترون ما قلت، وكأنى بمحاسن الزاهرة قد مُحيَتْ، وبرسومها قد غُيِّرت، وبمبانيها قد هُدِمت ونُحيت، وبخزائنها قد نُهبت، وبساحاتها قد أُضرمت بنار الفتنة وأُلهبت. فقال الحاكى : فلم يكن إلا أن توفى المنصور وتولى المظفر ولم تطل مدته، فأقام بالأمر أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول، فقام عليه المهدى والعامة، وكان منهم عليه وعلى قومه الطامة، وانقرضت دولة آل عامر، ولم يبق منهم آمر :

كأنْ لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمُرْ بمكـةَ سـامـرُ
بـل نحن كنـا أهلَهـا فـأبـادَنـا صروفُ الليالى والجدودُ العـواثرُ

«وخربت الزاهرة، وذهبت كأمس الدابر، وخلت منها الدسوت الملكية والمنابر، واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر، والسلاح، وتلاشى أمرها فلم يرج لفسادها صلاح، وصارت قاعا صفصفا، وأديلت بأيام الترح عن أيام الفرح والصفا»[٨٦].

● منية العامرية :

وشيد المنصور مكانا آخر لإقامته كان يسمى منية المنصور، أو العامرية، وقد احتفى بها الشعراء كثيرا بسبب سحر حدائقها[٨٧]، وفيها دخل عليه ابن أبى

(٨٥) البيان المغرب، ٢٩٧/٢.
(٨٦) المقرى ١ / ٣٨٧ و ١ / ٥٨٩.
(٨٧) لا نعرف ما إذا كان راميريث ولاس كاساس يقصدان الزاهرة أو المنية، حين يتحدثان فى كتابهما=

الحباب الشاعر، «والروض قد تفتحت أنواره، وتوشحت أنجاده وأغواره، وتصرّف فيها الدهر متواضعا، ووقف بها السعد خاضعا»، ووقف على روضة فيها ثلاث سوسنات، اثنتان منها قد تفتحتا، وواحدة لم تتفتح فقال:

لا يومَ كاليوم فى أيامنا الأوَل ... بالعامريةِ ذاتِ الماء والظُّلَلِ
هواؤها فى جميع الدهر معتدلٌ ... طيبا، وإن حلَّ فصل غير معتدل
ما إنْ يُبالى الذى يحتل ساحَتَها ... بالسعد ألا تحلَّ الشمسُ فى الحَمَل
كأنما غُرستْ فى ساعة وبدا الـ ... سوسانُ من حينه فيها على عَجَل
أبدتْ ثلاثا من السوسان مائلةً ... أعناقُهُنَّ من الإعياء والكسل
فبعض نُوَّارها للبعض مُنفتحٌ ... والبعض منغلقٌ عنهنَّ فى شُغل
كأنها راحةٌ ضمَّتْ أناملَها ... من بعد ما مُلئت من جودِكَ الخَضِل
وأختُها بسطتْ منها أناملَها ... ترجو نداك كما عوَّدْتَها فَصِلِ[88].

واحتفى بها صاعد البغدادى أيضا، وقد ذكر ابن سعيد المغربى، أن ابن العريف النحوى دخل على المنصور بن أبى عامر، وعنده صاعد البغدادى، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية من أبيات:

فالعامرية تزهى ... على جميع المبانى
وأنتَ فيها كَسَيْفٍ ... قد حلَّ فى غمْدان[89]

= «دليل قرطبة» عن القصر والحديقة والجامع الخاص، يقولان: «وفى الشارع الذى تطلق عليه الجماهير اسم شارع الملك المنصور، والمبنى الذى يوجد فيه مستشفى الكاردينال، كان يوجد قصر وحديقة محمد المنصور الشهير، وزير هشام الثانى، وهما اليوم بستان، وأما مسجده الخاص فأصبح كنيسة صغيرة للمستشفى، وقبل أن يضم إلى المستشفى كان صومعة تحمل اسم سان برتولوميه، وهذا المسجد رمم فى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر الميلادى، فأزيح سقفه، وأقيم على الأسلوب القوطى، وفيما عدا ذلك احتفظ بحالته الأولى تماما، ولكن تكرار بياضه ذهب إلى حد ما بقدر من الزخارف العربية التى كانت تزين جدرانه. والنقوش التى حولها، ولهذا السبب أصبح الآن من العسير قراءتها، غير أن السفير المغربى، سيدى حامد الغزال، ومر بهذه المدينة عام ١٧٦٦م، استطاع أن يقرأ وأن يترجم إلى الاسبانية النقش التالى منها: «أقام هذا المسجد لعبادة الله ورسوله، الوزير محمد المنصور وزوجته فاطمة، سنة ٣٦٦ هجرية (٩٧٦م)، والحمد الله».
(خوان باليرا)

(٨٨) البيان ٢ / ٢٧٧، (واقتصر المؤلف على الأبيات الثلاثة الأولى، وهى التى أوردها صاحب البيان، دون البقية، وآثرت أن آتى بها كلها لأن المقصود منها يأتى فى بقية الأبيات، وهى فى نفح الطيب، ١ / ٥٨٢، احسان).

(٨٩) يعنى سيف بن ذى يزن وقصره (غمدان) باليمن.
(المترجم)

فقام صاعد، وكان مناقضاً له، فقال : أسعد الله تعالى الحاجب الأجل، ومكن سلطانه، هذا الشعر الذى قاله قد أعده وروى فيه، أقدر أن أقول أحسن منه ارتجالا، فقال له المنصور : قل ليظهر صدق دعواك فجعل يقول من غير فكرة طويلة :

يا أيها الحاجب المعتلى على كيوان
ومَنْ به قد تناهىْ فخارُ كل يمان
العامرية أضحتْ كجنة الرضوان
فريدة لفريدٍ ما بين أهل الزمان

ثم مر فى الشعر إلى أن قال فى وصفها :

انظر إلى النهر فيها ينساب كالثعبان
والطيرُ يخطب شكراً على ذُرا الأغصان
والقُضْبُ تلتفُّ سكراً بميّسِ القُضْبان
والروض يفترُّ زهواً عن مبْسِمِ الأقحوان
والنرجسُ الغضُّ يرنو بوجنةِ النعمان
وراحةُ الريح تمتا ر نفحة الريحان
فَدُمْ الدهر فيها فى غبطةٍ وأمان(٩٠)

● منية المنصور الأصغر :

وكان المنصور(٩١) [عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر]

---

(٩٠) نفح الطيب، ١/٤٨٤ و ١/٥٨٢.

(٩١) وهم فون شاك مؤلف الكتاب، فخلط بين المنصور بن أبى عامر الحاجب، وبين أحد أحفاده الذى حمل لقبه، وأقام دولة فى بلنسية زمن عصر الطوائف عمرت زمنا قصيرا. ولا تذكر كتب التاريخ أى قصر أو منية للمنصور الحاجب فى بلنسية، ولكنها تشير إلى أنها كانت لحفيده.

وقد نقل المؤلف وصفها عن كاتب لم يشأ ذكر اسمه، وهو الفتح بن خاقان صاحب كتاب قلائد العقيان، وفى هذا الوصف يشير الفتح إلى أنه زارها رفقة أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر، وكان هذا من علية القوم فى المدينة، وبقى معه فيها زمنا، ووصف له ما كانت عليه، وما شاهده فيها أيام المنصور، وأنه شهد تمام تشييدها، وهو يعنى الحفيد على التاكيد، لأن المنصور الجد توفى عام ٣٩٢هـ، والمنصور الحفيد توفى عام ٤٥٢ هـ، وتوفى=

يملك أيضا حول بلنسية قصرا تطوقه حدائق جميلة، نادرة النباتات، وقد زاره كاتب عربى [الفتح بن خاقان]، وقال عنه فى أسلوب بديع : دعيت يوما إلى منية المنصور بن أبى عامر ببلنسية، وهى منتهى الجمال، ومزهى الصبا والشمال، على وَهْىِ بنائها، وسكنى الحوادث برهة بفنائها، فوافيتها والصبح قد ألبسها قميصه، والحسن قد شرح بها عويصه، وبوسطها مجلس قد تفتحت للروض أبوابه، وتوشحت بالأزْر الذهبية أثوابه، يخترقه جدول كالحسام المسلول، وينساب فيه انسياب الأيم فى الطلول، وضفاته بالأدواح محفوفة، والمجلس يروق كالخريدة المزفوفة، وفيه يقول على بن أحمد أحد شعرائها، وقد حله مع طائفة من وزرائها :

قُمْ سقِّنى والرياضُ لابسةٌ	وشياً من النورِ حاكه القَطْرُ
فى مجلس كالسماء لاحَ به	من وجهِ مَنْ قد هوِيتُهُ بَدْرُ
والشمس قد عُصفرتْ غلائلُها	والأرضُ تندى ثيابها الخضر
والنهرُ مثلُ المجرِّ حفَّ به	من الندامى كوكبٌ زهر

«فحللت ذلك المجلس وفيه أخدان كأنهم الولدان، وهم فى عيش لَدْن،كأنهم فى جنة عدن، فأنخت لديهم ركائبى وعقلتها، وتقلدت بهم رغائبى وأعتقتها، وأقمنا نتنعم بحسنه طول ذلك اليوم، ووافى الليل فذدنا عن الجفون طروق النوم، وظللنا بليله كأن الصبح منها مقدود، والأغصان تميس كأنها قدود، والمجرة تتراءى نهرا، والكواكب تخالها فى الجو زهرا، والثريا كأنها راحة تشير، وعطارد لنا بالطرب بشير. فلما كان من الغد وافيت الرئيس أبا عبد الرحمن زائرا، فأفضنا فى الحديث إلى أن أفضى بنا إلى ذكر منتزهنا بالأمس، وما لقينا فيه من الأنس، فقال لى : ما بهجة موضع قد بان قطينه وذهب، وسلب الزمان بهجته وانتهب، وباد فلم يبق إلا رسمه، ومحاه الحدثان فما كاد يلوح وسمه، عهدى به عندما فرغ من تشييده، وتنوهى فى تنسيقه وتنضيده، وقد استدعانى اليه المنصور فى يوم حلت فيه الشمس برج شرفها، واكتست الأرض بزخرفها، فحللت به والدوح تميس معاطفه، والنور يخجله قاطفه، والمدام تطلع به وتقرب، وقد حل به قحطان ويعرب، وبين يدى

= أبو عبد الرحمن عام ٥٠٨، فلا يتأتى له مشاهدة أو لقاء المنصور الحاجب، رغم أن أبا عبد الرحمن عمّر طويلا، وتوفى وقد تجاوز الثمانين من عمره، أما ابن خاقان فتوفى عام ٥٢٩ هـ. (المترجم)

المنصور مائة غلام ما يزيد أحدهم على العشر غير أربع، ولا يحل غير الفؤاد من مربع، وهم يديرون رحيقا، خلتها فى كأسها درا أو عقيقا، فأقمنا والشهب تغازلنا، وكأن الأفلاك منازلنا، ووهب المنصور فى ذلك اليوم ما يزيد على عشرين ألفا من صلات متصلات، وأقطع ضياعا، ثم توجع لذلك العهد، وأفصح بما بين ضلوعه من الوجد، وقال:

سَقْياً لمنزلةِ اللوى وكثيبها إذ لا أرى زمناً كأزمانى بها[٩٢]

وإلى جانب ذلك كانت هناك قصور الخلفاء وعلية القوم ومنياتهم، تتناثر بكثرة فى السهول التى تطوق الوادى الكبير حول قرطبة، إلى جانب الحدائق العامة الممتدة، والبساتين النضرة الواسعة، ولا تزال تلك الأمكنة اللطيفة والجميلة تعيش فى قصائد الشعراء، وأوصاف المؤرخين، ويمكن أن نذكر من بينها قصر دمشق، وقصر الفارسى، ومنية الرصافة، وأنشاها عبد الرحمن الداخل، وتحيط بها حدائق مليئة بالنباتات الغريبة، ودار الناعورة، وأقامها عبد الرحمن الناصر، وقصر السيد أبى يحيى، وكان ينهض على أعمدة فوق نهر الوادى الكبير، ومنية الزبير[٩٣]، ومنيات أخرى كثيرة[٩٤].

- **خصائص المعمار العربى:**

ليست لدينا عن الأعمال المعمارية التى أشرنا اليها أخيرا أو صاف معاصرة لها، والأخبار الكثيرة التى لدينا عن مدينة الزهراء، و لو أنها تتناول كثيرا من التفصيلات لا تقول شيئا صريحا وواضحا عن الأسلوب المعمارى الذى استخدم فى بناء القصور المترفة، على أيام بنى أمية. ومع ذلك، إذا وازنا بين الفقرات العديدة، التى أوردها مختلف المؤرخين، يمكن أن نتحدث عن هذه المادة باطمئنان كبير. ومما لا شك فيه أن بعض خصائص هذا المعمار تحمل تأثيرا بيزنطيا، ويؤكد

---

(٩٢) نفح الطيب، ٤٣٦/١ و ٦٥٧/١.

(٩٣) المقرى، النفح، جـ ١، ص ٤٤٥ و ٣٠٦ و ٣٠٨ و ٣٠٩ و ٣٨٠ و ٣١٤، طبعة أوربا. وجـ ١ ص ٤٧٣ و ٤٦٦ و ٤٧١ و ٣٨٩ طبعة أحسان عباس.

(٩٤) هذه الأبنية لا تنتمى كلها إلى العصر الأموى، لأن قصر السيد أبى يحيى يعود إلى عصر الموحدين، ومنية الزبير تعود إلى عصر المرابطين، ولكن من الضرورى، فيما يبدو لى، أن نشير اليها ونحن نتحدث عن قرطبة.

هذا تاريخ بناء الزهراء نفسها، فثمة رواية تقول : إن عبد الرحمن الناصر استخدم فى بناء هذه القصور عرفاء المهندسين، وجاء بهم من القسطنطينية[٩٥]. ومع ذلك فإن هذا التأثير لم يتجاوز ما هو ضرورى فى النقوش، وفى استخدام أو تقليد الأعمدة القديمة، أو زخارف الفسيفساء وغيرها، على حين حددت العادات والحاجات الشرقية الرسم والصورة الرئيسية، والشكل المعمارى.

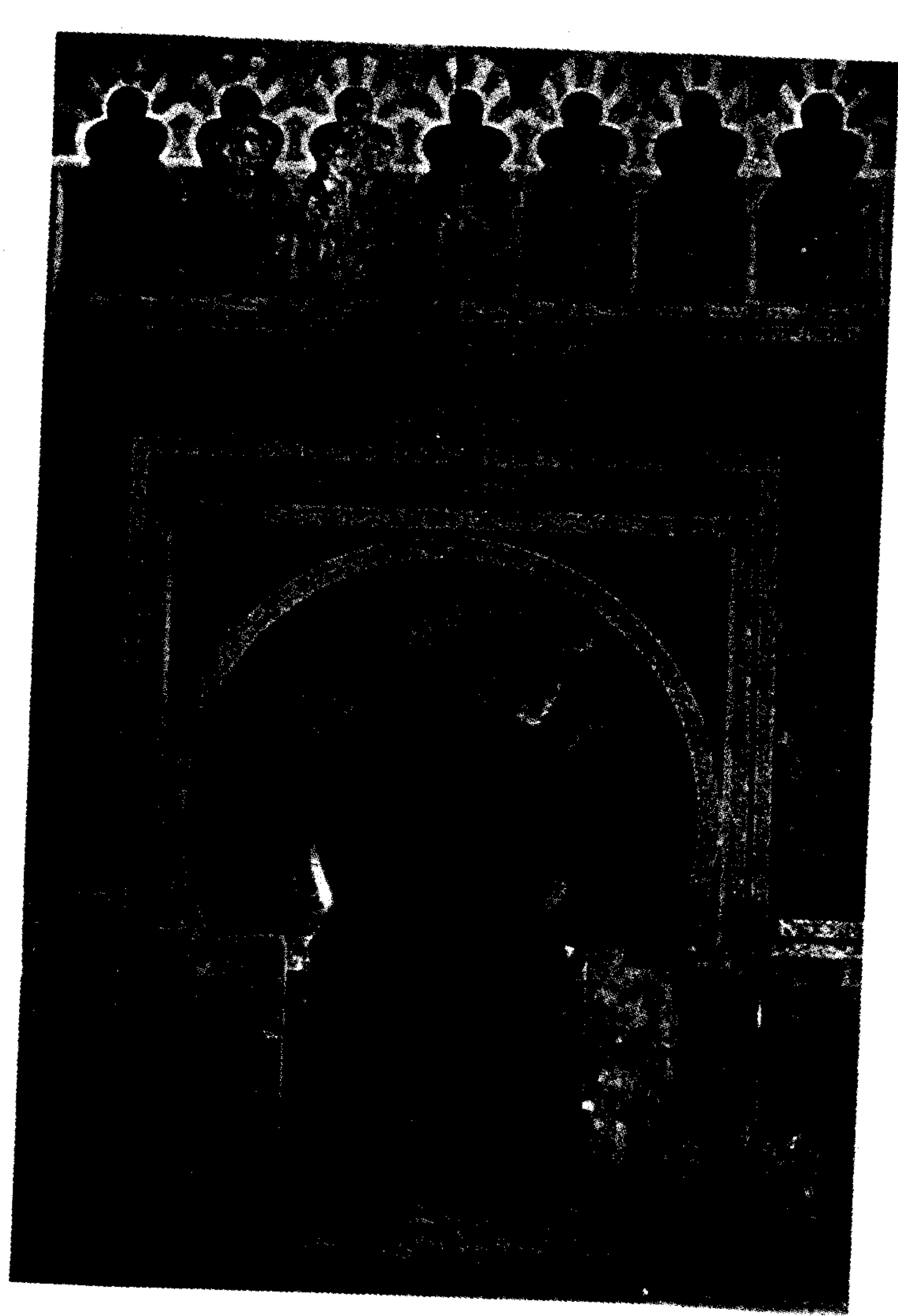
ويجب أن نضع فى الحسبان، لألف سبب وسبب، أن العرب الإسبان أحسوا منذ زمن مبكر جدا بأنهم محكومون بمثل هذه الحاجات والعادات، وأنهم ملزمون بأن يستجيبوا لخيالهم الذاتى لكى يبدعوا وينشئوا ذلك الطراز من المعمار، والذى بقيت لنا منه الحمراء حتى الآن، وهى أكمل طراز فى هذا المجال.

والخاصية المميزة لهذا اللون من البناء تتمثل فى الساحة، تحيط بها الأبهاء التى تتصل بالقاعات والغرف، وفى استخدام المياه بطرق عديدة ومتنوعة، من برك صغيرة، وصهاريج أنيقة، وسط الساحة، أو تندفع من النوافير وتتدفق فى أحواض من الرخام تزين القاعات. واشتاق العرب تحت سماء الأندلس، وتوشك أن تكون استوائية، إلى الحياة فى بيوت تقدم لهم ملجأ ظليلا، يحميهم من غائلة الشمس فوقهم، ويترك المجال طليقا، فى الوقت نفسه، لكى تهب عليهم نسائم الصبا المنعشة، وإلى ساحات مغطاة يستريحون اليها فى طراوة النهار، ويتأملون سطح الماء صافيا كالمرآة، أو يسمعون وشوشة النوافير.

لقد جاءت قصور العصر الأموى لتلبى هذه الحاجات، وهو ما يمكن أن نستنتجه من وصف قصر قرطبة، وحملت المياه إلى كل ساحاته، وتوزعت بين قاعاته إلى برك وصهاريج وأحواض من الرخام[٩٦]. ومثلما نسخ العرب بهذه الطريقة صورة حية من ذكريات حياتهم الأولى فى الصحراء، فزودوا «خيامهم» الثابتة فى الغرب، بالينابيع المرغوبة، خلّدوا أيضا فى قصورهم ذكرياتهم التى من هذا اللون. ويقفز أمام بصر أى امرئ يتجول داخل بناء القصور العربية

(٩٥) نفح الطيب ٣٨٠/١.

(٩٦) المقرى، نفح الطيب، ٣٠٣/١ أوربا.



محراب المسجد الجامع فى قرطبة

الاسبانية، والتى لا تزال باقية : كم تشبه ممراتها وغرفها شكل الخيام، ولو أنه لم يبق فى زمننا هذا أى شاهد على أن هذه الخاصية تعود إلى أقدم المبانى، غير أنه من المحتمل، فيما يبدو، أن الأمر كان هكذا فعلا، إذا أخذنا فى الاعتبار أن البدو عندما غيروا اقامتهم الظاعنة إلى مساكن قارة، أخذوا الأولى نموذجا للثانية.

يعزز فكرة التشابه هذه بين قصور بنى أمية، والقصور التى لا تزال قائمة حتى اليوم، الإشارة إلى الأبراج، ويرد منها فى الخاطر فورا برج قمارش، وأبراج الحمراء الأخرى، وذكر السقف المقبب، مثل قاعة الأختين، وعن كلا الأمرين يتحدث ابن زيدون عندما يصف الزهراء[٩٧]، ويبدو أن القبة بعامة كانت موقوفة على قاعة الاستقبال، عندما يستمع الأمراء، طبقا للتقاليد المشرقية، إلى شكاوى رعاياهم، ويفصلون فيها، فهم يصدرون أحكامهم فى هذه القاعة، يحيط بهم رجال بلاطهم. وكانت القبة مقفلة بحاجز، أو باب، من الحديد، ينتظر الشعب أمامه، مجتمعا أو متفرقا عبر الممرات أو الساحات أو الحدائق، إلى أن يجىء دور كل واحد فى المقابلة[٩٨].

وفيما يتصل بالزخارف المستخدمة، فإن جانبا أساسيا من المعمار العربى لا يمكن أن نتحدث عنه فى ثقة واطمئنان الا بقدر قليل جدا، ويمكن أن نستنتج فى ضوء قطع الفسيفساء التى وجدت بين أنقاض مدينة الزهراء أن الفسيفساء ذى الأحجار الصغيرة، والزجاج الملون، كان يمثل جانبا جوهريا فى هذه الزخارف. ونفهم أيضا مما أورده ابن حيان من أن قدرا هائلا من الجير والجص استخدم فى عمائر الزهراء[٩٩]. وأن هذا الجير، فيما يحتمل، كان يستخدم فى الزخرفة والطلاء، على نحو ما سيحدث فى بناء الحمراء فيما بعد، وبالطريقة نفسها، والتى وصفها ابن خلدون، يقول : «ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التنميق والتزيين، كما يصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسمة، من الجص يخمر بالماء، ثم يرجع جسدا وفيه بقية البلل، فيشكل على التناسب تخريما بمثاقب الحديد إلى أن يبقى له رونق ورواء،

(٩٧) Loci Ibn Zeiduni, ed, Weyers, Pag 22

(٩٦) وأنظر أيضا : دوزى، بنو عباد، ١٤٢/١. والمقرى ٣٧٢/١.

(٩٨) مرمول كربخال، وصف أفريقيا، ٣١/٢. وابن بطوطة ٤٠٣/٤.

(٩٩) المقرى، ٣٧٣/١. و ٥٦٨/١.

وربما عُولِيَ على الحيطان أيضا بقطع الرخام والآجر والخزف، أو بالصدف، أو السبج يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة، وتوضع فى الكلس على نسب وأوضاع مقدرة عندهم، يبدو به الحائط للعيان كأنه قطع الرياض المنمنمة»[(١٠٠)].

نستطيع أذن أن نتصور الجدران، والسقوف، والعقود فى القصور، خلال العصر الأموى، مغطاة بالفسيفساء الجميل، وإلى جانبها نجوم، وأغصان وأوراق، ورسوم أخرى بالغة التشابك، وتتخللها نقوش مكتوبة : آيات من القرآن، أو أبيات من الشعر، تزين جوانب كل الحيطان، فى ألوان زاهية، على حين أن الجص وقد أخذ ألوانا مختلفة، أو أصبح مذهبا، فى حنيات القاعات، ذات الأعمدة، وفى القباب المفرطحة والأبهاء والساحات، يأخذ شكل سجاد رائع الزخرفة، أو أقمشة من الحرير دقيقة الصنع، كما هى فى خيام الأمراء.

ولا نجرؤ على التأكيد بأن القيشانى[(١٠١)] كان يستخدم فى الأزمنة الأولى كما استخدم فيما بعد، وتزخرف به الجدران، وبخاصة الأجزاء السفلى منها، ولكننا نرى القيشانى فى مسجد قرطبة، فى مصلى بيابثيوسا Capilla de Villavicosd، يشكل، على نحو ما فى الحمراء، بألوانه المختلفة، ورسومه المتنوعة، وتكويناته الفنية، نجوما وتكوينات سداسية، وأشكالا هندسية أخرى جميلة المنظر، ولكن من الصعوبة البالغة أن نحدد بدقة العصر الذى تمت فيه زخرفة هذه المصلى، ويمكن القول ظنا فحسب أنها تعود إلى عصر سيطرة المنصور العظيم، قريبا من نهاية القرن العاشر الميلادى، لأن المؤلفين العرب، والذين تابعوا عن قرب كل التغييرات والتحسينات التى أدخلت على المسجد، لم يشيروا إلى أى عمل من الأعمال التى تعرض لها فيما بعد.

● اندثار الآثار الأموية :

كان حظ الآثار التى تنتمى إلى العصر الأموى تعسا بلا شبيه، اختفت كل المبانى الرائعة، كما لو كان الأمر معجزة، دون أن تترك وراءها أثرا يذكر، ولكن

---

(١٠٠) مقدمة ابن خلدون، ص ٤٠٨، طبعة التجارية بالقاهرة.

(١٠١) المقرى، ١٢٤/١، وابن بطوطة، ١٣٠/٢ و٧٩/٣.

وجودها فى عصور خلت يضطرنا إلى أن نثق فى الشواهد التى يذكرها المؤرخون، وكتب الرحالة، ودلالات العملة[١٠٢]. ويرد فى الخاطر أحيانا أن غياب الصلابة فى المواد التى استخدمت فيها، وعيوب البناء، سهل عملية تحولها إلى أنقاض، ولكن إذا أخذنا فى الاعتبار قوة الجدران الضخمة التى تحيط بالمسجد الجامع فى قرطبة، وشدات التقوية البارزة التى تتخللها، فإن مثل ذلك الافتراض يصبح واهيا، ولا يمكن لأحد أن يدعى أن القصور لم تكن مبنية مثل المساجد بأحجار وآجر، وإنما أقيمت بخليط من الجير والرمل يسمى «طابية»، غير أن جدران الحمراء، وأقيمت من هذه الخلطة، لها صلابة الحديد. ومن ثم فمن الضرورى أن نرد الدمار الذى أصابها إلى يد الانسان المخربة، وإلى الجيوش المحاربة، أفريقية أو مسيحية. وفى قرطبة مثلا فإن كثيرا من القصور تحولت إلى أنقاض بعد اقتحام البربر لها عام ١٠١٣م، وأجمل القصور فيها أتت عليه النيران، ويد الدمار، يقول ابن حزم يبكى ديارهم التى ذهبت: «ولقد أخبرنى بعض الورّاد من قرطبة، وقد استخبرته عنها، أنه رأى دورنا ببلاط مغيث، فى الجانب الغربى منها، وقد امحت رسومها، وطمست أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيرها البلى، وصارت صحارى مجدبة بعد العمران، وفيافى موحشة بعد الأنس، وخرائب متقطعة بعد الحسن، وشعابا مفزعة بعد الأمن، ومأوى للذئاب، ومعازف للغيلان، وملاعب للجان، ومكامن للوحوش، بعد رجال كالليوث، وخرائد كالدمى، تفيض لديهم النعم الفاشية، تبدد شملهم فصاروا فى البلاد أيادى سبا، فكأن تلك المحاريب المنمقة، والمقاصير المزينة، التى كانت تشرق أشراق الشمس، ويجلو الهموم حسن منظرها، حين شملها الخراب، وعمها الهدم، كأفواه السباع فاغرة، تؤذن بفناء الدنيا، وتريك عواقب أهلها، وتخبرك عما يصير إليه كل من تراه قائما فيها، وتزهد فى طلبها، بعد أن طال ما زهدت فى تركها. وتذكرت أيامى بها، ولذاق فيها، وشهور صباى لديها، مع كواعب إلى مثلهن صبا الحليم، ومثلت لنفسى كونهن تحت الثرى، وفى الآثار النائية، والنواحى البعيدة، وقد فرقتهن يد الجلاء، ومزقتهن

---

(١٠٢) فيما يتصل بالعملة المضروبة فى الزهراء، أنظر: كتاب اسبانيا، تأليف Lava LL´ee، باريس ١٨٤٤، ٢١٨/١. والآثار الاسبانية، ٢٢/٢.

أكف النوى، وخيل إلى بصرى فناء تلك النصبة بعد ما علمته من حسنها وغضارتها، والمراتب المحكمة التى نشأت فيها لديها، وخلاء تلك الأفنية بعد تضايقها بأهلها، وأوهمت سمعى صوت الصدى والهام عليها، بعد حركة تلك الجماعات التى ربيت بينهم فيها، وكان ليلها تبعا لنهارها فى انتشار ساكنها، والتقاء عمارها، فعاد نهارها تبعا لليلها فى الهدوء والاستيحاش، فأبكى عينى، وأوجع قلبى، وقرع صفاة كبدى، وزاد فى بلاء لبى»[١٠٣].

ويبدو أن قصر الخلافة قد تحول إلى أنقاض قبل أن تسقط المدينة فى يد المسيحيين بكثير[١٠٤]، فنحن نعرف أن الشاعر **أبا العاصى بن أمية المورورى**[١٠٥] جلس على نهر قرطبة بازاء الربض، ملتفتا إلى القصر، وأنشد بديهة:

يـا قصرُ كم حـويْتَ من نعم	عادت لقى فى عوارض السكك
يـا قصرُ كم حـوْيتَ من مَلكٍ	دارتْ عـليـه دوائـرُ الـفـلـك
ابـقَ بمـا شئـتَ كـلُّ مُـتَّـخـذٍ	يعـودُ يـومـاً بحـال مُـتَّرِك[١٠٦]

وتحول إلى أنقاض الجانب الأكبر من القصور والمنيات التى كانت تتناثر حول قرطبة، فى القرن الحادى عشر الميلادى، كما تشير إلى ذلك هذه الفقرة من «تعليق على ديوان ابن زيدون»[١٠٧]:

«هذه معاهد بنى أمية قطعوا بها ليالى وأياما، وظلّت فيهـا الحوادث عنهم نيـاما،

---

(١٠٣) دوزى، تاريخ مسلمى اسبانيا، ٣٠٩/٣.

● وانظر أيضا، طوق الحمامة لابن حزم، تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكى، الطبعة الرابعة، ص ١٢٦ و ١٢٧، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥. (المترجم)

(١٠٤) سقطت قرطبة فى يد المسيحيين عام ١٢٣٦م.

(١٠٥) غالب بن أمية، ويترجم له أحيانا تحت اسم أمية بن غالب، من شعراء القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى، أصلا من مدينة مورور فى مقاطعة إشبيلية، وسكن قرطبة، وكان شاعر المنصورين أبى عامر، أنظر ترجمته فى: تكملة الصلة رقم ١٩٥٥، والجذوة رقم ٣٠٥، والبغية رقم ١٢٧٥، والمغرب لابن سعيد، جـ ١ ص ٣١٢. (المترجم)

(١٠٦) المقرى، ٣٥٨/١ و ٥٤٤/١.

(١٠٧) ابن زيدون، طبعة Weyers ٥٤٢.

فهاموا «بشرق العقاب»، وشاموا به برقا يبدو من نقاب، ونعموا بحوفى «الرصافة»، وطعموا عيشا تولى الدهر جلاءه وزفافه، وأبعد نصح الناصح، وحمدوا أنس «مجلس ناصح»، وعموا بالزهراء وصموا عن نبأ صاحب الزوراء، حتى رحلهم الموت عنها وقوّضهم، وعوّضهم منها ما عوضهم، فصاروا أحاديث وأنباء، ولم يتزودوا منها إلاحنوطا وكباء، وغدت تلك المعاهد تصافحها أيدى الغير، وتناوحها نعبات الطير، وراحت بعد الزينة سدى، وأمست مسرحا للبوم وملعبا للصدى، يسمع للجن بها عزيف، ويصرع فيها البطل الباسل والنزيف، وكذا الدنيا أعمالها خراب، وآمالها آل وسراب، أهلكت أصحاب الأخدود، وأذهبت ما كان بمأرب من حيازات وحدود»[١٠٨].

وعلى الرغم من كل عواصف الأيام الأولى هذه، فإن عاصمة خلفاء الغرب كانت تضم على التأكيد كثيراً من الأبنية المعمارية الملحوظة، والجديرة بالذكر، عندما استولى عليها سان فرناندو ملك قشتالة[١٠٩].

ومن يتجول اليوم فى شوارع قرطبة، فقيرة وخالية، يرى هنا وهناك أكواما من أنقاض، وأطلال حمامات متهدمة[١١٠]، وبقايا زخارف على جدار من أيام العرب[١١١]. ولكن.. عبثا تجد جوابا لسؤال حائر يرد فى الخاطر: أين اختفت هذه المدينة العريضة، وكيف تلاشت، وكانت فى عصور خلت تمتد على ضفاف

---

(١٠٨) والنص من إنشاء ابن خاقان، وجاء به تعقيبا على القصيدة التى قالها ابن زيدون حين كان فارا، وأتى عليه عيد الأضحى وحيدا، ومطلعها: «خليلى لا فطر يسر ولا أضحى»، ونصها فى نفح الطيب، ٦٢٨/١ أحسان عباس، أطول من نصها فى القلائد.
(المترجم)

(١٠٩) عبثا نجد فى «مدونة سان فرناندو»، وصدرت فى سلمنقة عام ١٥٤٠، أية أشارة إلى أى بناء آخر، باستثناء المسجد الجامع.

(١١٠) طبقا للسينور راميريث ودى لاس كاساس، فى كتابهما «دليل قرطبة»، كانت هناك بقايا حمامين عربيين فى شارع الحمام El Bano فى قسميه الصاعد والهابط، رقمى ٥ و ١٠، ويقولان: «أن الأول يحتوى على عشرة أعمدة، تضم قاعة ضيقة فوقها قبة، وفى وسطها بركة. أما الحمام الثانى فتحت الأرض فى ساحة البيت، مربع ويقوم على أثنى عشر عمودا من الرخام».
(خوان باليرا)

(١١١) ثمة بقايا أبنية عربية لا تزال توجد فيها يسمى «بيت النواقيس» Casa de Las Campanas, وفى بيت الكونت أجيلا El Conde Aguila، ومصلى مستشفى الكاردينال كان قبل مسجدا فيما يبدو.

نهر الوادى الكبير، وتضم مئة وثلاثين ألف بيت، وثلاثة آلاف مسجد، وسبع مئة حمام، وثمانية وعشرين ربضا، أو ضاحية بلغتنا المعاصرة(١١٢). وعبثا تفتش عن ألف منارة أنيقة، وعن شرفاتها المستديرة، تشق عنان السماء، فوق بحر من البيوت، والقصور، والسطوح، والساحات الغنية بأشجار النخيل والسرو السامقة، والقصور الريفية الجميلة، والقرى تتناثر بين كروم العنب وأشجار الزيتون. وكانت الحقول التى حول قرطبة تضم فى أيامها العربية المجيدة ثلاثة آلاف ضيعة(١١٣)، أشبه ما تكون بحديقة ممتدة من الخضرة النضرة، أما الآن فقد تحولت كلها تقريبا إلى أرض مجدبة قفرة، وكل ما بقى من أمجاد الماضى ناعورة هنا أو هناك، ومن حين لآخر تحمل الماء إلى الأرض العطشى، وتـذكر النـاس بما كـان للعرب من جهد ونشاط.

- **الآثار الأموية خارج قرطبة:**

الآثار الإسلامية التى تعود إلى العصر الأموى، وظلت فى بقية اسبانيا، أشد ندرة بعد مما فى عاصمة إمبراطورية الخلفاء، لم يبق أى أثر من القصور الفخيمة التى كانت مقرا للأسر الأندلسية القوية فى الجنوب، وكانت شبه مستقلة عن الخلافه، مثل قصر **ابن الشالية** [عبيد الله بن أمية]، وعنها قال الشاعر (**عبيد يس ابن محمود**):

قصرُ الأميرِ أبى مروان مُنتسخٌ   من جنة الخلْدِ بالسرّاءِ معمورُ
فيه مجالسُ قد شِيدتْ بلا عمدٍ   بنيانُها مرمرٌ بالتبرِ مطمورُ(١١٤)

وكان المسجد الذى أقامه **عبد الرحمن الثانى** فى أشبيلية، فى منتصف القرن

(١١٢) البيان، ٢٤٧/٢، ودوزى، تاريخ مسلمى أسبانيا، ٩١/٣. ومع أنه لا يمكن الشك فى اتساع قرطبة على نحو مدهش، لكننا مازلنا نصدق بالكاد رقم المساجد، ويجب أن يكون قد تعرض لشىء من المبالغة، وبخاصة إذا أخذنا القاهرة فى الاعتبار، وهى مدينة بالغة الضخامة والثراء، ومع ذلك لا يزيد عدد مساجدها عن ثلاث مئة مسجد.

(١١٣) المقرى، ٢٩٩/١.

(١١٤) دوزى، تاريخ مسلمى اسبانيا ٢٦٣/٢.

(وأنظر أيضا: المقتبس لابن حيان، القسم الثالث، طبعة باريس، ص ١١).

التاسع الميلادى تقريبا عملا رائعا وشهيرا، ولم يكمله على ما أراد له، ويقص علينا المؤرخون العرب أن الأمير عبد الرحمن رأى «فى نومه عند تمام جامع إشبيلية، أنه يدخله فيجد النبى، عليه الصلاة والسلام، ميتا مسجى عليه فى قبلته، فانتبه مغموما، فسأل أهل العبارة عن ذلك، فقالوا: هذا موضع يموت فيه دينه، فحدث فيه إثر ذلك ما كان من غلبة المجوس على المدينة».

وبعد قليل استولى النورمانديون على إشبيلية، وبذلك تحقق معنى الحلم، وأراد أولئكم الغزاة المتوحشون، فضلا عن ذلك، هدم المسجد، فوجهوا إلى سقفه سهامهم الضارية، وجمعوا كثيرا من الوقود، وكوّموه فى إحدى البلاطات، لإحراق المسجد، وعندما همّوا بإشعال النار، ظهر ملاك من جانب المحراب فى صورة غلام نادر الجمال، وأزاح المحرقين من هناك، وهكذا أنقذ المسجد، وفارق النورمانديون المدينة فى وقت قصير[١١٥].

وربما كان هذا البناء فى نفس المكان الذى أقام عليه الموحدون فيما بعد المسجد الجامع فى أشبيلية، وأقام المسيحيون حين استولوا على المدينة كتدرائيتهم على أنقاض هذا المسجد، ومع ذلك يمكن أن نرى بقايا المسجد الأول لا تزال واضحة فى جدران الصحن، حيث تحتفظ الكتدارئية، دون أدنى شك، بجانب يظهر أنه معمار عربى.

وربما كانت هناك أيضا بعض الحمامات فى إشبيلية، وبرشلونة ومرسية، وغرناطة، تعود إلى العصر الأموى. ولو أنها مهدّمة تماما، ولكنها تعطى فكرة واضحة عن بناء الحمام العربى: فهناك الساحة فى المدخل، تحيط بها حجرات صغيرة، تستخدم لخلع الملابس، ومنها يمر المرء عبر قاعات متعددة حيث توجد الأحواض، وسطحها فى شكل قبة، ومنه يدخل الضوء خلال فتحات صغيرة. وإذا كان ثقل تيجان الأعمدة فى هذه القاعات يشهد بأنها من الأيام الأولى للفن العربى، فإن العقود الحدوية، وليست أقل ثقلا، تظهر الشيء نفسه، ومثلها الأعمدة، ذات الطراز القديم، التى فى صومعة كريستو دى لالوث Cristo de

---

(١١٥) دوزى، أبحاث، ٢٨٦/٢.

la Luz فى مدينة طليطلة، فهى فيما يبدو صورة مصغرة من مسجد قرطبة[١١٦]. وللسبب نفسه يجب أن ينتمى باب شاقرة Visagra القديم، ومنه دخل المسيحيون حين استولوا على المدينة[١١٧]، إلى الأيام الأولى. ولا تزال كتدرائية طركونة Tarragona تحتفظ بحنية غنية بالزخارف العربية، وتعود إلى ما قبل عام ٩٦٠م، وهو زمن إنشائها، ومن المحتمل أنها كانت محراب المسجد الجامع فى المدينة.

● **فن المعمار فى عصر الطوائف:**

باندفاع أكبر، وفى حدة أشد، أتى التدمير تماما على عدد من الأبنية الرائعة، االتى شادها الأمراء المترفون الأسخياء، الذين توزعوا الخلافة بعد سقوط الدولة الأموية [وعرفوا بأمراء الطوائف]، وكانت الخسارة فادحة فى إشبيلية بخاصة. وبينما كانت عاصمة الخلافة تأخذ طريقها نحو السفح، كانت إشبيلية تمضى نحو العلا صعدا، حتى أصبحت أعظم مدن الأندلس، ويتحدث عنها المؤرخون العرب فى حماسة زائدة، يطرون جمال أرباضها وما حولها، ويصفونها بأنها: «عروس بلاد الأندلس، لأن تاجها الشرف[١١٨]، وفى عنقها سمط النهر الأعظم، وليس فى الأرض أتم حسنا من هذا النهر، يضاهى دجلة والفرات والنيل، تسير القوارب فيه للنزهة والسير والصيد، تحت ظلال الثمار، وتغريد الأطيار، أربعة وعشرين ميلا»[١١٩].

ولم تكن المدينة نفسها، على أيام العرب، بأقل عظمة أو روعة من ضواحيها،

---

(١١٦) ينسب أمادور دى لوس رييس، فى كتابه طليطلة الحالمة بناء هذه الصومعة إلى عصر الخلافة، حيث كان فى موضعها معبد مسيحى يعود إلى أيام القوط، وفيها أقام ألفونسو السادس، ملك قشتالة، أول قداس، بمناسبة استيلائه على المدينة من المسلمين فى ٦ من مايو ١٠٨٥م، كما يفهم هذا من نقش لايزال موجودا فوق العقد الذى يفصل المصلى عن بقية الكنيسة ويقول: هذا الشعار تركه فى هذه الصومعة الملك الفونسو السادس عندما غنم طليطلة، وأقيم فيهاأول قداس». (خوان باليرا)

● قدم باليرا تفصيلات عن مساحة الصومعة وامتدادها وأعمدتها، لاتعنى القارىء العربى فى شىء فتركتها. (المترجم).

(١١٧) لا تزال بقايا المعمار العربى موجودة فى طليطلة، فى البيت رقم ١٧ فى شارع الخراطين «تورنرياس Los TORNERIAS». (المترجم)

(١١٨) جبل فى مقابل مدينة أشبيلية مشهور بالزيتون الكثير.

(١١٩) المقرى، نفح، ١٢٨/٣ طبعة أوربا.

تفيض فتنة، وتزهو جمالا، وعلى امتداد عشرة فراسخ من نهر الوادى الكبير، يمكن أن ترى على شاطئيه صفوفا متواصلة من المبانى، والقصور الريفية الفخيمة والأبراج العالية[١٢٠]. واشتهرت البيوت فى داخل المدينة بصلابة بنائها، وأناقة شرفاتها، ويضم كل بيت ساحة تتوسطها نافورة، تنثر الماء حولها، وتتناثر فيها أشجار الليمون والبرتقال[١٢١]. وكثير من هذه البيوت لا يزال قائما فى حالة جيدة، على هذه الصورة، حتى أيامنا هذه، ويمكن أن يعطى فكرة واضحة عن البيت العربى القديم، فهو يشبه فى تخطيط كثير من أجزائه ما عليه هذه البيوت الحديثة، فهو يتكون من سور يحيط بالبيت، وأسطوان[١٢٢]، وهو لفظ دخل اللغة الاسبانية فى صورة Zeguan، وساحة داخلية[١٢٣]، فى وسطها نافورة، تنثر الماء فى حوض من الرخام، وتنمو فيها أشجار مخضرة على الدوام، وحولها ممرات ذات أعمدة تؤدى إلى مختلف الحجرات، وهذه هى الملامح الرئيسية الخاصة بهذه البيوت، وفى المنازل الكبرى يوجد عادة أكثر من ساحة، وبالطريقة نفسها.

بلغت إشبيلية عصرا من الازدهار الفريد تحت حكم أسرة بنى عباد، وفى عهد المعتمد بن عباد بخاصة، بشهادة كل المؤرخين، فقد جعل منها أجمل المدن وأرقاها[١٢٤]، وصوّرت حياة الأمير وشعره ما كانت عليه قصور بنى عباد فى جمالها من سحر وفتنة، ومازلنا حتى يومنا نحنّ اليها فى شوق حزين، ونتذكر آسفين أميرها المعتمد، فى قيوده العابسة وقد أزيح عن عرشه، ليموت أسيرا فى أغمات.

وبين هذه القصور يجب أن نذكر الزاهى، وكان قائما بين أشجار الحور والزيتون على ضفاف النهر الكبير، وقصر المبارك فى وسط المدينة، وربما كان فى نفس المكان الذى شيد عليه المسيحيون القصر Alcázar القائم إلى اليوم، بعد أن استولوا على المدينة، ولعل هذا قد احتفظ بجانب من ذلك البناء القديم. وخارج اشبيلية

---

(١٢٠) المصدر نفسه، ٢٢٨/١.

(١٢١) المصدر نفسه، ١٤٤/١.

(١٢٢) ابن بطوطة، ٥/٤.

(١٢٣) كان فناء المسجد، فيما يبدو، يسمى صحنا، (ابن بطوطة، ٣٦٧/٤، والمقرى، ٣٦٠/١)، وفناء البيوت والقصور يسمى ساحة، لأننا نجدهما هكذا متميزين فى نقوش قاعة الأختين فى الحمراء، ساحة الريحان، وساحة الأسود.

(١٢٤) دوزى، بنو عباد، ٧٦/١.

كانت توجد قصور التاج، والواحد، والثريا، وغيرها. وليس لدينا أدنى شك فى وجود هذه القصور كلها، على نحو ما ذكرنا. وطبقا لما تشير إليه المصادر من أن الأمير كان يستريح فى القصور، ومن حديثها عن الأبراج التى يعيش فى غرفها، وعن القاعات ذات القباب[١٢٥]، نستنتج أنه كانت هناك ساحات ذات ممرات عريضة، يمكن الوصول عن طريقها إلى الأبراج، ذات الغرف الفاخرة، وإلى قاعات مقبّبة السقوف، والإشارة إلى وجود الحدائق على مقربة منها[١٢٦]، يومىء إلى أن الطبيعة تركت حرة إلى حد ما، على نحو ما نلحظ الآن فى جنة العريف. ويمكن أن نتصور هذه الحدائق عامرة، تنضح خضرة، وتعبق أريجا، وتفيض بأفنان الريحان، والياسمين، والورود، وأشجار البرتقال والرمان. وتوجد النوافير وسط ذلك، ترسل وشوشتها ناعمة وصافية، وتصب فى أحواض من الرخام، وتعكس بركها كل ذلك البهاء. وتبرق حول الساحات عقود القاعات، والسقوف، وتيجان الأعمدة الدقيقة، وتغطيها كلها الزخارف العربية المتشابكة، البالغة الثراء، حمراء وزرقاء وذهبية، أو بالرسوم مضلعة، تتشابك وتختلط فى تيه من الخيال الجامح، وسط الزهور والأوراق الخضراء، وعلى حين تلمع الأرض بالقيشانى، أو ألواح الرخام، فإن الزخارف المتنوعة من المصيص تغطى الأروقة والعقود وزوايا القاعات والسقوف، وأحيانا تتدلى من هذه الأخيرة، وعلى الجدار، فوق أرضية زرقاء، تزهو النقوش مكتوبة فى حروف مذهبة، أبيات من الشعر لأشهر الشعراء، وبعض هذه النقوش وصلنا عبر الزمن، مثل قصيدة **ابن حمديس الصقلى**، يصف دارا بناها المعتمد:

ويـا حبَّــذا دارٌ قضى الله أنّها	يُجـدِّد فيهـا كـلُّ عـز ولا يبـلى
مقـدَّسةٌ لـو أن مـوسى كليمَـهُ	مشي قُدُماً فى أرضها خلع النعلا
ومـا هى إلاّ خـطّةُ الملكِ الــذى	يحُطُّ إليه كلُّ ذى أمـل رَجْلاَ
إذا فُتِحَتْ أبــوابُها خِلْتَ أنَّها	تقـول بـترحيبٍ لـداخلهـا أهْـلا
وقد نقلتْ صُنّاعُها من صفاتـه	إليهـا أفـانينـاً فـأحْسنتِ النقْـلا

(١٢٥) دوزى، بنو عباد، ١٤٢/١، والتعليقات أرقام: ٤١١ و ١٤٦ و ٤٢٩.

(١٢٦) المصدر السابق، جـ ١ ص ٨٤ و ٨٥ و ٩٦.

فمن صدْره رَحْباً ومن نوره سناً ... ومن صيته فرعاً ومن حلمه أصلا
فأعْلتْ به فى رتبةِ الملك نادياً ... وقلَّ له فوق السماكيْن أنْ يُعْلى
نسيتُ بـه إيـوانَ كسرى لأننى ... أراه له مَوْلىً من الحسنِ لا مِثْلا
كـأن سليمان بن داود لم تُبِحْ ... مخـافته للجنِّ فى صُنْعـه مَهْـلا
ترى الشمسَ فيه لِقيةً تستمدُّها ... أكفٌ أقامتْ من تصاويرها شَكْلا
لها حركاتٌ أُودعت فى سكونها ... فـما تَبعتْ فى نقلهن يـدٌ رِجْـلا
ولـما عَشينا مِن تـوقُّـدِ نـورهـا ... تخذنا سناهُ فى نواظرنا كحلا(١٢٧)

ونستنتج من الجزء الأخير فى القصيدة السابقة أن الرسوم التى تمثل كائنات حية فى الزخرفة لم تكن غريبة على القصور، ويقول ابن خلدون : إن مسلمى الأندلس على أيامه، الذين كانوا فى تجارة متصلة، وعلى اتصال دائم بالمسيحيين فى الشمال، جلبوا معهم عادة زخرفة جدران بيوتهم وقصورهم بالرسوم(١٢٨).

وإذا كنا نرتضى القول بأن هواية هذا اللون من الزخارف شاعت بين العرب الإسبان تقليدا للشعب الذى يجاورهم، فمن الضرورى أن نقرر أن أى حرج دينى فيما يتصل بالتصوير كان قد تلاشى بين المسلمين منذ زمن مبكر جدا، ومنذ القرن التاسع الميلادى أقيم تمثال على أحد أبواب طليطلة(١٢٩)، وفى المصلى الذى يعرف الآن باسم «مصلى بيابثيوسا»، فى المسجد الجامع بقرطبه، نشاهد حتى اليوم صورة أسدين راقدين، ويُستخدمان قاعدة ينهض عليها العقد، وليس ثمة أدنى شك فى أن أصلهما عربى، وسبق أن أشرنا إلى أنه توجد فى هذا المسجد، المقدس والعتيق، صورة أهل الكهف وأخرى لغراب نوح(١٣٠). وأن عبد الرحمن الناصر زيّن مدينة الزهراء بصور محظياته، ووضع على حوض إحدى النوافير اثنى عشر تمثالا لحيوانات مختلفة، نحتت فى قرطبة نفسها. وقد اكتشفت أخيرا فى سان اشتبان دى غورماج San Esteban de Gormaz راية يحمل أحد نقوشها اسم هشام

---

(١٢٧) نفح الطيب ٣٢١/١ و ٤٩١/١ طبعة أحسان.
(١٢٨) مقدمة ابن خلدون، ٢٦٧/١.
(١٢٩) دوزى، تاريخ مسلمى اسبانيا، ٢٦٧/١.
(١٣٠) المقرى، ٣٦٧/١.

الثانى، وتزينها صورة رجل وامرأة، إلى جانب صور حيوانات وطيور[١٣١] وفى أحد القصور، إلى الغرب من قرطبة، وجدوا تمثالا رائعا لأسد «عظيم الصورة، بديع الصنعة، شديد الروعة، لم يشاهد أبهى منه فيما صورّ الملوك فى غابر الدهر، مطلى بذهب إبريز، وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد»[١٣٢]. وعثروا بين أنقاض الزهراء على غزالة من النحاس، وتوجد اليوم فى متحف قرطبة. ويتردد كثيرا ذكر الحيوانات التى تتدفق المياه من أفواهها، وتكاد أن تصبح زينة لا مندوحة عنها فى القصور، ويصف ابن روثيان فى قصيدة له أسدا يتدفق الماء من فيه[١٣٣]، وكان فى أحد قصور المعتمد فيل من الفضة على حافة بركة[١٣٤]، وكان قصر الشراجيب فى شلب يضم تماثيل خيل[١٣٥]، وأسودا ونساء جميلات[١٣٦].

وكان الكثيرون من الأمراء الذين توزّعوا الخلافة الممزقة، وكبار السادة فى هذه الإمارة، يملكون قصورا وبيوتا ريفية تنافس فى البذخ والترف قصور بنى عباد، ومن بين هذه القصور يجب أن نشير إلى قصر المعتصم بن صمادح أمير المرية، الذى شيده فى عاصمة إمارته، وكانت يومها أعظم مدن اسبانيا ازدهارا وعمارا وسكانا[١٣٧]. ومنية ابن عبد العزيز فى بلنسية، ويصفها المؤرخون العرب بأنها كانت واحدة من أجمل أمكنة العالم سحرا وفتنة، واتخذ منها السيد القنبيطور سكنا له زمنا طويلا[١٣٨]، ودار السرور فى سرقسطة[١٣٩]، وأخيرا البناء الرائع الذى بناه المأمون بن ذى النون، آخر أمراء طليطلة، واتخذ منه مقرا له، «تأنق فى بنائه،

---

(١٣١) توجد هذه الراية معروضة فى متحف الآثار فى أكاديمية التاريخ فى مدريد.

(١٣٢) المقرى، ٣٧١/١، وطبعة أحسان ٥٦٤/١.

(١٣٣) مقدمة ابن خلدون، ٤٠٥/٣

(١٣٤) المقرى، ٦١٢/٢.

(١٣٥) دوزى، بنو عباد، ١٨٣/١.

(١٣٦) دوزى، تاريخ مسلمى اسبانيا، ١٤٦/٤.

(١٣٧) المقرى، ٤٤٢/١.

(١٣٨) مالودى مولينا: لذريق القنبيطور، مدريد ١٨٥٧، ص١٠٣، والملحق ١٧٥.

● وأنظر كتابنا: ملحمة السيد، دراسة مقارنة، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣، فقد أتينا على تاريخه كاملا. (المترجم)

(١٣٩) المقرى، ٣٥٠/١.

وأنفق فيه مالا كثيرا، وصنع فيه بحيرة، وبنى فى وسطها قبة، وسيق الماء إلى رأس القبة، على تدبير الحكماء والمهندسين، وكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها، محيطا بها، متصلا بعضه ببعض، فكانت القبة فى غلالة من ماء يسكب لا يفتر، والمأمون بن ذى النون قاعد فيها، لا يمسه من الماء شىء، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل، فبينا هو نائم فيها، إذ سمع منشدا ينشده هذين البيتين:

أتبنى بنـاءَ الخـالـدينَ وإنَّمـا   بقاؤك فيها لـو عَقلْتَ قليلُ
لقد كان فى ظلِّ الأراكِ كفايةٌ   لمن كل يوم يقتضيه رحيل[١٤٠]

وبعد قليل فقد الملك مملكته، واستولى المسيحيون على مدينة طليطلة[١٤١].

ولم يكن الأمر وقفا على الأمراء وحدهم، وإنما هناك أفراد كثيرون من القادرين بنوا لهم قصورا فخمة، أنفقوا عليها أموالا طائلة، فقد بنى أحد الأغنياء لنفسه قصرا فى طليطلة أنفق عليه مئة ألف قطعة من الذهب، وكان يعكس بذخا واضحا فى أبوابه، فجاء بعضها مغطى بالذهب[١٤٢].

● الفن المغربى[١٤٣]

من الشائع أن يطلق اسم الفن المغربى على المعمار الذى ينتسب إلى العصر الذى

---

(١٤٠) ابن بدرون، شرح قصيدة ابن عبدون، ص٢٧٧-٢٧٨.

(١٤١) هذا التعليق من المؤلف، وأسقط الفقرة التى كانت نهاية القصة حيث يقول ابن بدرون: «فلم يلبث بعد هذا إلا يسيرا حتى قضى نحبه».
(المترجم)

(١٤٢) دوزى، معجم الملابس، ص٢٨٥.

(١٤٣) عندما اكتشف الإسبان جزر الفلبين عام ١٥٦٤م واحتلوها وأطلقوا عليها اسم ملكهم فيليب الثانى، وجدوا بها جالية إسلامية كبيرة العدد، فأطلقوا عليها اسم «مورو Moro»، وهى كلمة كانت تطلق فى الأصل على القادمين من المغرب إلى إسبانيا، نسبة إلى موريتانيا، ثم أصبحت تطلق على كل سكان شمال أفريقيا، ثم كل العرب، ثم كل المسلمين.

ولا يزال المسلمون فى الفلبين يعرفون بهذا الاسم إلى اليوم، والجبهة التى تقاتل من أجل استقلالهم ورفع المظالم عن كاهلهم، تحمل اسم: «جبهة المورو».

أما كلمة موريسكى، وهى فى الأصل تصغير لفظ «مورو» احتقارا، فلم تعرفها الإسبانية إلا فى عصور متأخرة، وأصبحت تطلق على المسلمين الذين ظلوا فى الأندلس، بعد سقوط غرناطة، آخر دولهم، فى يدى الملكين فرناندو وإيزابيل، وأكرهوا على اعناق الكاثوليكية، فاستجابوا ظاهرا إلى أن تبين الإسبان حالهم، وطردوهم عن بلادهم، عام ١٦١٣.
(المترجم)

يبدأ باستيلاء المرابطين على الأندلس، وينتهى باستيلاء الملكين فرناندو وإيزابيل على غرناطة، غير أن هذا المصطلح أسىء استخدامه، ذلك أن الأسبان المسيحيين، وكان يعيشون فى جهل مريع بمن يخالفهم فى العقيدة، أطلقوا اسم « مورو Moro » على كل المسلمين، دون تمييز بين البلاد التى ينتسبون إليها، وبهذا المعنى انتقل إلى بقية اللغات الأوربية. ولكن عندما نتحدث عن فن مغربى يجب أن نفهم من اللفظ أننا بصدد تمييزه عن الفن العربى، وأننا نعنى به الفن الذى استخدمه الموريتانيون والبربر.

ليس ثمة شك فى أن الشعب الإسلامى فى إسبانيا كان مختلطا، منذ البدء، إلى حد بعيد، وكان بين أوائل الفاتحين عدد كبير من سكان شمال أفريقيا وقبائلها، وفيما بعد عاش هؤلاء فى أعداد كثيرة، إلى جانب العرب، على امتداد كل شبه جزيرة إيبريا. وبين الأسر التى حكمت خلال عصر الطوائف فى القرن الحادى عشر الميلادى عدد ليس بالقليل ينتمى إلى العنصر البربرى، ومع ذلك كانت الحضارة العربية، فى الريف كما فى المدن، هى السائدة فى كل إسبانيا. ذلك أن الأمراء الذين كانوا ينحدرون من أصول بربرية، ويزهون بثقافتهم، مثل بنى الأفطس فى بطليوس، وبنو زيرى فى غرناطة، كانوا قد تعرّبوا تماما، بل وكانوا يحسون بالخجل من أصولهم الأولى[١٤٤]. وكل إبداع فى الأدب أو الفن كان يصدر عن العرب، ولم يحدث أبدا أن النشاط فى هذا المجال كان ذاتيا أو أصيلا عند البربر، وقد اشتهروا بالهمجية، وإذا كان من الضرورى أن يحتلوا مكانا فى تاريخ الفن فسوف يكون حظهم منه، أنهم نهبوا قرطبة، ودمّروا مدينة الزهراء. والمنشآت المعمارية التى قام بها بعض الأمراء الذين ينتسبون إلى هذا الجنس جاءت دائمًا فى طراز عربى، وطبقا لنماذج الأبنية العربية التى كانت قائمة، ومن المحتمل أيضًا أن الذين أشرفوا على تنفيذها كانوا من الفنانين العرب.

وقد وفد مع الغزو المرابطى لإسبانيا وحُكْمها طمى جديد من سكان موريتانيا، ولكن فى المجال المعمارى الذى أشرنا إليه لم يحدث أى تغيير، لأن الفاتحين الجدد،

---

(١٤٤) دوزى، تاريخ مسلمى اسبانيا، جـ٤ ص٤ و ٣٠.

لم يحضروا معهم، بسبب همجيتهم، أى فن، وكان عليهم عندما يريدون أن يبنوا عمائرهم أن يلجأوا إلى سكان البلد الأصليين، وهؤلاء بالطبيعة ظلوا أوفياء لعاداتهم وأساليبهم القديمة، وهو نفس ما حدث بعد أن فتح الموحدون اسبانيا أيضًا، ولو أن هؤلاء، وبخاصة الأميرين عبد المؤمن ويوسف أظهرا غيرة وحبا خالصين للثقافة العربية، وأصبحا من حماتها، وليس ثمة أدنى إشارة تجعلنا نظن، ونحن مطمئنين، أن العمائر التى أقامها الموحدون أسهم فى بنائها الأفارقة الخشنين، ولم تكن من عمل المهندسين الأندلسيين الممتازين، وأمجاد هؤلاء، والثقة فى فنهم، تشهد لهم بهذا، ويدافع عنهم ما أقاموا من منشآت[١٤٥]. وأبعد من هذا أن نصف بالمغربية العصر الفنى الذى بدأ بقيام مملكة بنى نصر فى غرناطة، وهذه الأسرة المالكة تنتمى إلى قبيلة عربية عريقة، ويذكر مؤسسها ابن الأحمر أن بين أسلافه واحدا من صحابة رسول الله[١٤٦]. وقد جعل أحفاد ابن الأحمر من غرناطة موئلا للثقافة العربية، ورغم أن المدينة لم تكن خالية من الأفارقة لا يمكن أن ننسب إليهم أى دور فى عملية بناء الحمراء، أكثر من مجرد دور عمال عاديين. والمؤرخون المشارقة أنفسهم، يستبعدون قيام الأفارقة بأى جهد فى هذا البناء، ويتحدثون دائمًا

---

(١٤٥) وتصديقا لهذا، أذكر هنا فقرة من المقال الممتاز الذى كتبه رفائيل كونتريراس بعنوان: «عن الفن العربى فى اسبانيا»، ونشر فى مجلة اسبانيا وجاء فيه: «المرابطون والموحدون لم يحضروا معهم عناصر جديدة من موريتانيا تعين على تقدم الفنون، وكانت قد تقدمت كثيرا فى شبه الجزيرة على نحو ما تبرهن عليه هذه الفنون نفسها. كان العرب يملكون روحا أكثر أصالة، وتقاليد أشد نقاء، جاءوا بها من موطنهم القديم. ومن الصعب أن نقبل أنه فى ذلك العصر، وتواكب مع عصر النهضة الأوربى، أو أن شئت مرحلة تجديد الفن العربى فى اسبانيا، أمكنهم أن يدخلوا العناصر الجديدة المذكورة. ويقول ابن سعيد: أن الكور الأندلسية التى انضمت حينئذ إلى الامبراطورية المغربية أرسلت المهندسين المعماريين إلى يوسف ويعقوب المنصور لكى يقوما ببناء عماراتهم فى فاس والرباط والمنصورية. ولم يحدث أن ازدهرت عاصمة المغرب فى أى عصر من العصور كما ازدهرت فى عهد حكم خلفاء عبد المؤمن. ويضيف، ومن المعروف اليوم جيدا أن هذا الازدهار والرخاء انتقل من المغرب إلى تونس، حيث يبنى السلطان القصور، وينشىء الحدائق والكروم، على طريقة الأندلسيين، وكل المهندسين المعماريين والبناءون والبستانيون والنجارون والرسامون وصانعوا الآجر ولدوا فى الأندلس. ورسم القصور من ابتداع الأندلسيين، أو منقولة عن أبنية أندلسية. لم يكن اذن تأثير مغربى، وإنما كان عبقرية عربية فحسب، عبرت عن نفسها فى إسبانيا، وفى عون من التقاليد الفارسية والبيزنطية، واستطاعت أن تبدع أسلوبا متميزا. ومن ثم فإن ما يسمى بالأسلوب المغربى يجب أن نطلق عليه الأسلوب الأندلسى أو الأسلوب العربى الاسبانى، لان الإلهام اسبانى، نابع من ذات وطبيعة أرضنا ومن يسكنون عليها، ويبدو واضحا ولامعا ومرتكزا على قاعدة عربية. (خوان باليرا)

(١٤٦) المقرى، ٢٠٢/١ - دوزى، تاريخ مسلمى اسبانيا، ٢٧٠/١ - ابن خلدون، المقدمة، ٢٩٨/١.

عن بعض القصور التى بنيت فى أفريقيا على طراز الحمراء، ويقولون عنها إنها قصور من طراز أندلسى[١٤٧].

والصفات الذاتية لما يسمى بالطراز المغربى، ونفترض أنه أدخل إلى الأندلس قبيل بدء القرن الثانى عشر الميلادى، تتمثل فى ثراء الزخارف، وفى استخدام القيشانى والمصيص، وفى أشكال العقود الرائعة والمتنوعة، ولم تكن كلها فى شكل حدوة الحصان، وإنما جاءت أيضا حادة أو مفصصة. ومع ذلك فإن زخارف من المصيص تظهر فوق أبواب الجانب الذى بناه المنصور من المسجد الجامع فى قرطبة، واستخدم الجص بقدر هائل فى بناء الزاهرة، ويجب أن نفترض أنه لعب دورا رئيسيا فى زخرفة ذلك القصر. وأخيرا فإن المصيص نفسه، ومثله القيشانى، يوجدان بكثرة زائدة فى الزخارف التى توجد فى المصلى الذى يحمل اليوم اسم بيابثيوسا Capilla de Villaviciosa فى المسجد الجامع فى قرطبة، ويمكن الظن بأنها عملت قريبا من نهاية القرن العاشر الميلادى.

وفيما يتصل بالعقود منها ما هو سنانى أو مفصص، وتوجد بكثرة فى جانب من المسجد الجامع الذى أشرنا إليه، والذى بناه الحكم الثانى. ومن ثم ليس ثمة مبرر للحديث عن تغيير جوهرى فى خصائص المعمار العربى فى القرن الثانى عشر

---

(١٤٧) المقرى، ٨١٤/٢.

● لا يمكن أن ننكر دقة ومناسبة هذه الملاحظات، التى تظهر أن الحمراء والآثار الأخرى من المعمار الاسبانى الاسلامى لا يجب أن نطلق عليها «مغربية»، وحيث يقول الراهب لويس دى ليون متحدثا عن مهندس عظيم إنه «العالم المسلم»، ويريد أن يقول «العالم العربى» دون أدنى شك، ذلك أن المعمار والشعر والثقافة بعامة التى شهدتها اسبانيا خلال الحكم الإسلامى كانت عربية الأصل، وأسسها الجوهرية كذلك، ومثلها الدين الإسلامى. ولكن.. هل من الضرورى أن يكون كل الشعراء والفنانين عربا؟ ولماذا لا يكونون من البربر، وحتى من الاسبان؟. عندما فتح المسلمون اسبانيا لم يأت إليها عدد كبير من العرب أو البربر، ثم تكاثر عدد هؤلاء على نحو ملحوظ مع حكم المرابطين والموحدين. غير أنهم فيما نعتقد لم يبلغوا الملايين عددا، وظلت جمهرة السكان الغالبة من السكان الأصليين. ومن المحتمل أن الذين نبغوا فى الأدب أو الحرب أو أى نشاط آخر كانوا يحاولون اخفاء أصولهم الأولى، ويصنعون لهم أشجار أنساب يردون بها أصولهم إلى عرب اليمن، وأحيانا إلى القبيلة التى ينتسب فيها الرسول، ويجدون من المنافقين، ومن رجال البلاط، من يوثق نسبهم الأسطورى هذا. وثمة شىء خاص ومتميز وذاتى فى الحضارة الاسبانية الإسلامية، ويميزها عن الحضارة الإسلامية بعامة، كان موجودا فعلا، ويمكن أن نرده إلى تأثير الاسبان أنفسهم أكثر مما يمكن أن نرده إلى البربر الدخلاء، وهذا الأسلوب الخاص يمكن أن نطلق عليه اسم: الاسلوب الأندلسى، وليس المغربى. (خوان باليرا)

الميلادى وما تلاه، بل على النقيض يجب التأكيد على أنه بانتصار التأثير البيزنطى ثبتت الملامح الرئيسية لخصائص الفن العربى فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى، ومن الحق أنه فيما بعد، ومع مرور الزمن، كانت هناك تغييرات وتحسينات تتمثل فى لطف العقود وإتقانها وأناقتها، وتميز ذوقها، وفى بعض التعديلات التى أصابت التفاصيل، ولكن هذه التغييرات والتحسينات كانت فى نطاق طبيعة الأشياء نفسها.

ومع ذلك لا شىء يمنع الذين يتحدثون عن مراحل مختلفة لأسلوب المعمار العربى، ولكن من المؤكد أنه ليس بوسعنا أن نتتبع ونحن واثقين تاريخ هذه التغييرات، على الأقل فى تفاصيلها، ولم يبق لنا من الفن العربى فى إسبانيا غير ثلاثة آثار هامة، وصل بناؤها سليما فى جملته، وليس لدينا أدنى شك عن العصر الذى أقيمت فيه، وهى : مسجد من المرحلة الأولى، ومنبر من المرحلة الثانية، وقصر من المرحلة الثالثة.

● **المسجد الجامع فى إشبيلية ومنارته :**

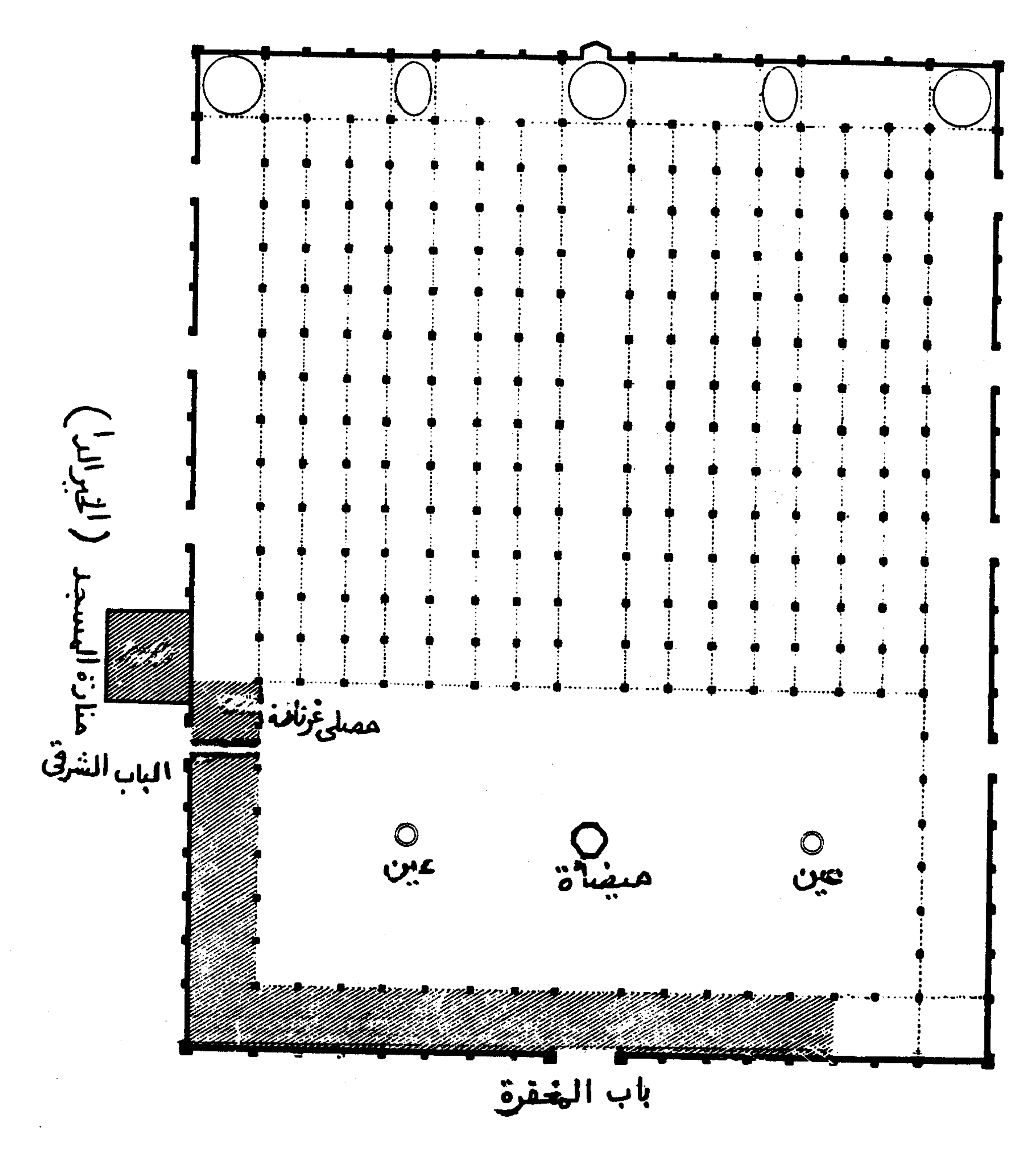
أوضح عمل معمارى تم فى القرن الثانى عشر الميلادى، ولدينا أخبار عنه، بناء المسجد الجامع بمئذنته السامقة فى إشبيلية، بأمر من **يعقوب المنصور**، أمير الموحدين، ويذكر لنا مؤرخ عربى أنه : «فى عام ٥٩٣ هـ (١١٩٦ م) عاد أمير المؤمنين إلى إشبيلية، وأتم بناء المسجد الجامع والمنارة، وكان قد بدىء فى بنائه فعلا قبل ذلك بثلاثة أعوام، وقد زينوا أعلى المنارة بكور جميلة فى شكل تفاحات، وعن ضخامة هذه الكور يمكن القول إنها من الحجم المتوسط، ولم يتسع الباب الذى يدخل المؤذن منه لإدخالها، فتم توسيع أسفله بانتزاع بعض أحجاره، وكان الفنان **أبو الليث الصقلى** هو الذى صنع هذه الكور، ورفعها، وأشرف على وضعها فى مكانها، وكلّف تذهيبها مئة ألف دينار ذهبى[١٤٨]. ولهذا يتحدث المقرى عن المنارة

---

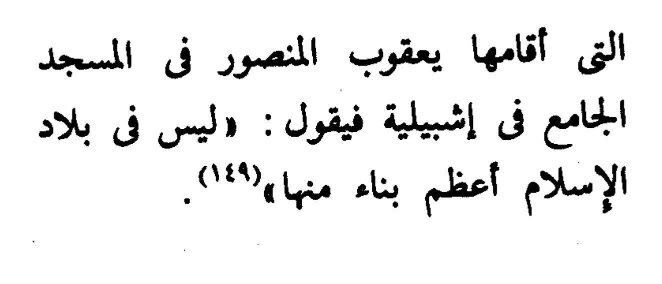
(١٤٨) القرطاس جـ١ ص١٥١.

● لم يتيسر لى الحصول على نسخة من كتاب القرطاس فى أية مكتبة فى القاهرة لأنقل النص منه، فقمت بترجمته.

(المترجم)



رسم تخطيطي لمسجد إشبيلية الجامع كما بناه الموحدون من خلال الوثائق التى وصلتنا (الأجزاء المظللة هى الوحيدة التى بقيت من المسجد بعد أن حوله الإسبان إلى كتدرائية)



التى أقامها يعقوب المنصور فى المسجد الجامع فى إشبيلية فيقول: «ليس فى بلاد الإسلام أعظم بناء منها»[١٤٩].



مئذنة جامع إشبيلية (الخيرالدا)

وتصف مدونة الملك فرناندو المقدس Cronica del Santo Rey Fernando المنارة كما وجدها الغزاة المسيحيون حين استولوا على مدينة إشبيلية فتقول: «المنارة بالغة الدقة، رائعة الفن فى نقوشها، عرضها ستون ذراعا، وارتفاعها مئتان وأربعون، ولها ميزة أخرى عظيمة، هى أن سُلّم الصعود إلى أعلاها عريض جدا، عظيم المالج، رائع التناسق، ويستطيع جميع الملوك والملكات، وعلية القوم، الذين يودون الصعود إليها، أن يبلغوا قمتها على ظهور الخيل أو البغال مرتاحين، وفى أعلى المنارة يوجد برج ارتفاعه ثمانية أذرع، رائع الفن أيضا، وفى أعلاه أربع تفاحات، واحدة فوق الأخرى، كبيرات الحجم، بديعات الصنع، رائعات الجمال، ولا أعتقد أن هناك ما يشبهها فى أى مكان آخر من العالم، والتى فى أعلاهن أصغرهن جميعا، والثانية أكبر، والثالثة كبيرة جدا، أما الرابعة فلا يمكن الحديث عن ضخامتها وإبداعها. إنها شىء لا يصدقه عقل من لا يراه، ولقد صنعت بفن بالغ الرقة والدقة والجمال. ولها اثنتا عشرة قناة، عرض كل واحدة منها خمسة أشبار، وعندما حملوها إلى المدينة لم يتسع الباب

---

(١٤٩) المقرى، ١٢٨/١ وطبعة احسان عباس ٢٠٨/١.

لدخولها، وكان من الضرورى نزع الأبواب، وتوسيع المدخل لوضعها. وعندما تسقط الشمس على هذه التفاحات يزداد لمعانها، ويشتد بريقها، حتى لترى من بعيد جدا، كما لو كانت شموسا ساطعة(١٥٠).

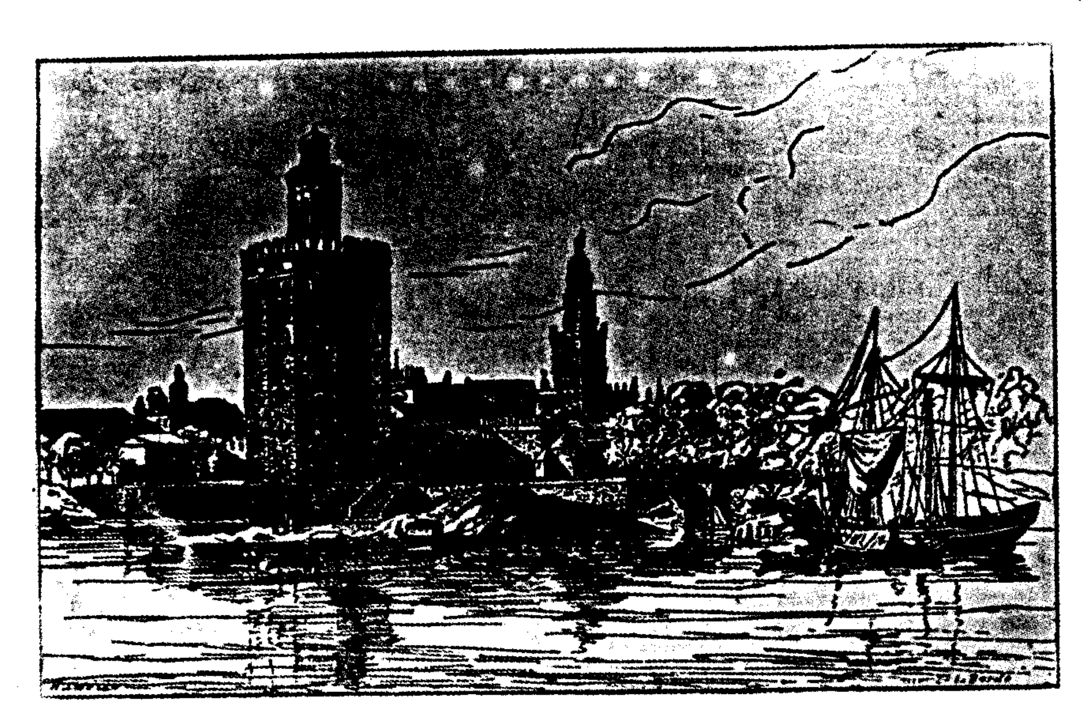
وقد بقيت المنارة حتى اليوم، وهى تحمل الآن اسم الخيرالدا Giralda الشهيرة، وهى برج رباعى الشكل، فقدت كراته زخارفهاالأولى، وتعرض لشىء من التشويه، فعمل له تاج جديد، والجزء الأسفل منه بنى من الحجر، والجزء الأوسط من الآجر، والأعلى من الطابية، وتناثرت فى جانبه الخارجى، لزخرفته، نوافذ كثيرة أنيقة، تتوسطها سارية، وعقودها متنوعة ومفصصة، وتقوم على أعمدة صغيرة من الرخام، وبينها آجر جميل، أو قيشانى لامع، يكوّن فى الجدار سقفا غنيا بالزخارف، متنوعة الأشكال ودقيقة الصنع.

ووصف منارة المسجد الجامع فى قرطبة، والتى بناها عبد الرحمن الناصر، وكانت مربعة أيضا، ولها نوافذ كثيرة ذات عقود، وتنهض على أعمدة من اليشب Jaspe، ولا تنقصها الكرات فى أعلاها(١٥١) يومئ إلى أنها كانت تشبه الخيرالدا كثيرا، وتجعلنا نستنتج أن الخيرالدا فى جزئها الأسفل والأصلى تقدم لنا الشكل الدقيق للمنار الذى كان يستخدم فى إسبانيا منذ البدء.

وعقود النوافذ ذوات السوارى فى وسطها، كما هى فى منارة إشبيلية، ترتفع قليلا عند التقائها فى السطح، حين تصبح نقطة، وهى طريقة سوف تظهر بكثرة فيما بعد، ولكنها لم تكن نادرة فى العصور السابقة، على نحو ما نلحظ فى جوانب باب شاقرة Visagra القديم والمهم فى طليطلة وهذه العقود المدببة استخدمت فى القرن التاسع الميلادى فى مسجد أحمد بن طولون فى القاهرة، ومنذ ذلك الوقت، اذا لم يكن قبل هذا، أصبحت فيما يبدو إحدى خصائص الفن الإسلامى ، وكان العرب يضعون كثيرا من العقود لمجرد الزخرفة، ويصنعونها من عجينة من المصيص، ويضعونها بين الأعمدة الرأسية أو قوائم الأبواب، ولابد أن الرغبة فى

(١٥٠) مدونة الملك فرناندو المقدس، سلمنقة، ١٥٤٠م، الفصل ١٢٣.

(١٥١) أنظر : الادريسى، ٦٢/٢. ومورالس، آثار اسبانيا، قرطبة، ص ٥٤، وهذا المؤلف الأخير شهد منارة المسجد الجامع القديمة، والتى انهارت عام ١٥٩٣، وهم يقومون فيها ببعض الترميمات.



البرج الذهبى فى إشبيلية

إعطاء العقود أشكالا متعددة ومتنوعة قد انبثقت سريعا، وفى سهولة، وسيكون غريبا بالتأكيد أنه لم يحدث تغيير، أو تنويع، فى الشكل المستدير مع العقود المدببة. ومع ذلك لم يحدث أبدا أن استخدم أى شعب مسلم العقد المدبب كجزء جوهرى من نظام معمارى، ولو أن التطبيق الكثير له أكد أهميته فى الفن المعمارى، وسوف نقع فى الخطأ إذا تركنا الظاهر يحملنا إلى أن نعطى ظهوره بين العرب معنى مهما، وأن نربط بين هذا وبين الأصل القوطى لهذا الطراز.

أمّا المسجد الجامع فى إشبيلية، وما زالت منه بعض البقايا فى الجزء الأسفل من جدران الكتدرائية، واستخدم مكانا للعبادة المسيحية حتى القرن الخامس عشر، وكان مكللا من خارجه بشرفات فاخرة، ومغطاة فى داخلها بلوحات بيضاء، وسقفها مزخرف بفن، ويقوم، كما فى مسجد قرطبة، على أعمدة قديمة من الرخام، ويمكن أن نستخلص منها أيضا أن البناء أقيم فى الأيام الأولى من الفتح الإسلامى وأن ماقام به يعقوب المنصور كان ترميما وإعادة بناء[١٥٢].

(١٥٢) أورتيث اى ثونييجا، حوليات إشبيلية، مدريد عام ١٦٧٧، ص ٢١.

● آثار أخرى :

وفى كثير من الأمكنة المتناثرة عبر شبه الجزيرة الإيبرية توجد حتى اليوم أبنية، أو أطلال أبنية، تعكس فى تكوينها أو زخرفتها دور اليد العربية أو تأثير العرب، ولكن ما أقل ما نعثر على معلومات مؤكدة يمكن أن تعين على التنبؤ بالعصر الذى بنيت فيه. وحتى فى المقاطعات التى أخذها المسيحيون من المسلمين فى زمن مبكر احتفظت، ولزمن طويل، بطريقة العرب القديمة فى المعمار. ولم يكن الموريسكيون وحدهم هم الذين يبنون بيوتهم ويزينونها على طريقة آبائهم، وإنما كان يسعد المسيحيون أيضًا أن ينعموا بالحياة فى مثل هذه البيوت، فهم يبنون بيوتهم طبقا للذوق والتخطيط العربى. وحتى القرن السادس عشر الميلادى كان ترف القصور العربية المصقولة شائعا بين الأسبان، ويسرق حواسهم. وقد أثنى عليها ومدحها الراهب الزاهد لويس دى ليون Luis de Léon[١٥٣]، وأحس بالسعادة عندما وجد نفسه يقاوم كل إغراء الدنيا حوله :

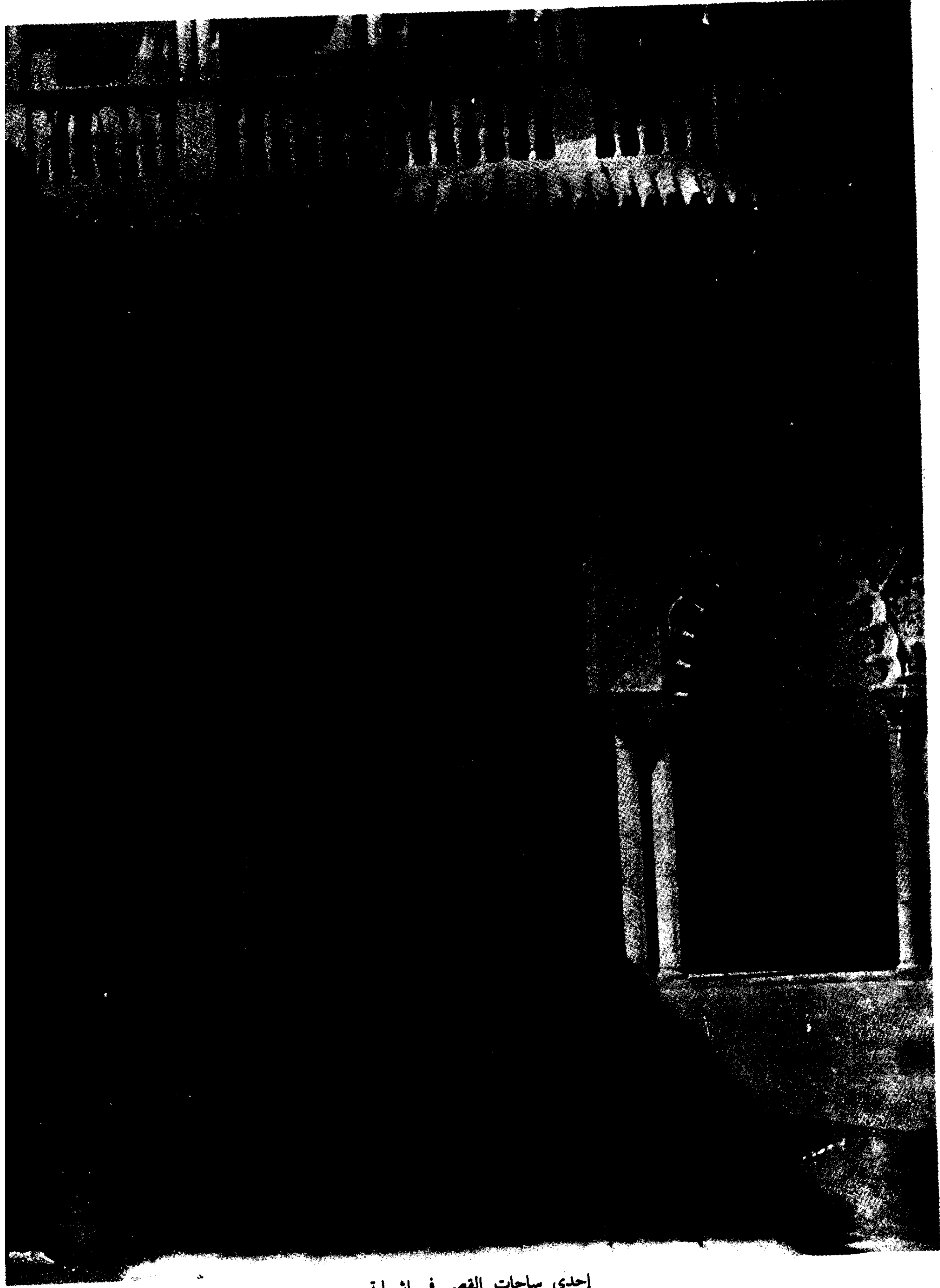
ولا السقف المذهب قائمًا على يشب،
وابتدعته يد العالم المسلم،
يثير انتباهى، أو يشد إعجابى!

ويصعب علينا غالبا أن نميز بين الأعمال التى أقيمت خلال الحكم الإسلامى، وتلك التى تمت بعد استيلاء المسيحيين على الأندلس، وحتى النقوش التى تتخذ مادتها من الآيات القرآنية لا يمكن أن تبرهن على شىء أكثر من أن الذين قاموا بها من الموريسكيين، حين كان يتاح لهم أن يمارسوا طقوسهم الدينية، فى حرية، وأن يستخدموا لغتهم القومية علانية، فهم يزينون دائما جدران بيوتهم بالآيات القرآنية.

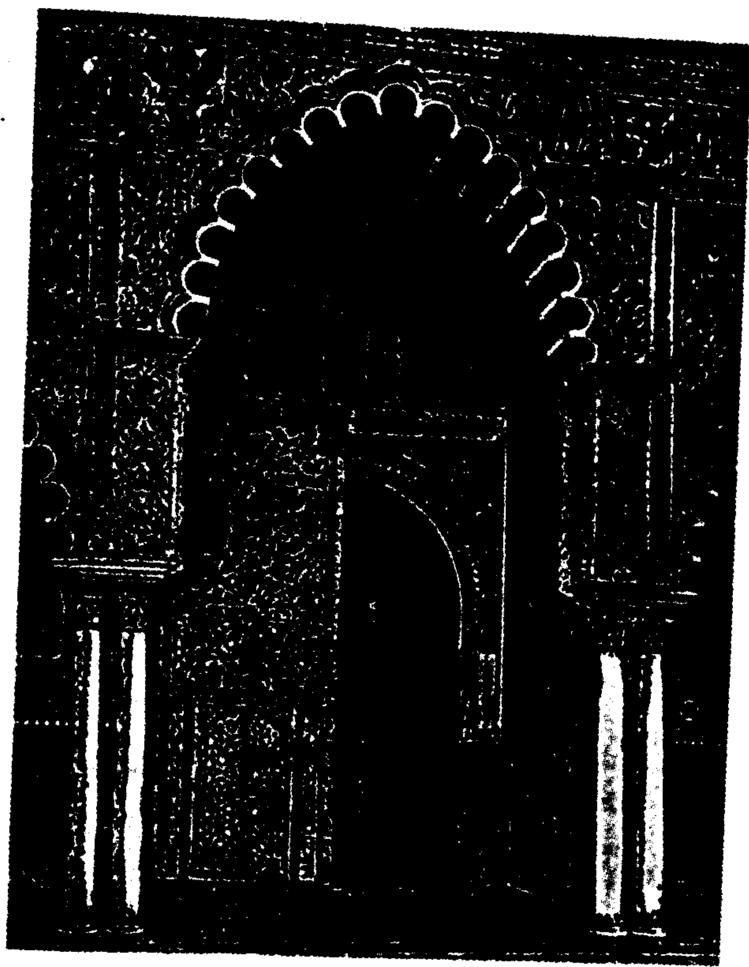
---

(١٥٣) كاتب وشاعر وزاهد اسبانى (١٥٣٧ - ١٥٩١)، وقدم الى محكمة التفتيش بتهمة أنه ترجم سفر «نشيد الانشاد» الى اللغة العامية الاسبانية، وظل فى السجن خمسة أعوام، وخلف عددا من دواوين الشعر والكتب، ومن بينها : «أسماء المسيح» وغيرها.

(المترجم)



إحدى ساحات القصر فى إشبيلية



باب الحريم فى قصر إشبيلية

ويصبح التمييز أشد صعوبة حين تقوم أبنية جديدة على أرض أخرى قديمة، وتستخدم تلك انقاض هذه . وإلى مثل هذه الحالة يمكن أن نرد وضع القصر Alcazar فى إشبيلية، وهو فى حالته الحاضرة متاهة من الساحات والقاعات، والممرات والغرفات، وتخطيطه بعامة، والجانب الأكبر من زخارفه وتفاصيله، يعكس ذوق العرب وطريقتهم. ويقول النقش الذى على الباب الرئيسى : إن الملك بدرو بنى ذلك القصر ولكن من الواضح أن العمل ليس جديدا كله وكلية بأية حال، وإنما مجرد ترميم لكثير من الأجزاء القديمة مع إضافة أجزاء أخرى(١٥٤) .

---

(١٥٤) طبقا لأورتيث دى ثونييجا قام الملك بدرو بإنشاء مسكن جديد فى قصر إشبيلية، وهدم جانبا من القصر القديم. انظر: حوليات إشبيلية، مدريد ١٦٧٧، ص٢١٠.

وفيما يبدو كان للأمويين قصر فى إشبيلية[١٥٥]، وسبق أن تحدثنا أيضا عن قصور بنى عباد المختلفة. وأخيرا يذكرون أن أمير الموحدين يعقوب المنصور «أمر أن يبنى له على النهر الأعظم، نهر إشبيلية، حصن. وأن تبنى له فى ذلك الحصن قصور وقباب، جاريا فى ذلك على عادته من حب البناء، وإيثار التشييد، فإنه كان مهتما بالبناء»[١٥٦]. ولكن لا يمكن القول باطمئنان أن أيا من هذه المبانى كان فى موضع القصر الحالى، وبعد أن استولى الملك سان فرناندو على إشبيلية اتخذ من القصر مقرا له[١٥٧]. وليس موضع شك فيما يبدو أن هذا القصر نفسه قام الملك بدرو بترميمه وتجديده.

● فى مدينة طليطلة :

ومدينة طليطلة أيضا غنية ببقايا الآثار العربية[١٥٨]، وخير ما حافظت عليها منها، مثل باب الشمس الجميل، وبيعة اليهود القديمة التى أصبحت كنيسة سانتا مارية لابلانكا Santa Maria la Blanca يسمح لنا أن نقول فى ثقة إنها تعود إلى العهود التى سبقت حرب الاسترداد[١٥٩]. وفى القرن الثامن الميلادى كان يقوم

---

(١٥٥) دوزى، تاريخ مسلمى اسبانيا، ٢٤٧/٢.

(١٥٦) عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص ٢١٢ طبعة أوربا (ص ٢٩٢ طبعة سعيد العريان الأولى)، وقصر الموحدين كان قائما على ضفاف النهر، ولكن بناء القصر الحالى يوجد على مسافة منه، ويظن أن الحدائق المحيطة به، والمبانى الملحقة، يمكن أن تمتد حتى تبلغ النهر.

(١٥٧) مدونة الملك فرناندو المقدس، سلمنقة، ١٥٤٠م، الفصل ٧٠.

(١٥٨) من الواضح أن شاك وهو يتحدث عن المعمار العربى إجمالا، لا يمكنه أن يتوقف ليصف ظروف كل الأبنية التى من هذا الطراز فى إسبانيا، وبخاصة عند مالا تكون من عصر الحكم الإسلامى على نحو مؤكد، وإنما تعود الى ما بعد حرب الاسترداد. أى بناها مسلمون كانوا تحت الحكم المسيحى، ومعمارهم له خصائصه المميزة، وأخذ اسما خاصا به وهو «فن المدجنين»، ومنه كل الابنية التى أقيمت فى طليطلة من هذا الطراز، حبا فى الذوق العربى، ولا تزال قائمة حتى اليوم. ومنه مثلا : كنيسة سانتا مارية لابلانكا، وكانت قديما صومعة لليهود، أو ترانسيتو، أو سان بنيتو، وكان صومعة يهودية أخرى، أقامها صمويل ليفى الشهير، المستشار القانونى للملك بدرو، وبيت المائدة، وسان رومان، وقصر دون لذريق، وأبنية أخرى من بينها باب الشمس، وباب شاقرة، وهذان الأخيران يعودان الى العهد الإسلامى، وكل ما وصفه فى براعة وعلم أمادور دى لوس ريوس، فى كتابه «طليطلة الحالمة»، وعليه نحيل القارئ.

(خوان باليرا)

(١٥٩) يتفق السنيور أمادور مع شاك، فى أنه لا يكاد يوجد أثر واحد فى طليطلة، باستثناء كريستو دى لالوث، نجرؤ على نسبته الى العهد الاسلامى ونحن مطمئنين على الرغم من النقوش العربية الكثيرة التى تضم أيات =

حصن منيع فى المكان الذى يوجد فيه القصر اليوم[١٦٠]، ويتحدثون أيضا، بمناسبة استيلاء المسيحيين على طليطلة، عن حصن كان يسيطر على المدينة من كل جوانبها[١٦١]. ونلحظ بالكاد جانبا من الجدران العربية بين أنقاض قصر كارلوس الخامس المتناثرة، وبالطريقة نفسها اختفى حوضا النافورتين الرائعان، «وصنعهما أبو القاسم عبد الرحمن الزرقالى، لما سمع بخبر الطلسم الذى بمدينة أرين من أرض الهند، وقد ذكره المسعودى وأنه يدور بأصبعه من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فصنع هو هاتين البليتين خارج طليطلة، فى بيت مجوف، فى جوف النهر الأعظم، فى الموضع المعروف بباب الدباغين، ومن عجبهما أنهما تمتلئان وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه، وذلك أن أول انهلال الهلال يخرج فيهما يسير ماء، فإذا أصبح كان فيهما ربع سبعهما من الماء، فاذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع، ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل من الشهر سبعة أيام وسبع ليال، فيكون فيهما نصفهما. ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع فى اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر، فاذا كان فى ليلة خمسة عشر وأخذ القمر فى النقصان نقصتا بنقصان القمر، كل يوم وليلة نصف سبع، حتى يتم القمر واحدا وعشرين يوما، فينقص منهما نصفهما، ولا يزال كذلك ينقص فى كل يوم وليلة نصف سبع، فاذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شئ من الماء، واذا تكلف أحد حين تنقصان أن يملأهما، وجلب لهما الماء، ابتلعتا ذلك من حينهما، حتى لا يبقى فيهما الا ما كان فيهما فى تلك الساعة، وكذا لو تكلف عند امتلائهما إفراغهما، ولم يبق فيهما شيئا، ثم رفع يده عنهما، خرج فيهما من الماء ما يملؤهما فى الحين».

«وهما أعجب من طلسم الهند، لأن ذلك فى نقطة الاعتدال حيث لا يزيد الليل على النهار، وأما هاتان فليستا فى مكان الاعتدال، ولم تزالا فى بيت واحد حتى

= من القرآن الكريم، وكان المسلمون الطيبون يزينون بها البيوت، رغم أنهم كانوا يبنونها بأمر ولحساب المسيحيين. (خوان باليرا)

(١٦٠) ابن القوطية، فى المجلة الاسيوية، ١٨٥٣، ١/٤٦٣.

(١٦١) دوزى، أبحاث، ١٩٣.

ملك النصارى - دمرهم الله - طليطلة، فأراد ألفنش «ألفونسو» أن يعلم أمر حركاتهما، فأمر أن تقلع الواحدة منهما، لينظر من أين يأتى اليها الماء، وكيف الحركة فيهما، فقلعت، فبطلت حركتهما، وذلك سنة ٥٢٨ هـ (= ١١٣٤م). وقيل أن سبب فسادهما حنين بن ربوة اليهودى المنجم، الذى جلب حمام الأندلس كلها الى طليطلة فى يوم واحد، وذلك سنة ٥٢٧ هـ، وهو الذى أعلم ألفنش أن حفيده سيدخل قرطبة ويملكها، فأراد أن يكشف حركة البليتين، فقال له : أيها الملك، أنا أقلعهما وأردهما أحسن مما كانتا، وذلك أنى أجعلهما تمتلئان بالنهار، وتحسران فى الليل، فلما قلعت لم يقدر على ردها. وقيل : إنه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت. ولم تزل الأخرى تعطى حركتها، والله أعلم بحقيقة الحال»[١٦٢].

والأنقاض التى بجوار نهر تاجه، وتحمل اسم قصور غليانة Galiana ذات أهمية كبرى، لارتباطها بالروايات الرومانسية فى تقاليدها وزخارفها وعقودها المفصصة[١٦٣].

● آثار مدن أخرى :

وعبثا نبحث اليوم عن شىء من بقايا القصر أو دار الصناعة، أو الأبراج، أو المساجد، أو السور الأعظم، أو مخازن العدد الوافرة والأقوات والمرافق العامة، التى كانت فى جبل طارق، وكلها مبان ظلت حتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى تملأ قلوب المؤمنين بالإعجاب، ونفوسهم بالزهو، عندما يزورون معقل الاسلام[١٦٤]. وفى قصور شقوبية Segovia وشنترة Cintra ظلت بعض بقايا

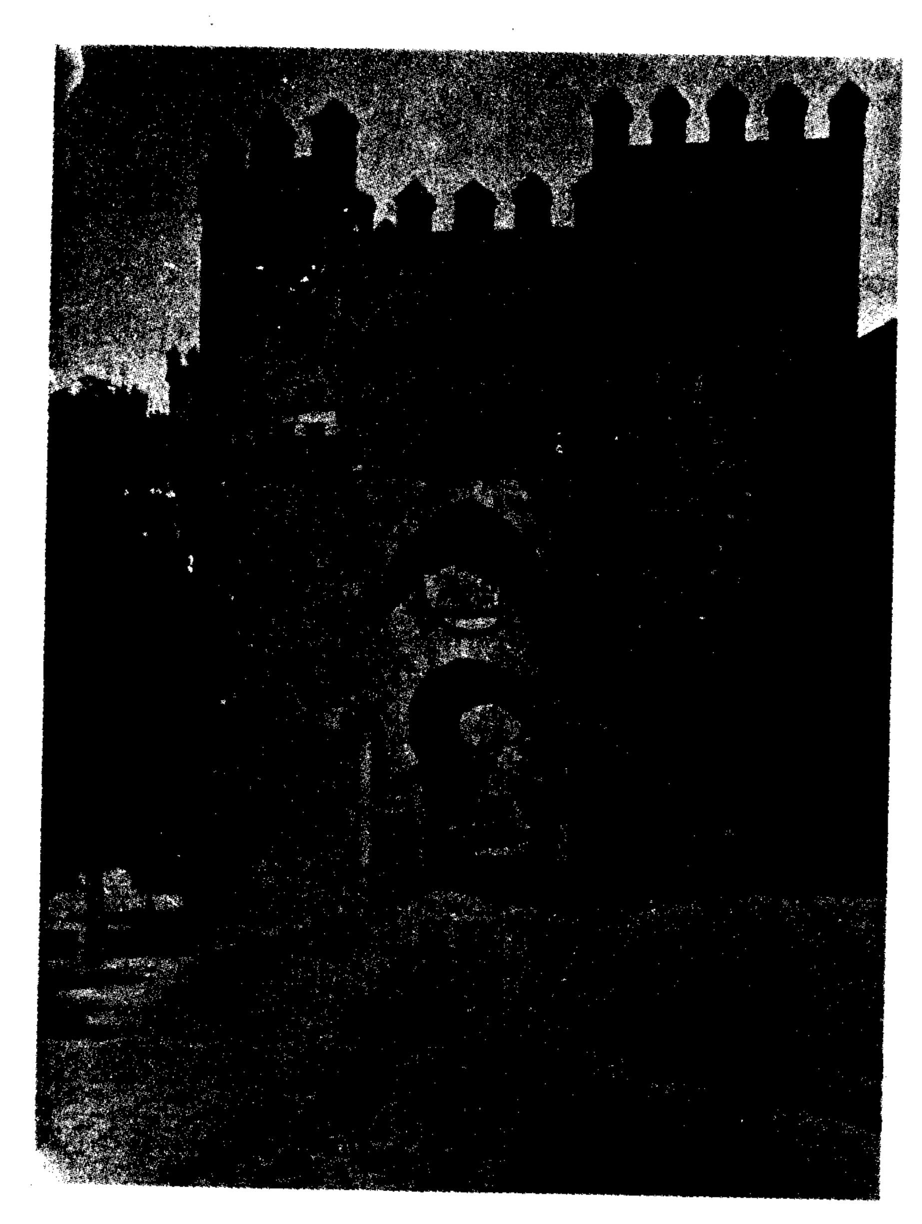
(١٦٢) المقرى، نفح الطيب ١/١٢٧ و ١/٢٠٦ احسان عباس.

● أوجز المؤلف النص كثيرا، وجرده من الأعلام التى وردت فيه، وأتيت به كاملا، رغم أن بعض التفاصيل تفوح منها رائحة الأسطورة، ولكن القضية هامة جدا لدراسة علمى الهندسة والرياضيات عند العرب بعامة، وفى الأندلس بخاصة، ويلاحظ أن ما أوردناه فى النص بين خاصرتين، أتى به خوان باليرا فى الهامش، نقلا عن السنيور أمادور، وهذا أخذه بدوره من المستشرق جيانجوس من ترجمته الانجليزية للقسم الأول من نفح الطيب.

(المترجم)

(١٦٣) قصور غالية، أو غليانة، ارتبطت بها قصص رومانسية كثيرة، أشار خوان باليرا إلى لون منها فى الهامش، وآثرت أن آتى بها مفصلة فى ملاحق الكتاب، أنظر الملحق رقم ٤. (المترجم)

(١٦٤) ابن بطوطة، ٤/٣٥٥.



باب الشمس فى طليطلة

معمارها العربى القديم، وبوسع قلعة وادى آره Guadairo، قريبا من إشبيلية أن تفخر بحصنها العربى، ولما يزل قائما سليما حتى اليوم.

● **الفن العربى فى مالقة :**

وتجىء مالقة القوية والحصينة من بين اكثر المدن أهمية وتميزا فى أيام الاسلام الأخيرة فى إسبانيا، وكانت الميناء الرئيسى لمملكة غرناطة، ويتحدث عنها الكتاب المسيحيون الذين زاروها خلال الحكم الإسلامى، أو بعد استيلاء المسيحيين عليها مباشرة، وقد أخذوا إعجابا بمبانيها وقلاعها، وسحر ضواحيها، وكان يحيط بالمدينة سور تتخلله أبراج قوية، يزين جدرانها شرفات عديدة. وتوجد القصبة خارج المدينة، تحت سفح الجبل، وكانت حصنا منيعا يحيط به سور مزدوج الجدران عليه اثنان وثلاثون برجا عملاقا، وأعلى منها، فى قمة الجبل، كان حصن جبل فارو Gibralfaro، وهو أمنع حصونها. وفى الجزء المؤدى إلى المدينة كانت توجد قلعة قوية، لها ستة أبراج عالية، ويطلقون عليه حصن الجنويين، وفضلا عن ذلك، كانت توجد، قريبا من الشاطىء دار الصناعة، وهى بناء ضخم ذو أبراج أيضا، ويقول هرناندو دل بولجار Hernando del Pulgar «وكثير من الأبراج والعمارات الكبيرة، بنيت فى الدروب ، وهذه القلاع الأربعة يبدو أنها من عمل رجال عظام، وقد بنيت قديما، وفى عصور مختلفة ، لحماية القاطنين بها، والى جانب الجمال الذى يضفيه عليها البحر والأبنية، تعرض للعين فى صورة بالغة الجمال، بالنخيل، وأشجار الحور، والبرتقال وأشجار أخرى كثيرة، والحدائق العديدة المنتشرة داخل المدينة وفى ضواحيها، وفى كل الوديان التى حولها»[١٦٥].

وما احتفظت به مالقة من العصر العربى حتى يومنا ينحصر فى دار الصناعة، ويوجد فى جانبها الجنوبى عقد أنيق حدوى الشكل، ونقش عليه : «لا غالب إلا الله»، وأطلال القصبة، وجبل فارو، وبرج كنيسة شنت ياقو، وكانت مسجدا. أما مسجدها الجامع واشتهر بجمال صحنه، وكان مليئا بأشجار البرتقال

---

(١٦٥) هرناندو دل بولجار، مدونة الملكين الكاثوليكيين، الفصل ٧٥، وانظر أيضا مدونة دون بدرو نينو، مدريد ١٧٨٢، ص ٥٣.

البالغة الطول[١٦٦] فلم يبق منه أى شىء، كما يلاحظ عند زيارة الكتدرائية، والتى تحتل اليوم نفس مكانه.

وفى رندة بقايا هامة لحصن أقيم على قمة صخرة وعرة المنحدر، وربما كان نفس الحصن الذى دافع عنه أبناء المعتمد فى شجاعة منقطعة النظير، حين كانوا لا يزالون فى رندة، «تلك المدينة الجبلية الجليلة، تجللها السحب، وتحملها الرعود»[١٦٧].

وقد احتفظ العديد من مدن إسبانيا ببعض منارات المساجد التى تحولت إلى أبراج لنواقيس الكنائس، كما فى برج كنيسة سنتا مارية فى قرمونة، وسنتا كتالينا، وسان ماركوس فى إشبيلية، وفى كنيسة سان سلفادور توجد لوحة من الحجر مثبتة فى جدران البرج الداخلى، وعليها نقش يقول: جدد المعتمد بناءه فى عام ٤٧٢ هـ، وقد هدم زلزال الجزء الأعلى من ذلك المنار. وفى كنيستى سان أندريس، وسان لورنثو، وتوجدان فى المدينة نفسها أيضا، يبدو أن الأبنية الصغيرة، فى كل منهما، التى عليها قبة، هى بقايا محراب لمسجد هدم، وأقيمتا عليه. وأخيرا فإن كنيسة سان خوان دى لا بالما فى إشبيلية كانت مسجدا فى القديم، وأن إحدى زوجات المعتمد شيدت منارها، كما نفهم من نقش بالخط الكوفى يوجد فى الجدار الخارجى[١٦٨]. وفضلا عن هذه الذكريات التى تعود إلى الأيام الرائعة والمزدهرة التى قضتها المدينة تحت حكم بنى عباد، فإن هذه الكنيسة تثير ذكريات أخرى حزينة، ارتبطت بذكرى أيام محاكم التفتيش المرعبة، وتحكى الأسطورة أن جثة مدفونة فى هذه الكنيسة نهضت من قبرها لتتهم يهوديا غنيا بأنها سمعته ينكر طهارة مريم العذراء فى حملها، فأصدرت المحكمة أمرا باعتقاله، ومصادرة أمواله، وحكمت عليه بالإعدام حرقا!

---

(١٦٦) ابن بطوطة، ٣٦٧/٤.

(١٦٧) أبو الفدا، جغرافية، ص١٦٦ - تعد رندة من حيث الموقع مدينة فريدة فى العالم، انها مدينة لا يمكن لمن رآها مرة أن ينساها، ويصفها الكتاب العرب فى أعجاب وحب، ويدعوها ابن خاقان: «أحد معاقل الأندلس الممتنعة، وقواعدها السامية المرتفعة، تطرد منها على بعد مرتقاها، ودنو النجم من ذراها، عيون لانصبابها دوى كالرعد القاصف، والرياح العواصف، ثم يتكون واد يلتوى بجانبها التواء الشجاع، ويزيدها فى التوعر والامتناع، يتعذر فيها مطلب، ولا يتسور بها عدو إلا علقه ناب أو مخلب» أنظر: دوزى - بنو عباد، ٥٥/١.

(١٦٨) مذكرة تاريخية اسبانية، المجلد ٢، مدريد ١٨٥١، ص٣٩٤ و ٣٩٦.

- ١٦ -

المعمار العربى فى صقلية

انتهى الحكم العربى فى صقلية قبل أن يخرج العرب من إسبانيا بأربع مئة عام، وقد كانت هذه الجزيرة ميدانا واسعًا لمعارك متواصلة بين الشعوب القديمة، فالتقى على أرضها يتقاتلون أهالى سرقوسة، وأثينا، وقرطاجنة، والإغريق، والرومان والقبائل المتبربرة Los Barbaros وأصبحت فى العصور التالية ساحة لحروب مدمرة بين النورمانديين، والألمان، والأرجونيين، والفرنسيين. ورغم أن بقايا هامة من الفن الإغريقى، ذى الطراز الدوريدى[١]، أفلتت من تلك العواصف الأولى، مثل معابد مدينتى أجرجنت Agrégent، وسجست Segeste ومسارح سرقسوسة وتورمينا، فإن المبانى العربية، وهى أحدث من ذلك كله بأكثر من ألف عام، اختفت كلها تقريبا، ولم تخلّف وراءها أى أثر، وكل ما نملكه عنها أخبار قليلة وغائمة، ولكنها كافية لكى يكون هناك حد أدنى من التفكير فى أنها كانت كثيرة وعظيمة. وكتاب «حياة سان فيلاريت»، وولد فى صقلية (١٠٢٠ - ١٠٧٠م)، وألف أيام حكم المسلمين الجزيرة، أطرى كثيرا من المساجد الإسلامية، وأعجب بعظمة وجمال الأبنية التى كانت فى مدن الجزيرة الرئيسية، غير أنه يضيف إلى ذلك: إن الآثار القديمة تفوقها جميعا[٢]. وطبقا لابن حوقل فإن بالرم فى منتصف القرن العاشر الميلادى كان فيها أكثر من ثلاث مئة مسجد، بينها واحد يتسع لسبعة آلاف شخص[٣]، ويشير قرار اتخذه روجر الثانى فى عام ١٠٩٠م إلى الخرائب المتسعة، والأنقاض الكثيرة، فى مدن المسلمين وقصورهم، وعن أطلال العمارات العديدة التى بنوها بفن رائع، لحياة أنيقة ومترفة[٤]. نعم كانت كبيرة بعد دمار

---

(١) نسبة إلى دوردا Doridaموطن اليونانيين القدامى، ويطلق على المرحلة الثالثة فى تطور أساليب المعمار الإغريقى. (المترجم)

(٢) Acta Santa, Bollandi, I, April, 607

(٣) أمارى، الكتبة العربية الصقلية، ص٦.

(٤) Pirrhi Sicilia Sacra, 1, 695

شامل أحدثته حرب استمرت ثلاث سنوات، حاول فيها المسيحيون أن يستردوا الجزيرة، وعلى الرغم من ذلك يمكن أن نستنتج من مؤلفات الإدريسى، وابن جبير، وهوجو فلكاندو Hugo Falcando والكتاب الثلاثة من العصر النورماندى، وجانب كبير من صقلية لا يزال يحتفظ بطابع الثقافة العربية حتى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى، وقريبا من نهايته. وقد ذكر الأولان فى حديثهما كل المدن والمساجد والحمامات تقريبا، وأبنية أخرى فخيمة، وأطرياها كثيرا.

من الصعب أن نفترض أن كل هذه المنشآت، أو الجانب الأكبر منها، بنى فى الفترة القصيرة التى أعقبت استيلاء المسيحيين على الجزيرة، والصورة التى رسمها فلكاندو لمدينة بالرم تذكرنا بقوة أنها تشبه ما بقى لنا حتى يومنا هذا من غرناطة وإشبيلية، ويشير إلى العرب على أنهم المبدعون الأصليون لتلك المفاتن الشهيرة، يقول:

«من يستطيع أن يطرى بحق، ويصف فى صدق، العمارات المدهشة، فى هذه المدينة الرائعة، جمال أشجارها، وخضرتها الدائمة، وحلاوة نوافيرها، وعيونها الكثيرة، وقنواتها العديدة، تحمل الماء وفيرا لسد حاجات كل سكانها؟. من يستطيع أن يزن بحق مجد فجها الرائع، يمتد إلى أربعة أميال بين أسوار المدينة والجبال؟. يا للوادى السعيد، الجدير بالثناء على امتداد كل العصور، يفيض بكل ألوان الشجر، ويمتلئ بكل أنواع الثمر، ويضم كل خيرات الأرض! إنه ليأسر الأرواح بفتنة منظره، ويستولى على المشاعر بروعة جماله، ويسحر العقول ببهاء طبيعته، ومن يراه مرة لا يستطيع أن يفلت من إساره، أو يهرب إلى مكان آخر لقوة جاذبيته. إنك ترى هناك، بفضل خصوبة الأرض القوية، الكروم تمتد فى نضارة فاجرة، والبساتين فسيحة الأرجاء، غنية بالثمار، متنوعة الفواكه، وأبراجا عالية لحراسة الحدائق، ولإمتاع الحواس حتى تغيب عن الوجود، والنواعير سريعة الدوران، قواديسها تعلو وتهبط بالتناوب، ترفع الماء من العيون، وتملأ القنوات، والأحواض والبرك القريبة منها، وخلالها يتدفق الماء إلى كل الأرجاء. فإذا انتبهنا فيما بعد إلى الثمار المتنوعة، ترمى بها أشجار الفواكه، رأينا الرمان أخفى ثماره الرقيقة بين قشوره الخشنة، حفاظا عليها من رداءة الطقس، والليمون فى حالات

ثلاث مختلفة، يبدو من خلال قشرته ملتهبا، للونها وأريجها، ولبه الريان بعصيره الحامض داخله يفيض طراوة، بينما الجزء الأوسط منه يحتظ بمناخ معتدل، ويستخدم هذا الليمون لتتبيل الأطعمة. وهناك البرتقال، عصيره لذيذ حلو منعش، وشكله جميل فاتن ساحر، كما لو كان قد خلق لتلذ به الأعين، وتسكن إليه الأنفس، وعندما يتم نضجه يسقط وحده لثقله، لأن الأغصان لا تستطيع أن تتحمله، ولأن ثمرا جديدا ينمو مكانه، ومن الضرورى أن يدع الذاهب مكانا للقادم، أى أننا نستطيع أن نرى فى الشجرة الواحدة «الطرحة» الأولى فى ألوانها الزاهية، على حين أن الثانية لما تزل خضراء قانية، وزهور الثالثة تنبىء بأنها فى الطريق. وهذه الشجرة تفيض دائما بالجمال والنضارة، لا تعرف الشيخوخة تأتيها مع الشتاء، وتعوقها عن الإثمار، ولا الثلوج تسرق منها أوراقها، فهى مخضرة دائما، وتعكس فى أعيننا روعة الربيع وفتنته. وماذ أقول عن الجوز واللوز، وعن التين فى أنواعه المختلفة، وعن الزيتون وزيته وبه يطهون الطعام، ويشعلون القناديل؟ وماذا أقول عن أشجار الخروب العالية المعمرة، وفاكهتها الخسيسة تتملق فى تفاهة حلوة مذاق الريفيين والصبيان؟ ولكن أكثر من هذا: توقفت أتأمل رءوس النخيل السامقة، والبلح يتدلى من الشماريخ تنبثق من أعماق قمتها. فإذا هبطت بنظرك اكتشفت على بعد حقولا مديدة، زرعت قصبا رائعا، يطلق عليه السكان هنا اسم قصب السكر، لحلاوة ما بداخله من عصير، ومن نافلة القول، فيما يبدو، أن أشير إلى الفواكه الشائعة بيننا، والتى توجد هناك أيضا»(٥).

إذا تصورنا هذه الجنة الزاهرة، تتوجها القصور والحصون وقباب المساجد، والمآذن السامقة الأنيقة، وكلها تسبح فى بحر من الخضرة، والبيوت الريفية بأحواضها ونوافيرها الموشوشة، مندسة بين أيك البرتقال، أو غابات الريحان، ثم نظرنا إلى البحر أزرق عميقا، من القمم العالية، صعبة المنحدر، يغطيها نبات السيزال والصبر والصبار، أصبح لدينا فكرة عن جزيرة صقلية على أيام العرب، وحتى فى عصر النورمانديين بعدهم. وسرعان ما سحرت هذه الأرض الجنوبية بجمالها هؤلاء الأخيرين، فاتخذوا منها مقرا لهم، وأقاموا فيها بيوتا ثابتة، وانتزعوا

---

(٥) Hugonis Kalcandi, Hist. en Los Redum Sicularum scriptores, Francofurti, 1579, pag. 640

أنفسهم من حميا الهمجية، وطالما دفعتهم إلى تخريب عمارات جميلة، وبدأوا يرممون أو يعيدون بناء القصور المدمرة، وإقامة أخرى جديدة. وفى ايطاليا نفسها، وبخاصة فى شواطى الجنوب، وكانت على صلة مستمرة وتجارة لا تتوقف مع صقلية، استراح الناس إلى المبانى العربية، وأخذوا يقلدونها، وهكذا نرى - مثلا - حتى اليوم فى مدينة رفلو Ravello الصغيرة، قريبا من أملفى Amalfi، وهى مدينة كانت قوية فى عصور أخرى، كثيرا من القصور المهدمة، ذات طابع شرقى كامل.

وليس ثمة شك فى أن المعماريين العرب هم الذين بنوا للنورمانديين تلك القصور المعدة للتمتع، على أرقى مستوى، بكل لذاذات الحياة الحسية، الأصفى أناقة. ولم يكن لديهم أى سبب يدفعهم لكى يبتعدوا عن الطراز القديم المعروف، أو تعديله، لأن الذين يقومون بالعمل، تطبعوا بالتقاليد والعادات الشرقية. ومن ثم تابعوا فى رسم وتخطيط العمارات الجديدة، وفى التفاصيل والزخارف، المثل والنموذج الذى كانت تقوم عليه القصور الريفية الإسلامية. ولم تحتفظ الجزيرة بأى من هذه القصور، حتى ولا واحد منها، يمكن أن نقول عنه فى ثقة كاملة أنه يعود فى بنائه إلى العصر العربى، ومع ذلك نجرؤ على التكهن بأن طراز الأبنية التى أقيمت بعد العرب كانت على هدى من عماراتهم الأولى.

إن آثار صقلية القديمة العظيمة، التى تثير اليوم إعجابنا، والتى قاومت عوامل الفناء، ولا تزال تحتفظ بدقتها حتى الآن، لا يمكن أن تكون قد استخدمت، فيما يبدو، بأية طريقة، نموذجا يقلده المسلمون ويحتذونه. لقد كان من السهل عليهم أن يستغلوا الأعمدة، وأجزاء أخرى جوهرية فى المعابد الإغريقية، ولكنهم لم يفعلوا هذا دون شك. وكانت مادة البناء التى يفضلونها نوعا من الأحجار يسمونه «الكدان Kaddan»، ومن هذه الأحجار المصنوعة بنيت كل مدينة بالرم[٦]. وفضلا عن ذلك أيضا، يبدو فى ضوء ما نستنتجه من التنقيب عن كثير من بقايا الأسوار أنهم كانوا يستخدمون الآجر.

---

(٦) ابن جبير، طبعة رايت، ص٣٣٦.

وتتميز المبانى الصقلية بالارتفاع والصلابة، وكثافة الجدران، وباستخدام العقود أحيانا بكثرة، وأحيانا بقلة، ولكنها تميل دائما إلى أن تكون عقودها مدببة، وتشبه إلى حد ما الطراز المعمارى المستخدم فى مبانى القاهرة[٧]، وهو ما يمكن تفسيره بسهولة فى ضوء العلاقات الودود التى كانت قائمة بين مصر وهذه الجزيرة. أما فى الداخل، وفى تخطيط البيوت الريفية، أو المنيات، فهى تشبه ما يجرى عليه الحال فى إسبانيا، وعرضنا له من قبل: ساحة تحيط بها الممرات، وحولها الأعمدة والعقود، والغرف، ونوافير تصب فى أحواض من الرخام، ومن هذه وتلك يتكون منزل جميل بين جنان تعبق بأريج الزهور، وغنية بمختلف الثمار، وتزهو بخضرة استوائية تقريبا. ونجد فى الزخرفة أيضا رسوما متعددة الألوان من الفسيفساء، وقبابا فى شكل خلايا النحل، ونقوشا متشابكة من المصيص، ونتوءات بديعة تغطى الجدران، ذات ألف شكل وشكل.

وتعكس قصيدة عبد الرحمن الطربانى، وهى فى مدح مدينة فافرة Favora، وأتينا عليها فى الجزء الثانى من هذا الكتاب[٨]. صورة دقيقة للترف المصفى، والفتنة الباذخة، فى بيوت صقلية الريفية، ومع ذلك فإن الأبيات لا تقدم لنا مزيدا من المعلومات عن حالها، وإنما شيئا جديدا عن جداول المياه التى تجرى عبر البساتين، وعن بركة كبيرة فى وسطها، وعن جزيرة فى وسط البركة، غُرست بأشجار البرتقال، وعن كشك وسط الجزيرة. وكان هذا البيت الريفى، أو المنية، قريبا من بالرم، تحت سفح جبل جريفون Grifone، على مقربة من نبعين كانا يسميان على أيام العرب فافرة الصغرى، وفافرة الكبرى، وكلمة فافرة Favara معناه نبع فى اللغة الايطالية. ويتحدث ابن جبير عن هذا البيت الريفى، ويدعوه قصر جعفر[٩]، ويمكن أن نستنتج من التسمية أن الذى بناه هو الأمير جعفر ابن يوسف، وحكم من ٩٩٨ إلى ١٠١٩ م، أو مسلم آخر يحمل هذا الاسم، ولو

---

(٧) طبعا كان هذا حتى مطلع هذا القرن، قبل أن تأتى موجات المعمار الحديث غير المنظمة، وغير الموجهة، على معظم معالم القاهرة الأثرية والقديمة. (المترجم)

(٨) ترجمت الجزء الأول والثانى من هذا الكتاب فى مجلد واحد بعنوان «الشعر العربى فى اسبانيا وصقلية» وسيصدر هذا العام أيضا، والقصيدة فى الفصل الخاص بصقلية. (المترجم)

(٩) ابن جبير ٣٣٤.

أن فزلوس Fazellus يعتبر أن الملك روجر هو الذى أقامه[١٠]، والحق أنه لم يصنع شيئا أكثر من ترميمه.

وطبقا لكل الظواهر أيضا فإن بنيامين التطيلى، وزار صقلية عام ١١٧٠ م، يتحدث عن فافرة عندما يقول: «ويوجد نائب الملك فى بالرم وقصره يسمى الحصن، ويضم هذا القصر فى جنانه كل أنواع الأشجار المثمرة، وجدولا كبيرا يجرى وسط قناة مبنية، وبركة يطلق عليها اسم البحيرة، وتوجد فيها أسماك كثيرة. وقوارب الملك مزينة بالذهب والفضة، ويذهب إليها دائما للتسلية والراحة، وكذلك تفعل حريمه»[١١]. وحتى الآن يمكن أن نرى بقايا هذا القصر على بعد نصف فرسخ من بالرم، قريبا من كنيسة سان شيرو San Ciro.

وهناك فى نبع فافرة الأكبر، حيث تتدفق المياه من صخرة تخترقها كهوف كثيرة، توجد ثلاثة عقود من الآجر حتى يومنا، ويمكن أن نلحظ تحتها الجدار الحجرى لبحيرة كبيرة. ومن هذه البحيرة جاء دون شك اسم البحر الحلو Mardolce والذى يطلق اليوم خطأ على النبع، وحتى اليوم لا يزال اسم البحيرات يطلق فى دمشق على مخازن المياه العامة، والبرك فى البيوت، والمياه فى أحواض الرخام. وفى الجانب المقابل لهذه البحيرة الصناعية، وهى جافة الآن، فى اتجاه شاطئ البحر، وقريبا منه، توجد بقايا أنقاض القصر الواسعة، ويعتقد سكان بالرم أن ثمة طريقا تحت الأرض، يمتد منه إلى القصر الملكى، وكان يوجد فى وسط المدينة، ويعرف باسم حصين بربروس، وهو بناء كبير مربع، فى وسطه ساحة كبيرة، ومحاريب فى الجانب الخارجى من الجدران، وبعض غرفه نصف خربة، وسقفها فى هيئة قباب يشير إلى أنه كان موقدا للحمامات الساخنة.

• قصر المنصورية:

وهو، طبقًا لرواية ابن جبير، من بين القصور، التى تجعل من عاصمة صقلية أشبه بعذراء جميلة، تحيط عنقها بعقد من الماس، على نحو يتيح لملك النورمانديين

---

(١٠) FFazellus, en Rev. Sic scriptores, 160.

(١١) The itineraty of Benjamin of tudela, ed. Asher, 1, 166.

أن ينتقل من مكان إلى آخر، مارًّا بالقاعات والأكشاك والنوافير[١٢]. وليس بوسعنا أن نذكر شيئًا مؤكدًا عن المكان الذى يقوم فوقه، لأننا نعرفه من خلال الشعر العربى فحسب، ومن القصائد التى وصلتنا، وقيلت فى إطرائه، وتُظهر إلى حد كبير كم كانت القصور العربية فى صقلية تشبه قصور عرب الأندلس إلى حد بعيد، فى الرسم والتخطيط بعامة، وفى الصصفات المميزة على حد سواء، ولقد قلتُ القصور العربية قاصدًا، لأنها أقيمت على طراز مشرقى، ومن المحتمل جدًّا أن الذين قاموا على بنائها من المهندسين المعماريين المسلمين، وإذن فمن الحق أن نطلق عليها هذا الاسم حتى ولو بُنيت فى عهد النورمانديين، وإحدى هذه القصائد أشرت إليها من قبل، وتوجد فى الجزء الثانى من كتابى[١٣]، والأخرى لابن بشرون، وهى :

لِلّــــــهِ منصــــورية	راقتْ ببهجتهـا البهيَّـه
وبقصرِهـا الحَسنِ البِنا	الشكل والغُرَف العليّـه
وبـوحشهـا ومياهها	الغزُرِ العيون الكوثَرِيّه[١٤]
وقـد اكتستْ جنّاتُها	من بَيْنها حلَلا بَهِيّـه
غـطًّا عبـير ترابها	بمـدبجـات سنـدسيـه
يهـدى إليك نسيمها	أفـواه طيب عنبـريَّـه
واستـوسقت أشجارهـا	بـأطايب الشجـر الجنيه
وتجـاوبـت أطيـارهـا	فى الصبح دابًا والعشيّه
وبهـا رُجار سما العلى	ملك الملوك القيصـريّـه
فى طيب عيش دائم	ومشاهد فيها شهيّه[١٥]

كانت هناك حدائق إذن فى الضواحى القريبة، وهذا إذا لم تكن فى داخل القصر

(١٢) ابن جبير، طبعة رايت، ٣٣٦.

(١٣) انظر صفحة ٨٤ من هذا الكتاب، الهامش رقم ٣.

(١٤) يوجد نهر، أو بحيرة، أو بركة، فى الجنة تدعى الكوثر، ولا أعرف عنه شيئًا غير أن هناك سورة فى القرآن تحمل اسم الكوثر لأنها تبدأ : «إنا اعطيناك الكوثر». (خوان باليرا)

(١٥) أمارى، المكتبة العربية الصقلية، ص ٥٨٣.

نفسه أو حوله، وأسود يتدفق الماء من أفواهها كما فى الحمراء، والصورة الكاملة أن تكون فى هذه القصور ساحات تحيط بها أروقة وقاعات مجاورة، تبرق حيطانها بالقيشانى، وتتدلى من قبابها صور بديعة، معلقة فى السطح.

● قصر العزيز :

ويذكر البولونى الإيطالى لياندرو ألبرتى Leandro Alberti فى وصفه لصقلية ثلاثة قصور إسلامية تقع على مسافة ميل من بالرم اثنان منه كانا خرائب وأنقاضًا حين زارها فى النصف الأول من القرن السادس عشر، على حين بقى الثالث سليمًا. وقد وصف ألبرتى هذا القصر الأخير عرضًا : يدخل إليه المرء من باب عليه عقد مذهب، فيواجه قاعة يعبر منها خلال باب آخر مشابه للأول إلى مكان مربع مسور، توجد فى ثلاثة من جوانبه محاريب صغيرة، ويمتد فوقه سقف فى شكل قبة. وفى هذا الفراغ، وأرضه وجدرانه مغطاة بالرخام، توجد نافورة تدفع بمياهها فى حوض من الرخام أيضًا، وفوق النافورة يوجد نسر من الفسيفساء، وطاووسان، ورجلان مع كل منهم قوسه، ويوجهان سهامهما إلى الطائرين. وثمة جداول بديعة تحمل هذه المياه إلى أحواض أخرى متناثرة هنا وهناك، ثم تنتهى كلها إلى بركة أمام القصر فيها أسماك.

وإنه لممتع حقًا، فيما يرى ألبرتى، أن تسمع هذه الموجات الطرية العذبة فى وشوشة دائمة، تمضى مشرعة إلى أسفل، عبر قناة من حجر عملت فى دقة، تتخللها صور جميلة، صنعت من الفسيفساء، وتمثل فى الجانب الأكبر منها أسماكًا تبرق فى الماء. وهذا الرسم يقودنا إلى أن نتعرف على «الفيلا» الموجودة الآن، وتحمل اسم زيسا La Zisa وهو تحريف لكلمة العزيز اسمها العربى الحقيقى. ويوجد هذا القصر فى ضيعة أوليفوزا Oilvuzza الملاصقة لحدائق بوترا Butra وسرديفالكو Serradiwal الجميلة، وشكله مستطيل ومرتفع وجدرانه الخارجية مقسمة إلى ثلاثة طوابق، تُعرف بالنوافذ والمحاريب، وفى المحاريب عقود تقترب من شكل العقود المدببة. والنقش القديم، وكان فى عهود خلت يحيط بالأفريز، تكسَّر اليوم كممر إلى عدة أجزاء، ومع ذلك يتيح لنا رغم تكسره أن نرى أصل

العمارة من داخلها عند النورمانديين. ومع ذلك فقد البناء كثيرًا من صورته االأولى، ويقوم سحره لمن يراه اليوم على المناظر الرائعة التى يشرف عليها، ويستمتع بها من يطل من أعلاه، وهى شىء لا يجاريه إلا روائع غرناطة. ولكن من يأمل أن يجد فى قصر العزيز حمراء صقلية فسوف يحس بخيبة أمل كبيرة، لأن رواق الطابق االأسفل فحسب، يتفق فيما هو جوهرى، رغم أنه مهدم، مع الصورة التى رسمها له ألبرتى.

أما الزخارف فجاءت فى شكل هوابط تتدلى من قباب المحاريب التى فوق النافورة، ونقوش على الحائط الذى فيى المدخل، وعدد من الزخارف العربية المتشابكة، وكلها تعود إلى أيام العرب دون شك، غير أن الفسيفساء الذى يصور الطاووسين والصيادين يعود إلى عـصر النورمانديين. وفى مدخل الطابق الأعلى قاعة كبرى مربعة، ذات أعمدة تصل بين غرف متعددة، غير أن هذا الجانب كله من العمارة لا يحتفظ من بنائه الأول إلا بالقليل جدًّا.

وطبقا لألبرتى كان فى وسط البركة، وهى مهدمة أيضًا، وتوجد أمام الباب الرئيسى وتستمد مياهها من نافورة الساحة، قاعة مربعة ترتبط مع حافة البركة بجسر من الحجر، وهذه القاعة تضم بهوًا صغيرًا به نافذتان، وغرفة أخرى للنساء بها ثلاث نوافذ، وفى وسط كل نافذة عمود من الرخام ينهض عليه عقدان، ويأخذ سقف الغرفة شكل قبة مغربية جميلة، ويكسو أرضها بلاط من الرخام، وعبر درج من الرخام أيضًا يمكن أن يجرى الماء هابطًا، وحول البركة حديقة جميلة، تحفل بأشجار الليمون والحور والبرتقال، وأشجار أخرى مثمرة.

ويضيف ألبرتى: «وما زلنا نرى حتى اليوم فى تلك الأطراف كثيرًا من الأنقاض، وبعض الغرفات والجدران، ومنها يمكن أن نستنتج أن المكان شهد فى عصور أخرى عمارة جميلة. وأعتقد، فى الحقيقة، أن كل إنسان يفكر بشرف سوف يتغشاه ألم عميق حين يتطلع إلى هذه الآثار، فإذا هى خرائب متهاوية فى جانب منها، وفى طريقها إلى الانهيار الكامل بقية الجوانب الأخرى»[١٦].

---

(١٦) Leandro Alberti, Isole oppartenenti alla Italica, apéndice a su Descirizione di tutta Itali, Venecia 1567 Page 53.

الأكثر احتمالا، فيما يبدو، وفى ضوء ما عرضته، أن قصر العزيز الريفى، كان مجرد بقايا فحسب، من مجموعة قصور عظييمة، يحتوى كل واحد منها على كثير من الغرف والقاعات والأبراج والحدائق والساحات. وفى غيبة الأخبار المباشرة المتصلة بحالة قصور صقلية هذه، أيام أن كانت فى كامل عمارها، يمكن أن نعطى عنها فكرة تقريبية من خلال الصورة اللتى رسمها مرمول كربخال Marmol Carvajal لعدد من القصور فى شمال أفريقيا، فلا أحد يجهل أن قصور صقلية العربية لا تختلف كثيرًا، فيما هو جوهرى، عن القصور العربية الإسبانية، ولا عن مثيلاتها فى المغرب. يقول مرمول:

● **قصور المغرب:**

كل الأبنية القديمة، والبيت الملكى العتيق، جمعها مولاى عبد الله هنا من قريب، فى قصور فخيمة على امتداد أسوار القصبة، من القصر العتيق، وهو خلف المسجد الجامع، حتى البيت الملكى، ويصل إلى ميدان الشرق. وفى هذا المناخ بنى ساحات واسعة، وغرفًا بالغة الجمال والأناقة، حيث توجد نساؤه ومحظياته، كل واحدة منهن منفصلة عن الأخرى، ثم قصوره وغرفه شخصيًا، وما يتخذه من خزائن أو أمكنة للسلاح. وفى القصر الرابع أقام ثلاث قاعات منخفضة، ذات قباب مذهبة، وفى الوسط نافورة ماء، وبابان يفتحان على حديقتين جميلتين من الياسمين والغار والريحان، وأزهار أخرى كثيرة، فوّاحة الأريج، وبها طرقات تغطيها العرائش والأغصان المتشابكة، وتحيط بها حواجز متشابكة صنعت من الخشب، ورءوسها من الحديد، وفى حديقة منها يوجد حوض من الماء فى شكل بركة، طوله أربعون برًا، وعرضه يزيد على ١٠ برا[١٧]، ويعلوه كثير من القيشانى، وإليه يذهب الملك للسباحة فى الصيف. وهذه البركة عميقة جدًا، وذات يوم كان مولاى عبد الله، وهو الذى يحكم الآن،سكرانًا فسقط فى البركة، وأوشك أن يغرق لولا أن أسرعت نساؤه لإنقاذه، ولهذا أمر بأن يقلل من عمقها، وأن تصبح بالقدر الذى يستطيع المرء أن يسير فيه بيديه ورجليه دون أن يغطيه الماء. ويوجد فى القصر

(١٧) برا Vara أداة قياس أسبانية قديمة وتساوى ٨٣,٦ من المتر. (المترجم)

قبتان أيضًا يطلق عليها اسم المقصورة، وفيهما تتم مقابلات الملك، فى الأولى يلقى رعيته، يستمع إليها علانية، وتراه شخصيًا. وفى الثانية يجتمع كبار مستشارى البلاط فى هيئة مجلس بحضور الملك لدراسة القضايا الهامة، وكلتاهما صنعت بطريقة يتاح معها فتح الأبواب فى الجوانب، فتظهر فى الجزء الداخلى ممرات جميلة مذهبة، حيث يقترب الناس لكى يعرضوا قضاياهم، ويسمعون ما يتصل بها، ولكن لا يمكن الولوج إلى الداخل إلا عبر بابين صغيرين، حيث يوجد البوابون من حرس الملك، وحول القبتين مساحات واسعة فيها نوافير جميلة يتدفق منها الماء، وفيها كثير من أشجار البرتقال والليمون والريحان، ويتنزه خلالها عامة الناس فى اليوم الذى خصصه الملك للمقابلات العامة.

● آثار عربية أخرى:

وعلى شمال الطريق الذى يمتد من بالرم إلى مونريالسMonreales يوجد مربع تحيط به جدران عالية، أقيمت من أحجار خشنة. نُحتت فى إتقان، وتزيّنها محاريب فى الجزء الخارجى، وبعض عقودها تميل إلى أن تكون مدببة، وتجعل منه الروايات قصرًا إسلاميًا. وورد فى أدب بوكاشيو[١٨]، فى الرواية السادسة، من اليوم الخامس تحت اسم القبة[١٩]. وداخله مشوه، وقد تهدم كله تقريبًا، وبالكاد يقدم شيئًا ذا أهمية، إذا استثنينا قطعة مدلاة، بقيت فى القبة الخربة. والبهاء القديم الذى كان يشع من هذه القبة[٢٠] تلاشى فى الجانب الأكبر منه، فى النصف

(١٨) انظر تعريفًا ببو كاشيو وبروايته هذه، فى كتاب: الدكتور الطاهر أحمد مكى، القصة القصيرة، ص ٤٨، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥. (المترجم)

(١٩) قدم لنا الإنجليزى وندوس Windus فى كتابه رحلة إلى مكناس، ص ١١٣، تعريفًا بالقبة المذكورة: توجد فى القصر غرف كثيرة، تسمى كل واحدة قبة، وهى مربعة والجدران من الخارج ملساء، باستثناء الواجهة، والتى تحتوى على خمسة أو ستة عقود، والداخل قاعة كبيرة، أرضيتها، وجدرانها حتى ارتفاع قامة رجل مرصعة. وهى مزخرفة بفن، ومذهبة بثراء، والسقف مغطى بالقرميد الأخضر، وترتفع كهرم». (دوزى، بنو عباد ١٤٢/١).

(٢٠) ليس موضع شك فيما يبدو أن لفظ alcoba القشتالى مأخوذ من كلمة القبة العربية، وليس له معنى آخر فى هذه غير ما يفهم منه فى القشتالية، ويحدده المستشرق الانجليزى لين فى هوامشه على «ألف ليلة وليلة» بأنها غرفة صغيرة إلى جانب القاعة، وتعميما بلا شك أطلق اللفظ على القاعة التى توجد بها القبة. وأحيانًا يستخدمون اسم تربيعة، ويستخدمه أمادور دى لوس ريوس، ومستشرقون آخرون، ومعناها قاعة مربعة، ودخل الاسبانية فى صورة tarbea، وترجم إليها أيضًا، واستخدمت الترجمة، فيقال «لاكوادرا La Cuadra» أى المربعة، كما يقول=

الثانى من القرن السادس عشر الميلادى، ولم نعد نعرف عنه إلا ما يصفه فزللو Fazello.

«يوجد القصر فى داخل بالرم، ويمتد بستانه خارج أسوار المدينة بما يقرب من ألفى خطوة، وكانت هذه البساتين تفيض بكل ألوان الشجر، وتتناثر فيها نوافير لا تتوقف، وتنتشر هنا وهناك أكام الريحان والغار. وثمة رواق طويل هناك، يمتد من المدخل حتى باب الخروج، به قباب كثيرة مفتوحة من كل الجوانب لكى يستريح فيها الملك ويخلو إلى نفسه، وإحدى هذه القباب بقيت سالمة حتى أيامنا هذه[٢١].

وفى وسط الحديقة يوجد حوض كبير، أقيم من كتل حجرية صلبة، وكان يضم بين جوانبه أسماكًا كثيرة، وقد بقى الحوض سالمًا حتى يومنا هذا، لم تصبه يد الدمار فى شىء، ولا ينقصه إلا الماء والأسماك. وهناك، قريبًا منه، كان يرتفع، ولا يزال قصر الملك الريفى الرائع، وبأعلاه نقش إسلامى، وهذا المكان لا ينقصه شىء لكى يبلغ الترف الملكى فيه غايته، حتى أن جانبًا من الحديقة كان يضم حظائر وأقفاصًا للحيوانات المفترسة من كل الأنواع، لكى تُسلى وتمتع سكان القصر. ولكن ذلك كله تهدم اليوم، وحلت مكانه كروم العنب، وجنان مثمرة لأناس آخرين. وكل ما يمكن أن نتعرف عليه جيدًا سور الحديقة فحسب، لأن الجانب الأكبر من الجدران بقى دون أن تمسه يد الاتلاف. وكما كان يحدث فى القديم، فإن أهل بالرم يطلقون على هذا المكان اسمًا عربيًا : القبة[٢٢].

= مؤلفونا القدامى، وفى كثير من نواحى الاندلس تطلق حتى اليوم على أفضل قاعة فى البيت، وتكون عادة مربعة، ولكن كلمة «لاكوادرا» بهذا المفهوم أخذت فى الاختفاء، وأصبحت تطلق على الاسطبل، وأنه لجدير بالإشارة أن لفظ تربيعة، والحركة alharaca، والتوريقataurique، والازار alicer، والفرضة alfardaومصطلحات أخرى كثيرة تتصل بالمعمار العربى، بدأت تبعث من جديد فى لغتنا. (خوان باليرا)

(٢١) طبقا لامارى، فى مجلة المعمار، ١٨٥٠، ص ٦٧٨، فإن هذه القبة كانت لا تزال موجودة فى عام ١٨٤٩ م، وفى عام ١٨٦٤ حاولت عبثًا أن أجدها، ولكنى علمت بعد ذلك من مغرم بالفنون، زار بالرم فى الحقيقة عدة مرات قبل، أن هذه القبة كانت تقع فى بستان مسور، على جانب الطريق الذى يذهب إلى مونريال، وحيث أنا لم اتعمق فيه.

(٢٢) Fazellus, en Rev Sic. Scriptores. 157.

والنقش الذى كان يوجد على إفريز الجدار فكّت معمياته من قريب، وهو يحمل اسم جيوم الثانى، وتاريخ عام ١١٨٢ م[٢٣]، ومع ذلك لا نزال نشك فى ما إذا كان جهد الملك النورماندى وقف عند ترميم البناء القديم، وتزيينه بهذا النقش، على حين أن بقية هذا النباء العظيم، ومنه هذه القبة، وهى لا تمثل غير جزء يسير، كانت من عمل العرب.

وثمة حمامات عربية فى حالة متوسطة تشاهد الآن فى شفلا Cefala على بعد ثمانية عشر ميلا من بالرم، وتوجد أيضًا أطلال قصر ريفى عربى فى بوكادفلكو Boccadifalco. وأخيرًا فإن مبنى قديمًا فى وادى جوادينا Guadagne، إلى جانب بالرم، ويدعى عادة برج ديافلو Diavolo، وينسبه الناس إلى العرب. وهو جدار مرتفع، وأربعة نوافذ مع عقود مدببة، ولكنها لا تحمل أية دلالة خاصة تومىء إلى الفن الشرقى.

● مساجد صقلية:

وأشد ندرة من الأخبار التى لدينا عن القصور والبيوت الريفية العربية فى صقلية ما اتصل منها من ببيوت الله، أو ما بقى منها. ويصف ابن جبير مسجدًا يقع على مقربة من بالرم بأنه مستطيل الشكل، تحيط به أروقة ذات أعمدة[٢٤]، ومهما يكن هذا الوصف قاصرًا أعتقد أننا نستطيع الآن أن نتعرف منه، بين بقاياه الغائمة، على الصورة الأصلية للمسجد، والتى تحدثنا عنها، وهو صحن واسع يحيط به ممر متسع، يحتوى على عقود وأعمدة. ولا نعرف أى شىء عن حالة المسجد الجامع فى بالرم، غير أن الرحالة الأدريسى يطرى ثراء زينته وزخارفه والنقوش والمذهبات[٢٥].

وكان هذا المسجد فى الأصل كنيسة[٢٦]، كما كان الحال فى مسجدى دمشق

(٢٣) الكلمات الواضحة هى: «بسم الله الرحمن الرحيم». اعتبر، قف، وانظر، فسترى عملا رائعًا ينتمى إلى جيوم الثانى، أعظم ملوك الأرض. (المجلة المعمارية، باريس ١٨٥٠، ص ٦٨١).

(٢٤) ابن جبير، طبعة رايت، ٣٣٤.

(٢٥) أمارى، المكتبة العربية الصقلية، ص ٢٩.

(٢٦) ابن حوقل، فى المكتبة العربية الصقلية ص ٤.

وقرطبة، وفيها بعد أعيد بناؤها، دون شك كهذه ثم خصصها النورمانديون للعبادة المسيحية، وأخيرًا تهدم فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى[٢٧]، ولم يبق اليوم فى الكتدرائية، والتى تشغل المكان نفسه، وعانت كثيرًا من التغيير والتبديل، وبخاصة فى الداخل، أى جزء أساسى من البناء القديم، إلا بعض الأعمدة، ربما فى الجانبين الجنوبى والغربى.

Fil-loġġa tal-"Cortile Maqueda" fil-palazz Irjali ta' Palermu, wieħed jilmaħ imwaħħla mal-ħajt irħama bajda bi tliet kitbiet: Latin, Grieg. u Għarbi. Din tfakkar l-arloġġ tal-Għarbi-Malti li fis-sena 1142 kien għamel lir-Re Ruġġieru II.

ظلت الأوامر الملكية فى صقلية تصدر باللغة العربية إلى جانب اللغات الأخرى، حتى بعد استيلاء النورمانديين عليها. والنقش أعلاه صورة إعلان فى ميدان عام، باللغات اللاتينية، واليونانية، والعربية، ونصه: «خرج أمر الحضرة الملكية المعظمية الرجارية العليه أيّد الله أيامها، وأيدّ أعلامها بحمل هذه الالة لرصد الساعات بمدينة صقلية المحمية سنة ست وثلثين وخمسماية»

وبفضل سياسة التسامح التى انتهجها الملك روجر وخلفاؤه من بعد، ووجدوا أنفسهم مضطرين لتطبيقها فى وطنهم، ويسكن المسلمون الجانب الأكبر منه، بقى كثير من مساجد صقلية فى قبضة المسلمين خلال الفترة الأولى التى تلت استيلاء

---

(٢٧) Amato De principe templo panormitano.

النورمانديين على شبه الجزيرة، ولكن مساجد أخرى على العكس، كان حظها حظ المسجد الجامع، فتم تحويلها إلى كنائس، مع تغييرات تهدف إلى تطويعها لتوائم الطقوس المسيحية. وإذن من السهل كثيرا أن تبقى أجزاء من المساجد فى الكنائس الصقلية الحاضرة، وهذا الظن يبلغ حد التأكيد تقريبًا فيما يتصل بكنيسة سان جيوفانى التى تقع قريبًا من القصر الملكى فى بالرم، والمحاريب الصغيرة الأربعة فى هذه الكنيسة تحمل الطابع الشرقى كاملا، والواقع أن هذه المحاريب كانت خمسة من قبل، وأقيم فى مكان واحد منها برج ناقوس الكنيسة، مما يؤكد، فيما أرى، فكرة أن أصلها عربى، ومن المؤكد أن هناك وثائق تسمى الملك روجر مؤسسها، ولكن مثل هذه التأكيدات لا ثقل لها، فلا أحد يجهل أن العصور الوسطى تعرف الكثير من الحالات التى ينسب فيها إقامة البناء لمن وسّعه، أو رمّمه، أو جمّله فحسب.

● القصور الملكية :

كانت مدينة بالرم فى عصرها الإسلامى تضم حصنين رئيسيين، الأقدم منهما يدعى القصر تمييزا له، وكان مقر إقامة الأغالبة، ويقع فى المكان الذى يحتله القصر الملكى الآن، ويرتبط بالمسجد الجامع كما هو الحال فى مسجد قرطبة، بطريق مغطى. وأما الآخر ويسميه العرب Jalesa، ويجاريهم فى هذه التسمية فلكاندو مريس فقد بناه الكلبيون وأقاموا فيه، ويقع على شاطئ البحر. وبعد أن استولى النورمانديون على المدينة اختار الكونت روجار الأقدم منهما، وهو حصن الأغالبة، ليكون مقرَّ إقامته، وفيما بعد ظل مقرًّا لخلفائه من بعده[٢٨]. ولم يبق لنا أى وصف عن هذا القصر فى حالته الأولى على أيام العرب.

(٢٨) فز لوس، ١٥٥ – فلكاندوس، ٦٣٩ – الإدريسى، فى المكتبة العربية الصقلية، ٢٩ – أمارى، تاريخ، ١٨٩/٢.

● قصر الخليفة فى القاهرة :

ولكن رواية جيوم دى تيرو تقدم لنا فيما يبدو فكرة عامة عن حالة القصور الشرقية الفاخرة. ويصف لنا مؤرخ الحروب الصليبية قصر الخليفة فى القاهرة على النحو التالى :

«دار هذا الأمير لها نظام خاص، لا يعرفه أى بيت آخر فى أيامنا هذه، ولهذا أود أن أقيد هنا، بعناية فائقة، كل ما استطعت فهمه من خلال العلاقات الخاصة عن ثرواته العظيمة، وترفه وعظمته، لأنه ليس مزعجاً بالضرورة أن نفهم كل هذا بدقة». وعندما ذهب هوجو سزاريا Hugo de Cesàrea ومعه جوفريد من فرسان الداوية، لأول مرة إلى القاهرة ليؤديا مهمتهما سفيرين، أدخلتهما إلى القصر جمهرة غفيرة من الخدم، تمضى أمامهما كاملة السلاح، مع ضجة وصخب هائلين، وعبرا ممرات ضيقة، وأماكن مظلمة تمامًا، وفى كل ممر كانا يلتقيان بجمهرة من الأثيوبيين المسلحين، يحيون السلطان فى إيمان، وأخيرا وصلا إلى القصر، وبهذا الاسم يعرفونه فى اللغة العربية، وبعد أن مرّا بالحراس الأوائل، وبالطائفة الثانية منهم، وجدا نفسيهما فى مكان رحيب عريض، فى الهواء الطلق، وتغشّاه الشمس. وهناك وجدا رواقًا يتمشيان فيه، ويستريحان فوق اسطوانة من الرخام، سقفه مذهب، وهى مزخرفة بفن دقيق، والطابق مزين بألوان عديدة، وكل ما فيه يعكس عظمة ملكية وترفًا رفيعًا. وكل شىء جميل مادة وصنعًا، يخطف الأبصار بريقه، ويرغمها على النظر فيه، ولا تستطيع من تأمله فكاكًا. وهذا الجمال سحر كل أولئك الذين رأوه فى تلك الأيام.

«وكانت هناك بركة من الرخام مليئة بالمياه الصافية، وحولها الطيور من كل الأنواع، وهى ليست معروفة عندنا، غريبة الشكل والريش، وذات منظر بالغ الروعة، وبخاصة لنا. ومن هناك حملنا الخصيان إلى غرفة أخرى تزيد كثيرا فى جمالها عن التى سبقت، وتشبه تلك التى رأيناها أولا. وهناك مجموعة كبيرة من الحيوانات غير المستأنسة، وأخرى من ذوات الأربع مختلفة الأنواع، أشياء لا تتأتى إلا فى خيال فنان عبقرى الريشة، أو شاعر متوهج الإبداع، أو روحا يحلم، وكلها

يمكن أن تصبح رؤيا منام، وهو ما لا يحدث إلا فى أرض المشرق والجنوب فحسب، ومثلها لا يرى فى الغرب أبدا، ونادرا ما يتحدثون عنها».

«وبعد ضجيج صاخب، وعبر غرف كثيرة، وصلا أخيرا إلى القصر الملكى نفسه، حيث توجد شرذمة من المسلحين، وجمهرة من الخدم، وعدد آخر من الحاشية، يشون عددا وملابس بعظمة سيدهم التى لا مثيل لها، وكل شىء يومئ إلى ثروته، ويلمح إلى امتلاء خزائنه. وعندما أدخلا بهذه الطريقة، ووجدا نفسيهما وسط القصر، أظهر السلطان الاحترام المعتاد لسيده، مستلقيا على الأرض مرة ومرة، وموقرا له ومبجلا، كما لم يظهر أحد وقاره لآخر من قبل. ثم استلقى على الأرض للمرة الثالثة، وألقى سلاحه، وكان معلقا فى رقبته، وفجأة، فى سرعة خاطفة، انحسرت الستائر المزينة بالذهب والجواهر الغالية، وكانت مرفوعة فى الوسط تخفى كرسى العرش، فظهر الخليفة جالسا، حاسر الوجه، فى ملابس أكثر من ملكية، وعلى عرش من الذهب، ويحيط به عدد محدود من الخصيان يخدمونه، وحينئذ اقترب منه السلطان فى وقار عميق، وقبل قدميه فى تواضع»[٢٩].

● قصر الأغالبة:

لا يبدو أن قصر الأغالبة فى بالرم كان فى روعة وترف قصور خلفاء مصر فى القاهرة، ولعله كان خرائب حين استولى عليه روجر، وقام هذا وخلفاؤه من بعده بعمل ترميمات وتعديلات وتحسينات كثيرة فيه، ولكن التشابه بين قصر النورمانديين والقصور المشرقية يبدو أشد وضوحا فى أوصاف أخرى وصلتنا، كالمعلومات التى أوردها عنها الرحالة ابن جبير، فهو يتحدث عن الحدائق الكثيرة، والأروقة، والقاعات، والسقوف، والساحات، كما يتحدث أيضا عن ساحة تحيط بها قاعة ذات عقود وأعمدة، وفى وسطها بهو، وهو فى هذا يتفق مع فلكاندو فى وصفه للقصر نفسه حين يقول:

«كل شىء بُنى من كتل حجرية، صنعت بمهارة فائقة، وفن دقيق، تحيط به أسوار عريضة من الخارج، أما فى الداخل فيبرق بهاء وترفا، وذهبا ومجوهرات.

(٢٩) Gulielmi Tyrii, Belli Sacri historia, t XIX, ap. XVII.

هنا ينهض برج على طراز بيزى[٣٠]، حيث تحفظ الخزائن الملكية، وهناك البرج ذو الطراز الإغريقى الذى يسيطر على جانب من المدينة، ويدعى خمونية Khemonia، ويزين الوسط ذلك الجانب الذى يطلق عليه اسم «جوهرية»، وهو غنى بالزخارف الدقيقة، وكل شىء فيه يلمع بقوة، وعمل فى إتقان، وتعوَّد الملك أن يقضى ساعات راحته فى هذا الجانب. والفراغ الذى على الجوانب مقسم إلى غرف عديدة للجوارى والخصيان الذين يخدمون الملك والملكة. وتوجد هناك أيضا عدة قصور صغيرة كثيرة، تنبض ترفا مصقولا، يلتقى فيها الملك سرا بمستشاريه ليتداول معهم فى شئون المملكة»[٣١].

لا بد أن هذه العظمة كلها قد اختفت سريعا، فبعد قليل من الصورة اللامعة التى رسمها فلكاندو للبهاء العربى النورماندى فى بالرم اجتاحت الحرب المدمرة جزيرة صقلية وحولتها إلى خرائب وأنقاض من جديد. والغضب الحانق الذى حمى به انريك الرابع ادعاءات أسرة هوهنشتاوفن Hohenstaufen فى عرش صقلية، واستيلاء الفرنسيين الفورى المرعب، والثورات، والإطاحة بالعروش التى جاء بها معه، أتت تدميرا على كل ما احتفظ به النورمانديون من الفن العربى، حتى أن رفاتهم يستريح اليوم مقبورا تحت طبقة مزدوجة من الخرائب والأنقاض، ولقد تنبأ مؤرخ صقلية العظيم بهذه العاصفة المدمرة، حين باح بهذه الكلمات التى جعلها مدخلا لتاريخه :

«لكم تمنيت يا صديقى لو أن خشونة الشتاء القارسة أفسحت الطريق أمام نسائم الصبا الحلو، فأكتب لك شيئا مرحا ولطيفا يجيئك كباكورة الربيع الوليد، ولكن مع وفاة ملك صقلية من قريب، وإذا أخذنا فى الاعتبار المشكلات السياسية المعقدة والسيئة التى أعقبت بالضرورة موته، فإن الحادث كان محزنا، ومثيرا للشجن، ولا نملك بإزائه غير أن نجهش بالبكاء. وعبثا تحاول السماء الساطعة، وقد صفت من جديد، أن تدفع بالغبطة والبهجة بين جوانحى، كلا !، ولا منظر الزهور الجميلة، والحدائق اللطيفة. ومثل الطفل لا يمكن أن يرى أمه تموت وعيناه

---

(٣٠) نسبة إلى بيزا Pisa مدينة إيطالية.

(٣١) Falcando, 639.

جافتان بلا دموع، لا أستطيع أن أفكر، دون دموع، فى الخراب الذى ينتظر صقلية، وقد تلقتنى فى بهجة غامرة، وعلى أرضها نشأت، ومن خيرها تكونت. وأخالنى أرى أفواج المتبربرين الأقوياء يجتاحونها فى نهم شره عنيف، وسوف تجفف المذابح ثراء مدننا، وازدهار أقاليمنا، ويأتى عليها السلب والنهب، وتلوثها جرائمهم».

«آى!، يالى منك يا كتانيا Catania»[٣٢].

«كم مرة وقعت جريحة سوء الحظ، ولم تستطع آلامك أن تهدىء من غضبه، ولقد عانيت من كل شىء، من الحرب والطاعون، والزلازل وبراكين إتنه Etna، وبعد كل هذا تتعرضين الآن لأسوأ أنواع الشرور: الاسترقاق!».

«يالى منك، يا نبع أرتوسا Aretusa الشهير[٣٣]! أى عار يثقل كاهليك!، أنت الذى صحبت يوما أغانى الشعراء بخريرك الموقع، ووشوشاتك الجذابة، عليك الآن أن ترطّب نشوة العهر الألمانى، وأن تعرض نفسك متعة لرجسهم!».

«والآن أعود إليك، يا مدينتى الشهيرة، قمة ومجد كل صقلية!، كيف يمكن أن أمضى صامتا إزاء مفاتنك وسحرك، وكيف يجب أن أطريها بما يكفى»!

وهنا يضع فلكاندو رثاء مدينته العزيزة، وأتينا عليه فى مكان آخر، ويختمه أخيرا بهذه الكلمات: «كل ما أشرت إليه فى إيجاز ليكون معروفا. كم من الزفرات أرسلت، وما أغزر الدموع التى يجب أن أذرفها، ليكون حزنى على هذه الجزيرة فى مستوى ما تستحق».

● المعمار العربى فى مالطة:

وفى مالطة المجاورة لصقلية، ومثلها جزيرتا بنتلارية Pantelaria وجوزو Gozzo، وجزر أخرى سقطت كلها بعد فتح صقلية فى قبضة المسلمين، وفيها تجلى

---

(٣٢) كتانيا: ميناء فى صقلية، وعاصمة مقاطعة تحمل هذا الاسم. (المترجم)

(٣٣) نهر مقدس فى انياذة فرجيل، وهو حورية البحيرات والغابات وأحبها الفيو، وهو نهر آخر مقدس. (المترجم)

المعمار العربى أيضا فى المساجد والقصور. وحتى تحت حكم النورمانديين أنفسهم، وأتاحت فطنتهم السياسية للمسلمين أن يمتلكوا وينموا ثرواتهم، وتركوا لهم الحرية كاملة فى ممارسة عقائدهم الدينية، ولم يضعوا عليهم أى قيد، فازدهر الفن الشرقى فيها. ولكن لم يكد يبقى أى شىء فى أيامنا هذه، حتى مجرد شىء يذكرنا بما كان، أكثر من شاهد قبر، له عقود حدوية، بالغ الزخرفة، ويرقد الآن فى متحف فاليت Valette عاصمة الجزيرة، وعلى هذه اللوحة نقش يتحدث عن قصر عظيم، وقاعة بهية، وأوثر لجماله أن أنقله هنا كاملا:

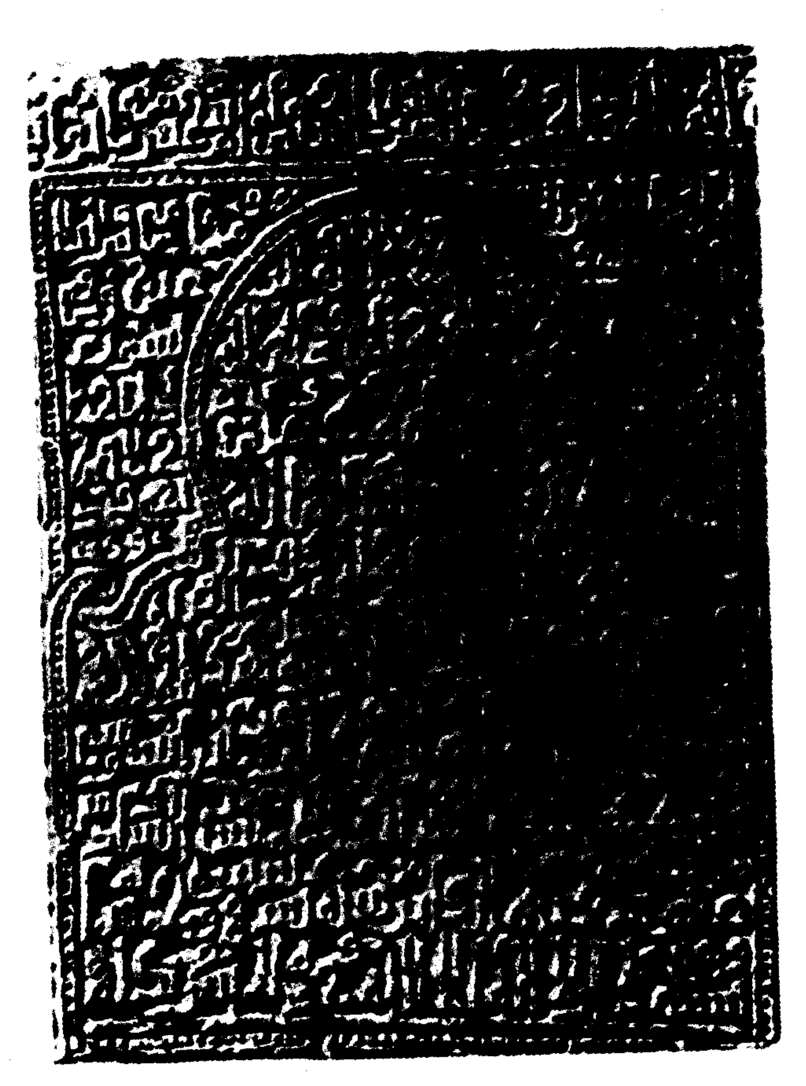
«بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على النبى محمد وعلى آله وسلّم تسليما. لله العزة والبقاء، وعلى خلْقه كتب الفناء، ولكم فى رسول الله أسوة حسنة».

«هذا قبر ميمونة بنت حسان بن على الهذلى عرف بن السنوسى. توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان الكائن من سنة تسع وستين وخمسمائة (٢١ من مارس ١١٧٤م)، وهى تشهد أن لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له».

أنظرْ بعينيك هل فى الأرض من باقى	أو دافعٍ للموت، أو للموت من راقى
الموت أخرجنى قصرًا فيا أسفى	لم يُنجنى منه أبوابى وإغلاقى
وصرتُ رهنًا بما قدَّمت من عملٍ	مُحْصا علىَّ وما خلّفتهُ باقى
يا مَنْ رأى القبرَ إنى قد بليتُ به	والتربُ غبّر أجفانى وآماقى
فى مضجعى ومقامى فى البلا عِبَرٌ	وفى نشورى إذا ما جئتُ خَلاّقى

«أخى فجد وتب»[٣٤]

(٣٤) المجلة الأسبوعية ١٨٤٧ /٢٢ ٤٣٧.



صورة النقش الذى وجد على قبر ميمونة،
وهو محفوظ بالمتحف الوطنى فى فاليت عاصمة مالطة

- غرناطة.
- احتضار الثقافة العربية.
- آخر آثار الفن العربى فى أوربا.

فى شمال سفح سيرا نفادا الغربى، وهو أعلى سلسلة جبال فى أوربا بعد جبال الألب، يمتد واد مرتفع لا يكاد يعدله واد آخر فى ثراء مفاتنه وتنوعها. ولو أن ذلك المكان لا يملك إلا الجمال الذى سكبته الطبيعة فوقه بسخاء فحسب، إلا أنه يُعد دائما أحد الأمكنة الأكثر شهرة فى العالم، وحتى يحدث سحرا أكبر، وفتنة تجتاح الزائر من كل جوانبه، اختاره التاريخ موطنا لذكريات خالدة، ومد الشعر فوقه غلالة رقيقة، وزيَّنه الفن بأروع إبداعاته جمالا.

من منّا لم يحلم يوما بأن يذهب إلى غرناطة، ويتجول تحت أروقة قصورها الفاتنة، أو بين حدائقها الغناء، تتدلى من الصخور أو تنهض على الروابى، أو تمتد فوق وديان تلفها أشجار الحور؟

ثمة كلمات مجرد النطق بها يصنع للخيال أجنحة! ، ومن بينها كلمات الحمراء وجنة العريف، كلتاهما ترن فى أعماق النفس مثل توسل قوى، وتدفع أمامها بألوان من الصور مجسمة: الأعمدة الهيفاء، تمتد عاليا، كأعمدة المياه المندفعة من النوافير، وحفلات ومبارزات تحت أروقة مقنطرة، فى الهواء الطلق، ونزهات ليلية بين خرير الجداول الصافية، على حين يعبق الجو بشذا الآس وأريج الريحان، ويرن فى الأكام صدى أغنيات ناعمة ناعسة، وإلى جانب هذه المناظر الهادئة، تبدو مشاهد أخرى تصور مأساة سقوط الحكم العربى، وعنف الصراع البطولى بين العرب والإسبان، حيث برهن المسيحى على حماسته فى مواجهة بسالة المسلمين. وإذا تعمقنا بكل قوانا فى وضح التاريخ، نصف غائم حتى الآن بين سديم ضوء الشعر وإبهامه، بدت لنا حرب غرناطة كآخر قصيدة فروسية فى العصر الوسيط، وتقف حدا فاصلا بينه وبين العصر الحديث.

ولكى تبدو أهمية هذه الأمكنة تاريخيا، على نحو أشد وضوحا، سجلت بأقوى الوسائل تعبيرا قيام عصر جديد، لا فى إسبانيا فحسب، وإنما فى أوربا كلها أيضا. ففيها تلقى كولون، أو كولومبس، الأمر بأن يقود الأسطول الذى اكتشف أمريكا بعد أشهر قليلة من الاستيلاء على غرناطة، وهكذا يمكن أن نلمح فوق أنقاض القصر العربى العالم الجديد، والذى ربما يحتفظ فى أعماقه بمستقبل الجنس الإنسانى. وبعد ذلك بثلاثين عاما ثبّت كارلوس الخامس، أو شارل الأول فى أوربا، مقره فى الحمراء، وكان يحكم إمبراطورية لم يسبق أبدا أنْ كانت، فى اتساعها، تحت صولجان أى مخلوق آخر. ولمع على باب الحمراء، إلى جانب «لا غالب إلا الله» شعار بنى نصر، النسرُ الإمبراطورى الجرمانى، رمز قوتنا حينئذ، ومعنى وطننا مجسما.

لا يعنينا هنا أن نتحدث عن أشياء أخرى يمكن أن تسهم أيضا فى إثارة الاهتمام بتلك الأمكنة، وإنما يهمنا فحسب أن نكتشفها فى خصائصها المحلية، وفى أهم لحظاتها التاريخية، فهى المكان الذى نبت فيه، وتطور، آخر ازدهار شهدته الثقافة العربية فى أوربا، ثم رحلت بعد ذلك إلى الأبد.

توجد مدينة غرناطة فى سفح سييرا دل سول، وتتناثر على جوانب هذه الفتحات بين الصخور، ويمتد وادى شنيل ووادى الدارو، وجانب من المدينة فى الوادى، وجانب آخر فوق الآكام والربى، فهى موزعة على قسمين، يفصل بينهما امتداد عمق وادى الدارو، أحدهما على القمة، ويسمى الحمراء عادة، بسبب القلعة التى توجد فوقها، والثانى فى المنحدر، ويسمى البيازين، وتبدو القصبة القديمة فى أعلاه، وحول المدينة، بعيدا عن المنطقة الجبلية التى تطوقها، يمتد الوادى الأخضر، يعبق بأريج الزهور، وبين غاباته الصغيرة ذات الآكام النضرة، يلمع نهر شنيل الفضى متعرجا كثعبان، ويكون مع الوديان والربى وقمم لاسييرا نفادا، تتوجها الثلوج البيضاء اللامعة، منظرا طبيعيا بالغ الجمال والروعة، شديد الإغراء والفتنة، بين النبل والرشاقة، كما لو أن الطبيعة أرادت أن تعرض كل قوتها الخالقة من خلال عمل أستاذ، وأن تضع فى مكان واحد كل ثروات خزائنها، فجمعت فى هذه المقاطعة المحظوظة من الأرض كل ما يكون عادة موزعا ومنتشرا فى مقاطعات عديدة ومتباعدة، فتبهج روح المسافر وحواسه.



باب السيادة، أو الباب الجديد، وهو فى أسوار القصبة القديمة .

إن الخضرة الغضة الناصعة التى تتمتع بها بلاد الشمال، وتدفع لها الثمن جوا حزينا مقبضا، مظلما مضبّا، لارتفاع موقعها، وقربها من كتل الثلج الكبرى، والتى لا تذوب كلها أبدًا، تقابلها هنا سماء زرقاء صافية بلا سحب ولا ضباب. وبين أشجار الحور والبلوط والدرداء التى توزع فيئها اللطيف على الربى والوهاد، تمتد أنضر مناطق الجنوب خضرة : أشجار البرتقال تلمع بتيجانها من الأوراق خضراء فاقعة، وجماعات من أشجار الصنوبر والسرو تمد رءوسها الرشيقة والخفيفة فوق بحر من الخضرة، وأشجار الغار النبيلة، وأعشاب كثيفة من الدفلى، وأشجار الرمان تترعرع فى مثل هذه الخصوبة، وتبلغ ارتفاعا عملاقا، وتبدو وكأنها نمت لتغطى وتظلل بأفنانها البراقة، ذات الخضرة المذهبة، جوانب الربى الناعمة. وأنّى توجهت ترى قرى بيضاء بين العرائش، وحيثما أردت تسمع وشوشة الجداول الصافية وخرير الشلالات الرنانة، وأنت تعبر الغابات أو تجتاز الأشجار، وهذا البهاء من الخضرة، وهذه الوفرة فى المياه، تدفع بالحياة فى كل شىء، ويصحبها ضوء ساطع من شمس تكاد أن تكون استوائية، ومن طبيعة الأرض الفريدة تتيح لكل شىء فوقها أن يبدو فى أروع ألوانه، وفى أبهى صفاته، فتزيد من سحر المناظر الطبيعية وفتنتها، حتى تبلغ بها حد الخلود.

نعم، لا توجد غابات فى المرتفعات، لأن هذه مجرد صخور جرداء، ولكنها نفسها تترك جداول الضوء فى الصباح تتلوى، ومثلها يحدث فى المساء وتعطيها ذلك البريق العميق، وتحدث فى السماء ذلك التورّد الحاد، وتصنع ذلك التنوّع الثرى الذى يرتديه الفجر والأصيل فى الجنوب، كما لوكان لمعانًا قادمًا من عالم آخر فاتن. وهذه الجبال العالية المتدرجة تطوق وادى شنيل المرتفع الباسم، تميل بعنف فى مكان، وتأخذ شكلاً صعبًا خياليا، يجىء فى صورة أبراج متعرجة، وترتفع فى خطوط طرية ملتوية فى مكان آخر، وتقدم فى مجموعها جوانب واضحة التمايز، ومنها تتكون سيرا مكلين Moclin، وسيرا بيرة Vira وسيرا نفادا، وهذه الأخيرة من بينها شديدة الارتفاع، وتتوج قمتها الثلوج البيضاء، وترتفع فى شكل مسلات متآكلة، وأهرامات عملاقة، وشرفات متناثرة، وسفافيد متباعدة، تفصل ما بينها شقوق عميقة.

لك أن تتخيل شمس الأندلس عندما تميل الى الغروب، وقد أراقت شعاعها القوى فوق هذا المنظر الطبيعى االعجيب، واستحال بريقها الذهبى شعلة من أرجوان ملتهب، يجرى مرتعشا ويعكس كل مراتب الألوان والأنغام، الى أن تغطى الظلال والوديان والوهاد والربى. ومع ذلك، عندما يأتى المساء تبدو قمم جبال بليتا Veleta ومولاى حسن Muthacen ، وقد غطاها الثلج، منارة هادية، تراها السفن التى تشق عباب البحر الأبيض المتوسط من بعيد، وتلوح لهذا البريق المتألق مودعة ومحيية.

جيلة فى كل العصور هذه المقاطعة !، ولا مثيل لها، وبخاصة فى الربيع، عندما تذوب الثلوج على قمم الجبال، وتدفع بالمياه غزيرة فى الجداول والسواقى والأنهار، وتحدث فيضا من الخضرة الزاهية، وليس أروع فى هذه اللحظة من زهور اللوز، ويسميها الشعراء العرب «أول بسمة الربيع فى فم العالم» تعلن عن مجىء أرق فصول العام، فتزهو الوديان والربى بخضرة زمردية، وتبدو الزهور فى كل مكان، تتنافس فى بهاء الألوان، وطيب الأريج، وفوق الشلالات الراغية يمد شجر الرمان أغصانه، وقد اكتست أوراقا جديدة، وبين خضرتها يلمع بريق براعمها الحمراء، وقد تفتحت قليلا، وحولها ترن الدفوف الصاخبة[1]، وتهدل البلابل فى أعالى الشجر، بأغان من أيام العرب، لم تنسها حتى اليوم، وصفاء الجو، وطيب هواء سيرا نفادا يجعلان من مجرد التنفس تحت سماء غرناطة متعة، لأن الأرض لا تكاد تعرف لمثل هذا شبيها فى أى مكان آخر.

ليس وراء هذه الكلمات محاباة دفعتنى اليها عاطفة منفعل، كما يمكن لأحد أن يظن، وجعلتنى أضفى هذه المفاتن، وقد لا توجد إلا فى الخيال، على وادى شنيل، لأن جماله مشهور منذ القدم، ووصفه الكتاب المشارقة بأنه جنة، وأجمل وأكبر من وادى دمشق أو كشمير أو سمرقند، ويقول ابن بطوطة وهو رحالة لا يكل من السفر، وطاف بنصف العالم، من أقصى شرق الهند والصين حتى المحيط الاطلنطى : «غرناطة قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها، وخارجها لا نظير له فى

---

(١) الدف والصاجات من الآلات الموسيقية الشائعة الاستعمال بين العرب. انظر الأبيات التى فى كتاب وصف أفريقية للبكرى، طبعة سلان، ص ٥١.

بلاد الدنيا، وهو مسيرة أربعين ميلا، يخترقه نهر شنيل المشهور، وسواه من الأنهار الكثيرة. والبساتين والجنان والرياض، والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة ومن عجيب مواضعها عين الدمع، وهو جبل فيه الرياض والبساتين لا مثيل لها»[٢].

● **غرناطة كما يصفها الأوربيون :**

ولم يتعمق المسيحيون جيدا فى تأمل عاصمة آخر دول الاسلام فى شبه الجزيرة الإيبيرية ، ومع ذلك فإن بدرو مرتين Pedro Martin مؤرخ الملكة ايزابيل ، والملك فرناندو، أظهر نفس إعجاب المشارقة، فى رسالة كتبها من غرناطة يقول :

« بين كل المدن التى تشرق عليها الشمس فإن غرناطة فى رأيى أفضلها، لصفاء جوها ورقته فى المقام الأول، وهو أهم ما تحتاج إليه لكى تكون الإقامة فى مكان ما لطيفة ومحببة، فحرارة الصيف ليست مرهقة ، وبرد الشتاء ليس عنيفا، ويمكن أن ترى على الدوام، وأنت فى المدينة، على بعد لايزيد كثيرا عن ستة أميال، الثلج على قمم الجبال، وفى أحايين قليلة تذوب الثلوج فى تلك المرتفعات، وحين يحس المرء أحيانا بقسوة الحر، وفى شهر يوليه الملتهب، تجئ الثلوج مسرعة فترطب المياه، وبها يخفف النبيذ فيصبح باردا، واذا كلب البرد احتمالا، وقسا خلال أيام، فإن الغابات الكثيفة، فى الجبال القريبة، تقدم ملجأ سريعا. ومن جانب آخر فإن أية مقاطعة أخرى ، مثل هذه، فيها تلك المنازه الجميلة، تسلى النفس المهمومة، وتنعش الروح المتعبة».

«إن مدينة البندقية الرائعة يطوقها البحر من كل الجهات، ونصيب ميلانو الغنية واد فحسب، وفلورنسة تطوقها سلسلة من الجبال العالية، وعليها أن تعانى من كل رعب الشتاء، وروما تطحنها بحيرات نهر التيبر، وتزورها على الدوام رياح الجنوب، تحمل لها من أفريقية الروائح الكريهة، والأبخرة العفنة، وقليل من سكانها يمتد بهم العمر فيعيشون شيخوخة ممتدة، ويعانى سكانها فى الصيف من حر

---

(٢) ابن بطوطة، ٢/٣٦٨.

خانق مضن يشل قدرات الجميع ،والأمر على النقيض فى غرناطة ، لأن نهر الدارو الذى يخترق المدينة ، ينقى الهواء ، ويصح معه الجو ، وتتمتع فى الوقت نفسه بالجبال وواد عريض ، ولها أن تفخر بخيرات دائمة متنوعة ، وأن تزهو بأشجار الأرز ، والتفاح المذهب من كل شكل ونوع ، وحدائق بالغة البهجة ، وبساتين تنافس ما فى هسبيردس Hespérides[٣] ، والجبال القريبة منها تمتد حولها ، فى تلال رهيفة ، وربى ناعمة تغطيها شجيرات عبقة الرائحة ، وغابات صغيرة من الريحان والكروم وباختصار تبدو المدينة كلها ، لنضرتها وجمالها ، وغزارة مياهها ، كما لو كانت الشانزليزيه Champs –Elysées [٤] . ولقد جربت أنا نفسى كيف أن هذه الجداول الصافية ، تتدفق بين أشجار الزيتون الوارفة ، والبساتين النضرة ، تنعش الروح المتعب ، وتهب النفس لونا جديدا من الحياة »[٥] .

ولم يكن البندقى الشريف أندريس نفجيرو Andrés Navagero أقل حماسة فى تعبيره ، وأقام فى غرناطة فترة طويلة عام ١٥٢٦م ، سفيرا لوطنه لدى بلاط كارلوس الخامس ، كتب يقول :

« كل الأرض حول المدينة ، ما ارتفع منها أو استوى ، ويسمونه المرج La vega ، لطيفة بديعة ، وجميلة فائقة ، وفياضة بالخير حيث اتجهت ، ولا يمكن أن تكون أعظم مما هى عليه ، وكلها مليئة بالأشجار المثمرة ، مثل : الكرز ، والجوز ، والخوخ ، والسفرجل ، والتين ، وبالكاد تستطيع أن ترى السماء اذا كنت بينها ، لكثرة أشجارها ، وتشابك أغصانها ، ويوجد كثير من الرمان اللذيذ ، ولا يمكن أن نتصور أن هناك ألذ منه ، وأعناب كثيرة ، من كل الأنواع المعروفة ، وتتكاثف أشجار الزيتون ، وتبدو مجتمعة كأنها غابة من أشجار البلوط » .

---

(٣) هسبيردس بنات الأطلس فى الأساطير القديمة ، وكن ثلاث أخوات ، يملكن بستانا ، تثمر أشجاره تفاحا من الذهب ، ويحرس هذه الثمار تنين له عشرة رءوس ، وقد سار هرقل الى البستان ، وقتل التنين ، واستولى على التفاح الذهبى . (المترجم)

(٤) فى الأساطير اليونانية الرومانية ، جنة ظليلة تأوى اليها أرواح الذين عملوا الطيبات بعد الموت ، وتطلق الكلمة الآن على شارع رئيسى فى باريس . (المترجم)

(٥) Opus epistolar Patris Martyris Amst. 1670, pag. 54.

« وحول غرناطة، فى كل مكان، بين الحدائق الكثيرة المتناثرة، نرى، وأن شئت الدقة من الأفضل أن نقول لا نرى بسبب كثرة الأشجار ، بيوتا موريسكية كثيرة، قائمة هنا وهناك، لو تقاربت واجتمعت لكونت مدينة ليست أصغر من غرناطة نفسها. ومن المؤكد أن غالبية هذه البيوت صغيرة، ولكن أى بيت منها فيه عينه، وورده وأزهاره وريحانه، وكلها غنية بالزخارف، وتشهد بأن هذا البلد عندما كان لا يزال فى يد المسلمين كان أبهى جمالا مما هو عليه الآن. ونرى كثيرا من المنازل المهدومة، والحدائق المهجورة ليست دونها كثرة، جف زرعها، لأن الموريسكيين يقلون بدل أن يكثروا ، وهم الذين يبنون ويغرسون»[٦].

● المسلمون فى غرناطة :

عندما اجتاح المسلمون شبه جزيرة إيبيريا سريعا، دون تأخير، بعد هزيمة لذريق Rodrigo ملكها، اختارت كل قبيلة منهم إحدى المقاطعات لتسكن فيها، فاختار عرب الشام أن يسكنوا وادبى شنيل والدارو لخضرة أراضيهما وخصوبتها، وتحيط بها جبال يغطيها الثلج فتذكرهم بجبال لبنان وأرياف دمشق[٧]. وعلى بعد ميل من إلبيرة القديمة أقاموا فى مكان يسمى القصبة القديمة[٨] قلعة حصن الرمان، وأخذ اسم المدينة من اسم الحصن هذا، وكان يسيطر عليها، فسمِّيت غرناطة، لأن الرمانة تعرف فى اللغة القشتالية باسم Granada [٩]. وما نعرفه عن المدينة فى أيامها الأولى قليل، وكل ماوصلنا من أخبارها أنها كانت تضم إلى جانب العرب، جالية يهودية وفيرة العدد، وكثيرا من المسيحيين، ولهؤلاء كنائس غير قليلة، بينها كنيسة فخيمة توجد إلى جانب باب إلبيرة.

وفى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى نلتقى باسم الحمراء للمرة الأولى خلال الحرب الدموية التى وقعت بين العرب والمولدين فى كورة إلبيرة، حين حاول

---

(٦) Viaggio fatto in Ispagna, en A.Naugeri iopera. Patav. 1718, Pag. 373.

(٧) المقرى، ١٠٩/١.

(٨) لا يجب الخلط بين هذه القصبة القديمة وقصبة الحمراء، وكانت على الضفة الأخرى لنهر الدارو، على مرتفع فوق باب إلبيرة.

(٩) دوزى، أبحاث، ٣٣٦/١ -مرمول كربخال، ثورة الموريسكيين، الفصل السابع.

كل من الفريقين أن يتخذ من حصن غرناطة ملاذا، وتعرض للهجوم من هذا الفريق أو ذاك، وحين لجأ إليه العرب أخيرا يحتمون به فى مواجهة عدد أكبر من خصومهم وجدوا سوره مثلوما، فأصبح موقفهم سيئا للغاية، ولكنهم صمدوا، وبذلوا جهدا مضنيا، فوضعوا أيديهم فى بنيانه وسد ثلمه، يقاتلون عدوهم بالنهار، ويبنون سورهم بالليل على ضوء الشموع، وبينما هم كذلك رأوا حجرا يسقط من أعلى السور، ويقع تحت أقدامهم، فرفعه عربى فوجد بطاقة مشدودة إليه، فيها هذه الأبيات التالية، فأخذ يقرؤها على رفاقه :

منازلهم منهمْ قفارٌ بلاقعُ تُجارى السَّفا فيها الرياحُ الزعازعُ
وفى القلعةِ الحمراءَ تدبيرُ زيغهمْ ومنها عليهم تستديرُ الوقائع
كما جددت آباؤهم فى خلالها أسنتنا والمرهفات القواطع

هذه الأبيات قُرئت على ضوء الشموع المتراقص أثارت الذعر بين العرب، ووقعت منهم موقع الهواتف بالنذر، وظن عدد غير قليل منهم أن الحجر سقط من السماء، ولكن أخرين أدخلوا الطمأنينةعلى قلوب الخائفين، وأكدوا لهم أن الأعداء هم الذين ألقوا به، وأن الأبيات لشاعر إلبيرة، المحامى عن المولدين، المعروف بالعبلى، عبد الرحمن بن أحمد، وينسب إلى قرية عبلة التى منها أصله، وهذا الرأى حرّك الأسدى شاعر العرب ، محمد بن سعيد بن مخارق، وكان محاصرا معهم، وقام فيهم مقام العبلى فى المولدين ، «وكل منهم يحرض قومه، ويناضل عن مذهبه، ويصف مايرى لقومه على أضدادهم من الوقائع المخزية» فدفعوه الى أن ينافح عنهم، وأن يرد على العبلى فى أبيات تجىء من نفس البحر، وفى نفس القافية فكد خاطره، ولكن الشدة أخبلته وبعد لأى انبعث ببيتين هما :

منازِلُنا معمورةٌ لا بلاقعُ وقلعتنا حصنٌ من الضيم مانعُ
وفيها لنا عِزٌّ وتدبيرُ نصرةٍ ومنها عليكم تستتبُّ الوقائعُ

عملها فى الليل، ثم اختل وارتج عليه ، ولم يستطع أن ينظم البيت الثالث، وكأنه ما قال شعرا قط، فتشاءم منه العرب، وسيطر عليهم الخوف من جديد، فانعزل الأسدى خجلا، وظل مطرقا، حتى سمع قائلا يقول له، يسمع الصوت ولايرى شخصه :

ألا فـادنوا منهـا قريبـا لـوقْعـهِ تشيب لهـا ولـدانُكم والمـراضـعُ

وكان ذلك هو البيت الذى ينقصه، ونظر حوله فلم ير أحدا، فاستبشر خيرا، واقتنع بأنه روح سماوى نطق بهذه الكلمات، ونهض الى رفاقه، وقص عليهم ما وقع له، فاستمعوا له كلهم مندهشين، واعتبروا ذلك معجزة، واقتنعوا بأن الله سوف يهيىء لهم النصر، ثم كتبوا هذه الأبيات فى ورقة، وربطوها الى حجر، وألقوا بها إلى معسكر الأعداء، وملأت الثقة قلوب المحاصرين من جديد، وقاموا بهجومهم، وحققوا أعظم انتصاراتهم[١٠].

إذا كانت الحمراء التى تتحدث عنها الأشعار تقع فى نفس المكان الذى يقع فيه القصر الملكى الشهير، الذى بنى فى عصر تال، أو على الأقل ليس بعيدا عنه، حيث توجد اليوم «الأبراج الحمراء Torres Bermejos»، فثمة شك من الصعب الوصول فيه الى يقين.

● **غرناطة عاصمة دولة :**

وفى مطلع القرن الحادى عشر أصبحت غرناطة عاصمة دولة مستقلة، فقد اشتعل الصراع بين العرب والبربر، وشغل الأيام الأخيرة من حكم الأمويين، وفيه رفع رأس زيرى العاهل البربرى، زعيم قبيلة صنهاجة فى درب قريب من قصر قرطبة، وتحرك ابنه زاوى نحو العاصمة الأموية على رأس جيش كبير عطشا للأخذ بثأر أبيه، واستولى فى هجومه على المدينة، وأسلمها للنهب والسلب، ونزع رأس والده من الدرب وأرسلها إلى أهله فى أفريقية لتدفن فى القبر مع بقية جثمان أبيه، وخلال احتضار الخلافة، وامتد أعواما، أقام زاوى إمارة فى الجنوب الشرقى من الأندلس، واتخذ من غرناطة عاصمة لها، ونمت المدينة على نحو ملحوظ تحت حكم حفيده وخلفه حبوس، وكان من أصل بربرى، وتلقى تربية ممتازة، وحاول أن يصطنع لنفسه نسبا عربيا، وواصلت المدينة ازدهارها تحت حكم باديس الطاغية القاسى، والذى خلفه على الإمارة ، فأحاطها بالقلاع وزينها بالقصور، وأقام قصبة جديدة تمتد من القديمة حتى نهر الدارو، واتخذت الأسرة مقر إقامتها فى

(١٠) دوزى، تاريخ مسلمى إسبانيا، ٢/٢١٨.

أعلى القلعة، قريبا من القصبة القديمة[١١]. وكان فى أحد أبراجها تمثال لفارس من البرونز، يدور مع الريح وعليه نقش غامض، يتنبأ بسقوط غرناطة، وطبقا للمقرى كان مكتوبا فيه:

إيوانُ غرناطة الغراء معتبرُ طلسمُه بولاةِ الحال دَوَّارُ
وفارسٌ روحهِ ريحٌ تدبره من الجهاد، ولكنْ فيه أسرارُ
فسوف يبقى قليلا ثم تطرقه دهياءُ يخربُ منها الملك والدارُ[١٢]

وتحت حكم باديس وحكم أبيه من قبل، بلغ اليهودى صمويل بن ليفى، وابنه يوسف من بعد، منزلة رفيعة عالية، وكلاهما كان يتمتع بثقافة واسعة مصقولة، وتربية أدبية ممتازة، وعلى مهارة نادرة، وفطنة قادرة، فى التعامل والسلوك، وعرفا كيف يحوزان ثقة الأمير مطلقة، وأصبحت السلطة بكاملها تقريبا بين أيديهم، بينما الحقد يختمر فى أعماق الشعب ضد هذين الكافرين، واللذين كانا يلطعان المسلمين على باب قصورهما المذهبة، تتدفق فيها النوافير بالمياه النقية، ويهاجمان ساخرين عقائد المسلمين المقدسة[١٣].

وما لبث فقيه عربى أن أضرم نار الثأر بين المسلمين بقصيدة تنضح بالمشاعر الملتهبة، فأحال غرناطة الى شعلة من اللهب الحى، ومعها تفجرت الثورة، وأتت على نفوذ اليهود تماما، عام ١٠٦٦م، وفيها ذُبح عدد كبير من اليهود[١٤]، وبعدها

---

(١١) طبقا لمندوثا Mendoza، توجد الآن فى البيازين، قريبا من كنيسة سان كريستوبال.

(١٢) ليس ثمة شك فى أنه التمثال الذى يصفه مرمول فى كتابه «ثورة الموريسكيين»، الجزء الأول، الفصل الخامس، وهو شبيه بما يصفه المقرى، ولو أن مرمول يذكر صيغة للنقش تختلف عن هذه تماما، تقول: «كانت هناك قصور باديس بن حبوس، فى بيوت الديك، حيث نرى برجا صغيرا وفوقه فارس يرتدى ملابس عربية، على صهوة جواد، ومعه قوس، وعليه درع واق، وكلها من النحاس، ونقش على الدرع يقول: «يقول باديس بن حبوس: إن الأندلسى يجب أن يكون على هذه الصورة»، ومع أية حركة من الهواء يلتفت ذلك الفارس بوجهه، ويسميه الموريسكيون ديك الريح، ويطلق المسيحيون على هذه البيت: «دار الديك».

(١٣) دوزى، أبحاث، ١/٢٩٩.

(١٤) لمعرفة دور اليهود فى غرناطة وما انتهى إليه، انظر.

● الدكتور الطاهر أحمد مكى، دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، ص ٥٨ وما بعدها، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠. والطبعة الثانية عام ١٩٨٣.

● وراجع نص القصيدة كاملا فى: غرسية غومث، مع شعراء الأندلس والمتنبى، ترجمة د. الطاهر أحمد مكى، ص ١٢٥ - ١٢٧، الطبعة الرابعة دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥م. (المترجم)

بزمن غير طويل انتهى حكم الصهناجيين أيضا، وأزاح أميرُ المرابطين يوسف بن تاشفين الأميرَ عبد الله حفيد باديس عن العرش، ومثله فى ذلك بقية أمراء الطوائف الصغار فى شبه جزيرة إيبريا، واستولى على قصره، ووجد فيه خزائن طافحة بالثروات الهائلة، ووجد كل غرفه مزينة السقوف، ومفروشة بالسجاد، وغنية بالستائر الغالية الثمن، وحيثما اتجه بصرك يقع على ياقوت يلمع، أو زمرد يبرق، أو ماس يغشى البصر، أو لؤلؤ نادر الوجود، وأكواب من البلور والفضة والذهب، ونال الإعجاب بخاصة عقد يضم أربع مئة قطعة من اللؤلؤ، كل واحدة منها تساوى مئة دكادوس Ducados[١٥].

وفى الأيام التى تلت الثورة مباشرة توارت غرناطة من جديد، وعادت مدينة إقليمية، وأوشكت أن تضيع من يد المسلمين خلال الحملة الجريئة التى قام بها ألفونسو الأول ملك أرجون، لأن المسيحيين الذين كانوا يقيمون فى المدينة ويعانون من اضطهاد وتعصب المرابطين أرسلوا سفارة سرية إلى ملك أرجون، يحثونه فيها على غزو جنوب الأندلس، ويقول ابن الخطيب: «وتوالت عليه كتبهم، وتواترت رسلهم ملحة بالاستدعاء، مطمعة فى دخول غرناطة، فلما أبطأ عنهم وجهوا إليه زماما يشتمل على اثنى عشر ألفا من أنجاد مقاتليهم، ولم يعدوا فيها شيخا ولا غرا، وأخبروه أن من سموه، ممن شهدت أعينهم لقرب مواضعهم، وبالبعد من يخفى أمره، ويظهر عند ورود شخصه، فاستأثروا طمعه، وابتعثوا حشفه، واستفزوه بأوصاف غرناطة ومالها من الفضائل على سائر البلاد، وبفحصها الأفيح، وكثرة فوائدها من القمح، والزيتون، وأنواع الفواكه، وكثرة العيون والأنهار، ومنعة قبتها، وانطياع رعيها»[١٦].

ونتيجة لهذه الإثارة قام ألفونسو الأول عام ١١٢٥ م بحملة تعمق فيها حتى قريب من غرناطة، وظل معسكرا أمام المدينة مدة عشرة أيام، ولكن ظروفا مواتية اضطرته مع ذلك أن يتنازل عن برنامجه الحربى، وأن ينسحب عائدا من حيث أتى،

---

(١٥) دوزى، تاريخ أسبانيا، ٢٣١/٤.

● الدكادو عملة ذهبية اسبانية قديمة. (المترجم)

(١٦) دوزى، أبحاث، ٣٤٨/١.

وبدل أن تسقط غرناطة فى يد المسيحيين قبل بقية المدن الاسلامية الرئيسية الأخرى ظلت آخر معقل للإسلام فى شبه الجزيرة الإيبرية ،وعندما بدا أن انهيار المسلمين فى إسبانيا ليس ببعيد، حين استولى سان فرناندو على إشبيلية، وخايمه الأول ملك أرجون على بلنسية، وأخذت معاقل المسلمين تساقط واحدة وراء أخرى فى قبضة المسيحيين ، رفع راية الثورة ثلاثة قواد ينتمون الى الأسر العربية العريقة وهم : ابن هود، وابن مردنيش، وابن الأحمر، دفاعا عن القرآن، وفى الوقت نفسه للسيطرة على إسبانيا أيضا.

● **بنو نصر فى غرناطة :**

أمّا ابن الأحمر، «محمد بن يوسف بن نصر» فهو من أسرة تنتسب فى الخزرج، أحد فرعى الأنصار وأصلهم من أرجونة من حصون قرطبة، ولهم فيها سلف من أبناء الجند ويعرفون ببنى نصر.

ومن المحتمل أن مؤسس هذه الدوولة بنى القصور الملكية التى تحمل اسم الحمراء، واختارها أن تكون محل إقامته، فوق قمة الجبل، كما نراها الآن، على أنقاض قلعة قديمة أخرى، أقيمت فى القرن التاسع الميلادى، وكانت تدعى الحمراء أيضا[١٧]. وهذه الكلمات الأخيرة يجب أن تكون موضع اهتمامنا، لأن اسم الحمراء يطلق على كل مجموعة القصور التى توجد اليوم فوق قمة الجبل الذى يحكم غرناطة، ودون الإضافة السابقة يمكن أن نشك فيما إذا كان ابن الأحمر يملك قصرا هناك. وكان شعاره «لا غالب إلا الله» يلمع على كل جدران القصر، واتخذته أسرته شعارا لها من بعد، وقام خلفاؤه باستمرار بتوسعات متوالية فيه، وتجميله، وتكملته، وزينوا أيضا ربى غرناطة وفجها بالقصور والمنيات، أو البيوت الريفية، وبنوا المساجد والمدارس والمشافى والحمامات والخانات والأسواق. وكان يوسف أبو الحجاج وحكم من ١٣٣٣ إلى ١٣٥٤م أبرز بنى نصر فى إقامة الأعمال المعمارية العظيمة، وجاءت مبانيه مثلا فى ضخامتها وروعتها فأكسبته شهرة واسعة، وقيل عنه إنه كان يملك سر تحويل المعادن إلى الذهب. وسار محمد الخامس على خطى أبيه، وتعتبر الفترة التى مرت بين إنشاء هذه المملكة وبين وفاته عام١٣٩٠ أعظم

(١٧) تاريخ ابن خلدون، ٢٧٤/٢، وانظر أيضا : المقرى، نفح الطيب، ٢٩٢/١.

الفترات ازدهارا فى المعمار الغرناطى، وفى هذا العصر أيضا تم بناء الحمراء، كما تشير إليه النقوش التى لا تزال على أبوابها الرئيسية حتى اليوم.

وظلت مملكة غرناطة زمنا طويلا لا تخشى تهديد الأمراء المسيحيين على نحو جدى، لأن هؤلاء كانوا مختلفين فيما بينهم قلوبا وكلمة، ولكن الموقف أصبح مختلفا عندما تزوجت الملكة أيزابيل مملكة قشتالة، ومؤسسة الملكية فى أسبانيا، من فرناندو ملك أرجون، وحشدت كل قوتها لتدمير معقل الإسلام الأخير، إلى جانب الخلافات الحادة والقوية بين أعضاء الأسرة المالكة فى غرناطة، ولعبت دورا هاما فى التعجيل بنهايتهم، أكثر مما فعل سلاح قشتالة نفسه، وأدت إلى ضياع غرناطة. وعندما نصل إلى المرحلة االأخيرة من هذا الضياع نجد أنفسنا قد انتقلنا من وضح التاريخ إلى عالم الأساطير. وعلى نحو ما صيغت القصص والحكايات حول لذريق آخر ملوك القوط فى اسبانيا كذلك كان الأمر فيما يتصل بشخصيات آخر ملوك غرناطة: أبى الحسن وابنه أبى عبد الله أو BOABDIL كما يرد فى المدونات الإسبانية. ويهبط ستار أسطورى على الأشخاص والأحداث، ويصعب علينا كثيرا خلال ضوئها المرتعش، أن نتبين ما هو تاريخ ووقع فعلا.

ومن تلك الروايات الشهيرة، وما أكثر ما تتردد فى صور عديدة، تختلف فى القصص عنها فى الشعر، وتحدثنا عنها فى الجزء الثانى من هذا الكتاب[١٨]، ويكفى أن نذكر هنا الصراع الذى كان قائما بين بنى سراج وأبى عبد الله الصغير، وكيف أعدم هذا أولئكم فى بشاعة وقسوة. ومن الواقع المؤكد أن الملك وابنه كانا يتصارعان فيما بينهما من أجل الاستيلاء على العرش والسلطة المطلقة، وأدى هذا الصراع الملكى إلى إشاعة الفوضى، وانتشار العصابات والحروب الأهلية فى كل أنحاء المملكة، وكان من سوء حظ المسلمين أن هذه الأحداث التعسة وقعت فى أشد أوقاتهم حاجة إلى أوثق ألوان التضامن والوحدة، لكى يقاوموا القوة المسيحية الزاحفة. ومع ذلك فإن أبا الحسن نفسه بدأ الحرب جريئا ومذهلا، واستولى جنوده على قلعة الزهراء، وأعدموا كل حراسها، وبذلك أعطى إشارة البدء فى الكفاح، ويومها تظاهر الفقهاء فى الشوارع يتنبئون بالشقاء القادم، ويتكهنون

---

(١٨) سوف نصدر الجزء الأول والثانى فى مجلد واحد، بعنوان: «الشعر العربى فى أسبانيا وصقلية» قريبا.

(المترجم)

بسقوط المملكة، وما أسرع ما ندم الملك على عمله السيئ عندما جاءه الخبر بسقوط الحمة قلعته الحصينة، فمضى ممتطيا صهوة جواده على نحو ما تصوره الأغنية الرومانثية :

ومن باب إلبيرة
حتى باب الرملة.

وعض بنان الندم قائلا :

آى يا للحمة قلعتى الحصينة!
عندما كنت فى الحمراء،
أمرت أن يرفعوا السلاح،
وأن يدقوا الطبول.
وكانت «الترمبيطة» من فضة.

وحينئذ وصل مسرعا شيخ فقيه :

كث اللحية، أبيض الشعر،

وقال له :

جيدا شغلت نفسك أيها الملك الطيب،
أيها الملك الطيب شغلت نفسك جيدا،
قتلت بنى سراج،
وكانوا زهور غرناطة.
ولهذا تستحق، أيها الملك، الجزاء مضاعفا :
أن تضيع أنت والمملكة.
وأن تضيع غرناطة!.

ومع ذلك فإن الضربة الأخيرة قدر لها أن تسقط على رأس ابنه، وبينما كان دم مواطنيه يتدفق عبر شوارع غرناطة، كان المسيحيون خارجها يستولون على القلاع واحدة وراء آخرى. وأخيرا توفى أبو الحسن، ووجد أبو عبد الله نفسه وحيدا على العرش، ولم يبق أمامه إلا أن يدافع عن عاصمته نفسها، وقد أقام على بعد ميلين من أبوابها الملكان ايزابيل وفرناندو فى مدينة سنتافيه Sanita Fe، وأقاماها بنفسيهما.

ولم تكن النتيجة النهائية لهذا الصراع موضع شك أبدا، فقد أظهر أبو عبد الله

ضعفه منذ البدايه، واستسلم أخيرا، وسلّم المدينة فى صباح ٢ من يناير عام ١٤٩٢، ورفع الكاردينال بدرو جونثالث مندوثا الصليب الفضى على أعلى أبراج الحمراء، وكان الجيش الاسبانى الكثيف، والملكان نفساهما، لا يزالون معسكرين فى وديان أرملة Armilla، وعندما ارتفع الصليب المقدس تجرحه أشعة الشمس المشرقة، سجدوا جميعا شكرا للسيد الخالق، وأخذوا يترنمون بقداس Te Deum، وبدأت الجيوش تتقدم نحو المدينة فى بطء، بينما أخذ أبو عبد الله طريقه نحو جبال البشرات حيث تركوا له بعض الضياع، وفوق أعلى ربوة من جبل بدول Padul أرخى عنان فرسه، وألقى آخر نظرة على غرناطة، وفى هذه اللحظة اكتشف امتدادها الرائع، وسط الفج الأخضر، فأثاره المنظر إعجابا، وأرسل زفرة حرى، وتنهد قائلا : « الله أكبر »، وبدأ يبكى فى مرارة، ولكن أمه، وكانت ترافقه، قالت له : ابك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه كالرجال[١٩]. ومنذ تلك اللحظة

---

(١٩) ترد هذه القصة فى دقة متناهية، نقلا عن شيوخ الموريسكيين عند مرمول كربخال فى كتابه « وصف أفريقيا »، جـ ١ ص ٢٤١، والراهب أنتونيو جيبارة Angonio Guevara فى كتابه : « رسائل عائلية »، ورواية هذا الأخبر تجىء على النحو التالى :

« وكما عرفت فى منحدر يغيب فوقه منظر غرناطة، وتبدو بلد لكرين Valdelcrin قال لى موريسكى عجوز كان يرافقنى هذه الكلمات فى أعجمية رديئة : إذا أردت أنت، أيها الفقيه، توقف هنا قليلا قليلا، وسأقص لك شيئا عظيما : إن الملك الصغير ووالدته مروا من هنا فى يوم مضى، بعد أن سلم المدينة والحمراء إلى الملك دون فرناندو، ثم رحل الملك الصغير إلى جبال البشرات، وهذه الأرض نص فى عقد الاستسلام على أنها تبقى له يتمتع بها. وكان مع الملك الصغير فى ذلك اليوم الملكة أمه، هى فى المقدمة، وبقية فرسان بلاطه فى الخلف، وعندما وصلوا إلى المكان الذى تحت أقدامنا، أنت وأنا الآن، التفت الملك إلى الوراء لينظر إلى غرناطة والمدينة كشىء لا أمل له فى أن يراه مرة أخرى وأبعد من هذا أن يسترده. وتذكر الملك الحزين، والذين كانوا معه ويمضون فى رفقته، النكبة التى حلت بنا، والمملكة الشهيرة التى فقدناها، فأجهشوا جميعا فى البكاء، وبدأوا يشدون لحاهم، وقد علاها الشيب، ويطلبون الرحمة من الله، وحتى من الموت أن ينتزع منهم الحياة. وعندما قالوا لأم الملك وكانت تسبقهم، أن الملك وكل الفرسان توقفوا جميعا، وأخذوا ينظرون إلى الحمراء والمدينة اللتين فقدوهما ويبكون، شحذت فرسها بضربة، وقالت هذه الكلمات : حقٌ أن يبكى الملك والفرسان مثل النساء لأنهم لم يقاتلوا دفاعا عنها مثل الرجال. وكثيرا ما سمعت ياسيدى، أو عرفته فيما بعد، أو عرفت ما قالته هناك الأم للملك الصغير، أو قالته أمهات الفرسان لأبنائهن، وأنهم قاتلوا هناك بعضهم البعض، أو عادوا إلى غرناطة ليناضلوا ضد المسيحيين ».

كان هذا ما قاله لى ذلك الموريسكى.

وذات يوم سألنى الامبراطور سيدى، ولا أذكر سبب زيارتى له، وأثناء الحديث ذكرت له ما قصصت لكم، فقال لى هذه الكلمات : لقد كان الحق كله مع أم الملك فى أن تقول له ما قالت، ولم يكن الحق مع الملك فى شىء مما فعل، ولو كنت أنا هو، أو كان هو أنا، لاتخذت من الحمراء قبرا لى قبل أن أسلمها، ولا أعيش دون مملكة فى جبال البشرات.

أطلق على هذا المكان «زفرة المسلم الأخيرة»، وأيضا اسم ؛ «قمة الله أكبر».

وكل ما نعرفه عن الأحداث الأخيرة فى حياة آخر ملوك غرناطة أنه بعد أن أقام مدة قصيرة فى جبال البشرات[٢٠] عبر مع أسرته إلى العدوة الأخرى، أى المغرب، وعاش حتى موته فى مدينة فاس حيث أقام عددا من القصور على الطراز الأندلسى، وكانت بقية من أسلافه لا تزال تقيم فى فاس حتى القرن السابع عشر الميلادى «يأخذون من أوقاف الفقراء المساكين، ويعدون من جملة الشحاذين».

● سقوط غرناطة واضطهاد المسلمين :

وهكذا انتهت الدولة العربية فى إسبانيا بعد حكم دام قريبا من ثمانية قرون، وكانت أيام المسلمين الأخيرة على أرض الأندلس قاسية، وطردوا منها أخيرا نهائيا، ويشكل إخراجهم حلقات متصلة من التعاسة، وحين نتأملها الآن يجتاح الألم داخلنا، ونلعن أولئكم الذين تسببوا فى محنة شعب تعس، وآلام قوم مهزومين[٢١]. نعم، كان من الممكن أن تسعدنا الأعمال الحربية التى قام بها

---

(٢٠) وصلتنا الرسالة التى توجه بها أبو عبد الله إلى سلطان فاس، وهى من إنشاء كاتبه (المجيد البارع البليغ أبى عبد الله محمد بن عبد الله العربى العقيلى، رحمه الله تعالى، وسماها بـ «الروض العاطر الأنفاس فى التوسل إلى المولى الأمام سلطان فاس»، وسوف أورد فيها يلى أبياتا من مطلعها فضولا لا لقيمتها الشعرية :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم	رعياً لما مثلُهُ يُرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن	جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلما	وأفظع الخطب ما يأتى على الرغم
حكم من الله حتم لامرد له	وهل مرد لحكم منه منحتم
هى الليالى وقاك الله صولتها	تصول حتى على الآساد فى الأجم
كنا ملوكا لنا فى أرضنا دول	نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صيب	يرمى بأفجع حتف من بهن رمى

(٢١) لم يجد تاريخ المسلمين الذين ظلوا فى الأندلس بعد استيلاء المسيحيين عليها من التمجيد به، وتسجيله، والاهتمام به، إلا منذ فترة قريبة جدا. فقد كتب المؤرخ االفرنسى دى سيركور de Circour تاريخ المسلمين المدجنين أولا، وبعد ذلك درسه المستشرق الاسبانى العلامة فرانسيسكو فرنانديث أى جونثالث F. Fernandezy Gonz´alez بتوسع وأفاضة وعمق ومعلومات أوفر، فى كتابه : الحالة الاجتماعية والسياسية للمدجنين فى قشتالة. وهى دراسة بالغة الأهمية، ونالت جائزة مجمع التاريخ فى مدريد عام ١٨٦٥ م. وقبل ذلك بأعوام نال الجائزة نفسها كتاب آخر هام فى معرفة هذا الجانب من تاريخنا، ألفه فلورنثيو خانير Florencio Janer، وعنوانه : الظروف الاجتماعية للموريسكيين فى إسبانيا، وأسباب طردهم. ولم يستطع فون شاك مؤلف هذا الكتاب أن يمس هذه النقاط إلا عابرا، ولذلك نحيل القارىء إلى الدراستين المذكورتين. (خوان باليرا)

الفرسان المسيحيون فى حرب غرناطة وأن نراها شيئا هاما، لو أنهم معها وفوا بما عاهدوا عليه، واتصفوا بالسماحة مع الخصم المهزوم واحترامه، لأن المسيحى الحق، وعقيدته هى الإحسان واللطف والعدالة وصفاء القلب، يحمل فى أعماق نفسه ملمحا من الأصالة الإلهية دون حاجة إلى شواهد من المعجزات. نعم، له أن يأمل فى الانتصار على الإسلام، ولكن الدين الذى يستخدم العنف مع الذين يؤمنون بعقائد أخرى لكى يحملهم بالتهديد والحديد والنار على اعتناق عقائده ومبادئه، يبعد الأنظار عنه، ويصرفها عن الإيمان الحق به، وتتجافاه وقد امتلأت رعبا وكرها[٢٢].

لقد نصت المعاهدة التى سلّم المسلمون بمقتضاها غرناطة على أن تترك لهم مساجدهم، وأن يتمتعوا بالحرية الكاملة فى أداء شعائرهم، وأن يتقاضوا فيما بينهم طبقا لشريعتهم، وعلى يد قضاتهم أنفسهم، ولا يُضيّق عليهم فى التمتع الكامل بكافة ممتلكاتهم، ولا يزعجهم أحد فى تقاليدهم وعاداتهم، ولغتهم وأزيائهم. وخلال الأعوام الثمانية الأولى لم يشك أحد منهم نقض هذا الاتفاق، وأرسل الأسقف طلبيرة، التقى حقا، جملة خرجت من فمه وأصبحت مثلا شهيرا: «هؤلاء المسلمون تنقصهم عقيدة الإسبان على حين ينقص هؤلاء أعمال المسلمين الصالحة». وليصبح الجميع مسيحيين طيبين قام فى الحقيقة بهداية كثيرين للدخول فى المسيحية، وربح القلوب بطيبته، وقوة بلاغته، واستبعد دائما كل محاولة لإدخال المسلمين فى المسيحية بالقهر والغلبة، لأنها وسائل غير مفيدة وغير مشروعة.

وكان على الموريسكيين أن يهنئوا أنفسهم أيضا بالكونت تنديا Tendella حاكم غرناطة، فقد وقف إلى جانبهم، ومع ذلك فإن أشد الهواجس قتامة كانت حينئذ تسيطر على أنفسهم ومشاعرهم، وتذكر الكثيرون منهم أعمال القسوة والغدر التى ارتكبها الملكان الكاثوليكيان أنفسهما، كالأمر باسترقاق كل سكان مالقة المسلمين بلا تمييز، وكانا لا يزالان على قيد الحياة، والأحداث قريبة، وحية فى ذواكرهم، فلم يهدأ لهم بال، ولم يستطيعوا النظر إلى المستقبل بعين الثقة واليقين.

---

(٢٢) علق خوان باليرا، المترجم الاسبانى على هذه الفترة، فدفع التعصب عن الاسبان، وأنهم لم يكونوا بأفظع من بقية أوربا، ولطول دفاعه أتينا به فى الملحق آخر هذا الكتاب، أنظر الملحق رقم ٥. (المترجم)

● **موريسكى يصف مأساة قومه :**

وتشهد بما سبق مخطوطة هامة، كُتبت باللغة القشتالية، ورُسمت فى حروف عربية، أو ما اصطلح على تسميته باللغة المستعجمة، Aljamiado، ورأيتها فى المكتبة الوطنية فى مدريد[٢٣]، ويذكر كاتبها وهو مسلم، أنه زار أخاه فى الدين يوسف بن العاص Jos´e Ben´egas فى بيته الريفى، على بعد فرسخ من غرناطة، وهناك تحدث اليه بما يلى :

«أعرف جيدا يابنى أن أحداث غرناطة تثير الحسرة فى قلبك، ولكن لا تندهش إذا تحدثت معك عنها، فلا تكاد تمر لحظة دون أن تهز كيانى، ولا يكاد يمر يوم دون أن تمزق أحشائى، ولم يحدث أبدا أن تعسا بكى حاله، كما بكى أبناء غرناطة مدينتهم، لا تشك فى كلماتى لأننى واحد منهم، وكنت شاهد عيان على ما وقع، ولقد رأيت بعينىّ هاتين أن كل السيدات الكريمات، متزوجات أو أرامل أو عذراوات، تعرضن للاغتصاب، وأن أكثر من ثلاث مئة فتاة بعن فى السوق العامة علانية، وأنا نفسى فقدت ثلاثة من أبنائى، مات الجميع دفاعا عن دينهم، واختطفوا منى زوجى وبنتين، بقيت معى فحسب هذه البنت الوحيدة لتسليتى، وكان لها من العمر حينئذ سبع سنوات، وبقيت وحدى منفيا فى هذا العالم، لتكن إرادة الله فيلطف بى، ويحملنى من هنا سريعا. آه يا بنى ! . . ».

«أنا لا أبكى على ما حدث، إن البكاء لا يحول دون ما كان أن يقع. وإنما أبكى لما سوف تعانونه إذا ظللتم على قيد الحياة، وبقيتم فى الأرض، فى هذه الجزيرة الإسبانية. فليسامحنى الله ببركه قرآننا الكريم، وأدعوه ألا تتحقق نبوءتى، وألا تصبح واقعا أراها بعينى. ولا زلنا ننتظر المزيد من الاضطهاد لديننا، وأخوتنا يسألون : ما حقيقة صوت المؤذن الذى كان يدعو إلى الصلاة؟ ما هى عقيدة أسلافنا؟، وكل ذلك يورث الحسرة والحزن لمن فيه بقية من شعور، ويزداد الألم ويكبر حين يرد فى الخاطر أن المسلمين سوف يصبحون كالمسيحيين، يحتقرون

---

(٢٣) المخطوطة رقم ج ٤٠، وعنوانها :
«Sumario de relaciony ejercicio esperitual, Sacado y declarado Por el mancebo de Ar´evalo»

أزياءهم، ويشمئزون من طعامهم، أو على الأقل لا يحسون بجلال الله الذى يرتضون أعماله، ويحفظون فى قلوبهم شريعته».

● **الكاردينال خمينث يحرق الكتب العربية :**

ولم يبعد الزمن بهذه النبوءة فتحققت كلها ! ، لأن الحزب المتعصب والمتحمس بين رجال الدين كان قويا للغاية، وعرف كيف يقود حملة إرغام المسلمين على تغيير عقيدتهم، ولم يراودهم تردد فى اختيار الوسائل العنيفة، على نحو ما ساور الأسقف طلبيرة قبلهم من شك فى صلاحيتها.

وقاد الحملة الكاردينال خمينث الشهير، ولم ير خيرا فى استخدام الإقناع مع مسلمى غرناطة، فبدأ يستخدم كل وسائل الإفساد والحيلة لكى يحول بين المؤمنين وبين عقيدتهم فى القرآن، ولم يقف بمحاولته عند الدين فحسب، وإنما تجاوزه إلى الكتب العربية نفسها، ولعل بينها ما لا تربطه بالدين أية صلة. فجمع المكتبات الضخمة فى غرناطة، وكانت قد ورثت كل ما كان فى مكتبات قرطبة وإشبيلية ومدن أخرى سقطت فى يد المسيحيين، وشهدت فى عهدها الإسلامى ازدهارا منقطع النظير، وظن الكاردينال أنه يقوم بعمل جليل عندما يقضى على المخطوطات العربية التى افلتت من فتن البربر الغاضبة والعاصفة، ومن تدمير أوائل الغزاة المسيحيين، وبأمر منه جمعت كل المخطوطات العربية التى أمكن لجنوده أن يستولوا عليها، ووضعت كلها فى كوم كبير وسط الميدان الرئيسى فى المدينة، ولم يشفع لها الموضوع الذى تحتوى عليه، ولم تكن له أية صلة بالقرآن فى أحايين كثيرة، ولم تستطع روعة الخط، ولا فخامة التجليد، أن تجد طريقها إلى عينيه أو قلبه، فتنقذها من هذا المصير المحتوم. وليس لهذا العمل من شبيه فى التاريخ إلّا إحراق مكتبة مدينة الإسكندرية العظيمة، ويقال أن الذى أمر بذلك الخليفة عمر بن الخطاب فى أيام الإسلام الأولى، وكانت عاصفة، وهى تهمة لا دليل عليها، بل على العكس يراها جميع المؤرخين تقريبا ضربا من الأساطير. ولكن مما لا شك فيه أن كبيرا من رجال الدين المسيحى، هو الكاردينال ثيسنيروس خمينث، قدم إلى النار فى عصر نهضة العلوم أكثر من مئة ألف مخطوط عربى، تحوى قرائح الشعراء والعلماء العرب، وثمرة ثمانية قرون من دراسة واسعة، وثقافة مبدعة، وفكر متميز، ولم يعف إلا عن عدد محدود من كتب الطب فحسب،



شارع زفرة Zafra ويبدو فى أعلاه أحد أبراج الحمراء

وللمبالغة فى تمجيد هذا الرجل المقدس، يقول أنصاره والمعجبون به، بأن الكتب التى أمر باحراقها بلغت مليونا وخمسة آلاف مخطوط أو تزيد[٢٤].

● المسلمون يقاومون تنصيرهم بالقوة :

أدى الأسلوب العنيف الذى سلكه الكاردينال خمينث لكى يحقق خطته الرامية إلى إرغام المسلمين على اعتناق الكاثوليكية إلى ثورة فى حى البيازين، وهو الحى

(٢٤) روبلس، ثورة الموربسكيين، ص ١٠٤. وأنظر أيضا : موجز حياة ثيسنيروس.

الذى كان يسكنه الموريسكيون وحدهم فى المدينة، وعندما علم الملكان ايزابيل وفرناندو بما حدث، نددا بقوة بحماسة الأسقف الدينية التى زادت عن حدها، غير أن الكاردينال عرف بعد أن أخمدت الثورة كيف يهدئ كدر الملكين فى بلاغة سوفسطائية. ومع أنه لم يحصل على موافقة صريحة، لكنه أيضا لم يجد أية معارضة واضحة فى تحقيق غاياته بهذه الأساليب، وهكذا أصدر قراره وحيدا، وعلى مسئوليته، بأن الموريسكيين ارتكبوا جريمة الخيانة العظمى، ورحمة بهم عليهم أن يختاروا بين الهجرة وبين أن يعتنقوا الكاثوليكية. وحينئذ اختار كثيرون من هؤلاء التعساء أن يفارقوا وطنهم وديارهم، ولم يرد الآخرون، أو لم يستطيعوا، أن يتركوا أرضهم، فخضعوا للقدر، وعمدوا قسرا.

وهكذا نقض الإسبان علانية المعاهدة التى صالحوا عليها المسلمين فى مملكة غرناطة، على حين كانوا الموريسكيون يفون تماما بكل ما يعدون به. وقد حاول الكونت تنديا أن يهدىء من ثورة البيازين، فوعد الساخطين بأن يقضى على أسباب شكاواهم، وأن ينفذ شروط التسليم بدقة، وليبرهن على عزمه فى تنفيذ ما وعدهم به ترك فى أيديهم زوجه وابنان له، ولكن. . بدل أن يصادق الملكان على ما وعد به الكونت وصل القرار الذى أشرنا إليه من قبل، ومعه مزقت شروط التسليم، وديست كلها بالنعال، ومع ذلك رد سكان البيازين إلى الكونت الرهائن التى تركها فى أيديهم. ويبدو سلوك المسيحيين أكثر وضوحا فى وحشيته، وأشد إثارة للغيظ، حين نتأمل أنهم أنفسهم تمتعوا دائما تقريبا تحت الحكم الإسلامى بكل حريتهم الدينية، باستثناء حالات نادرة حين أثاروا هم أنفسهم المسلمين ضدهم، أو تحت حكم البربر، ولم يحدث أبدا أنهم عانوا الملاحقة والتضييق[٢٥].

---

(٢٥) يحاول بعض الكتاب المحدثين إيجاد عذر أو تبرير للاضطهادات العنيفة التى قام بها الإسبان، بأن يقدموا العرب على أنهم قوم متعصبون، ويذكرون المذابح التى تعرض لها المسيحيون تحت الحكم العربى، ولكن المقارنة بين أرقام هؤلاء والذين ذهبوا ضحية محاكم التفتيش تبرهن على أن عدد المسيحيين كان صغيرًا جدًّا. ويبرهن التاريخ فى الدراسة الرائعة التى قام بها دوزى (١٠٤/٢)، بعد أن راجع الوثائق الخاصة بهذه القضية، أن أحكام الموت كان سببها المسيحيون أنفسهم، فهم نهمون إلى الاستشهاد أخذوا يسبون الرسول. والدليل الذى لا يجحد على حقيقة ما تمتع به المسيحيون من حريات تحت الحكم الإسلامى، أن الرعايا المسيحيين فى عهد الإمارة الإموية، وفى عهد ملوك الطوائف من بعدهم، كانت لهم كنائسهم وأديرتهم وقساوسهم، ويمارسون طقوسهم الدينية دون أدنى متاعب، ويدقون حتى نواقيس كنائسهم. أما الشتائم التى يوجهها لئام الناس، ويوجد مثلها فى كل البلاد وبين كل الأديان، فلابد أنهم عانوا منها كثيرًا. وساء موقفهم تحت حكم المرابطين، والموحدين بعدهم، وحكموا الاندلس=

من الواضح أن الإسلام لا يتسامح فيما يتصل بالمبادئ، والجهاد وحمل السلاح من أركانه الجوهرية التى دعا إليها، ولكنه عامل المهزومين فى تسامح حلو، وبينما كانت أوربا تغتال اليهود فى كل مكان، وتحرقهم أحياء، وجدوا فى الأندلس الاسلامى حريتهم كاملة، وحين انتصرت المسيحية فى إسبانيا حدث لهم العكس تمامًا. إن الحب والدماثة من أولى وصايا مؤسس المسيحية، ولكن المسيحيين حيثما اتجهت لا يعملون بتلك الوصايا إلا حين يكونون ضعفاء فحسب. وطبعًا يمكن أن نوجه الاتهام الخطر إلى كل الجاليات المسيحية بأنها، حتى وهى بعيدة عن السلطة تماما، حين تتعصب ضد كل من يفكرون بطريقة تختلف عنها، إنما يتنكرون ويعارضون روح المبادئ التى يؤمنون بها.

وعندما أكره المسيحيون مسلمى غرناطة على اعتناق الكاثوليكية كرها اختفى اسم الإسلام من تاريخ إسبانيا، وحل مكانه اسم الموريسكيين[٢٦] ومن الواضح أن اعتناقهم الكاثوليكية كان فى البدء، وظل كذلك فيما بعد، مجرد إجراء ظاهرى فحسب، وحافظوا بعامة على عقائدهم التى تشربوها فى سنيهم الأولى، فى حسم بالغ وتصميم عنيد. وحتى اليوم، من النادر جدًّا أن نجد بينهم من يغير دينه وأصعب من هذا بكثير أن يعتنق المسيحية. أولا لأن الايمان بواحدانية الله يمثل الركن الأول فى الإسلام، والقول بأن لله ولدًا كفر صراح وأدانه القرآن فى سورة مريم[٢٧]. وثانيًا لأن عقيدة التثليث تبدو مناقضة لجوهر الإسلام فى دعوته إلى

= أثر حركة قام بها الفقهاء المتعصبون لدعوتهم. ولم يحدث أبدا أن تعرض المسيحيون على الأرض الإسبانية لأية ملاحقة من المسلمين، يمكن أن تقارن ولو من بعيد، بالطريقة المضنية التى اتبعت فيما بعد مع المسلمين المهزومين.

(٢٦) وهكذا يبدو الفرق واضحًا بين كلمتى مدجنين Mudejares وموريسكيين Moriscos، وفيما يبدو يجب أن نفهم أن لفظ موريسكى يطلق على كل مسلم بقى فى أسبانيا بعد سقوط غرناطة، واعتنقوا الكاثوليكية طوعًا أو كرهًا. أما كلمة مدجن، وكانت مستخدمة فى العصور الوسطى، فتطلق على المسلمين الذين أصبحوا رعايا الملوك المسيحيين الأسبان، طبقًا لشروط التسليم أو المعاهدات، واحتفظوا بحقهم فى أن يظلوا مسلمين، وأن يمارسوا طقوسهم الدينية أحرارًا، وأن يتقاضوا فيما بينهم طبقًا لقوانينهم. وثمة اختلاف بين المستشرقين الاسبان حول أصل كلمة مدجن، لا نستطيع نحن الذين لسنا منهم أن نحيط به، ولكن لا نستطيع أن نكتم اعجابنا من أن اللغة العربية تتيح مجالا فى كل خطوة لمثل هذا الخلاف وقد حاول فرنانديث، وجو نثالث، وموللر، وانجلمان، ودوزى، وآخرون أن يبحثوا عن الأصل الحقيقى لكلمة مدجن، واختلفوا فيما بينهم، ودافع كل واحد منهم عن فكرته، ومع كثرة الآراء الواردة من الخير ألا نقبل أيا منها، وأن نرفضها كلها. (خوان باليرا)

(٢٧) يشير إلى الآيتين رقم ٨٨ و٨٩: «وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا لقد جئتم شيئًا إدًا» (المترجم)

وحدانية الله، حتى أنهم يتهمون المسيحيين بالشرك، وإذن فباستثناء التعميد، وأكرهوا عليه قسرًا، وتلقوه بالقوة، ظل الموريسكيون أوفياء لعقيدتهم الإسلامية فى السر، وعلينا أن نأخذ فى الاعتبار أن محاكم التفتيش فى غرناطة وجدت بالكاد حقلا جد مجدبًا[٢٨].

وفى عام ١٥٢٦ م دخلت المحكمة المرعبة عاصمة أبى عبد الله، وكانت حتى ذلك الوقت ترسل أشعتها الصاعقة من بعيد. وحينئذ ظهر قانون يمنع الموريسكيين من استخدام لغتهم العربية فى الكتابة أو الحديث، أو استخدام ألقابهم العربية، أو ارتداء أزياءهم القومية، وبعد قليل صدر القرار الذى يحرم استخدام الحمامات، وكانت ضرورة عند المشارقة، أو السمر والرقص الليلى، أو الغناء على الطريقة العربية، أو استخدام الآلات الموسيقية الموريسكية، وطبق عليهم بمنتهى القسوة، وكان القسس ينادونهم بأسمائهم اسمًا وراء آخر، ويهددون من يتخلف منهم عن حضور القداس الكاثوليكى فى الكنيسة، وهو أمر كان الموريسكيون يمقتونه ويرفضونه بقلوبهم، وكانت النتيجة الحتمية لهذا العنف أنهم التصقوا بعقائد آبائهم بقوة أكثر، وفى تصميم حاسم. وكان القسس يقرأون فى كل عام فى الكنائس قرارًا يعرف بأنه «بلاغ» وفيه تأمر محكمة التفتيش المسيحيين، أو الذين دخلوا المسيحية حديثًا بأقسى العقوبات إذا لم يبتعدوا عن كل ملمح يمكن أن يثير الشبهة بأنهم مسلمون، وعلى الرغم من هذا، ومن استخدام جيش من جواسيس المحكمة المقدسة يحيط بالموريسكيين ويتابعهم، فإن هؤلاء ظلوا على عقيدتهم فى صمت لم يتزحزحوا عنها قيد أنملة، والذين ارتدوا ظاهرا قناع الكاثوليكية فى حياتهم كانوا يلقون بها أرضًا، على الأقل لحظة الموت وهم يودعون الحياة، ويعترفون علانية بأن «لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» مما كان يثير الألم والغيظ فى نفوس رجال الدين الكاثوليك. وهكذا امتلأت القيود الحديدية، واستخدمت كل وسائل الارهاب والتعذيب، حتى بدا أنه لم يبق فى غابات الاندلس حطب كاف لإحراق من يؤمنون سرًا بالقرآن.

---

(٢٨) كتب جيوفانى نجرو كاتب سفير البندقية رسالة من غرناطة يخبر فيها بقدوم أعضاء محكمة التفتيش، يقول: أقاموا لنا مأدبة حافلة وجميلة، انظر:

Inscrizio inveneziane recolte de Cigogna, fascicolo XXIL, Pag 339.

● آخر مرثية أندلسية نعرفها :

بقى لنا حتى اليوم، عن زمن التعاسة والشقاء هذا، مرثية أندلسية ربما كانت آخر قصيدة شعر عربية ولدت على أرض إسبانيا. لقد أودعنا هذا الكتاب[٢٩] من قبل قصائد كثيرة استلهمت الحفلات، أو الحب، أو النبيذ، أو أنشدت تحت قباب قصور الخلفاء احتفاء بانتصاراتهم وإشادة بعظمتهم، وفيها أرى يجب ألا نهمل القصائد التى نظمت على وقع القيود فى الأيدى والأرجل، وأنات التعساء يطوقهم لهيب النيران، وهذه القصيدة مثل لها، وتبدو كما لو كانت صلاة جنائزية لشعب يموت[٣٠] :

« بسم الله الرحمن الرحيم : قبل الحديث وبعده نحمد الله دائما، مالك الكون، إله الناس، وهو أحكم الحاكمين، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، الله الذى أنزل الحكمة وعلمنا ما لم نكن نعلم والذى خلق الناس، وقدر الآلام، يعفو عن الذنب، ويهدى إلى الخير، الله جل جلاله، والذى خلق الشجر، والأرض دحاها، وجعلها للناس مقرًّا، الواحد الأحد، الفرد الصمد، ليس كمثله شىء يرزق الناس ويسوق لهم المطر، ويهيئ لهم ما يقيمون به أودهم، الله الحافظ، الملك الأعلى، لا أول له، الذى على العرش استوى، يفعل ما يشاء ويصنع ما يريد، وعلم بالقلم، وخلق آدم وأنقذه، وله العظمة والجلال. وخلق الناس والأولياء واختار من بينهم الأنبياء، وختمهم بسيد المرسلين ».

---

(٢٩) يشير إلى الجزء الأول والثانى من هذا الكتاب، وسوف يصدران قريبًا فى مجلد واحد بعنوان « الشعر العربى فى أسبانيا وصقلية ». (المترجم)

(٣٠) مرمول كربخال : ثورة الموريسكيين، الكتاب الثالث، الفصل التاسع، وترجم شاك هذا الشعر من القشتالية فى شعر ألمانى بتصرف. ولم أره حسنًا أن أترجمه فى شعر قشتالى نقلا عن شاك، أو أن أصوغها شعرًا نقلا عن مرمول، وإنما نقلتها هنا كما وردت فى تاريخ مرمول، رغم ركاكة أسلوبها. (خوان باليرا)

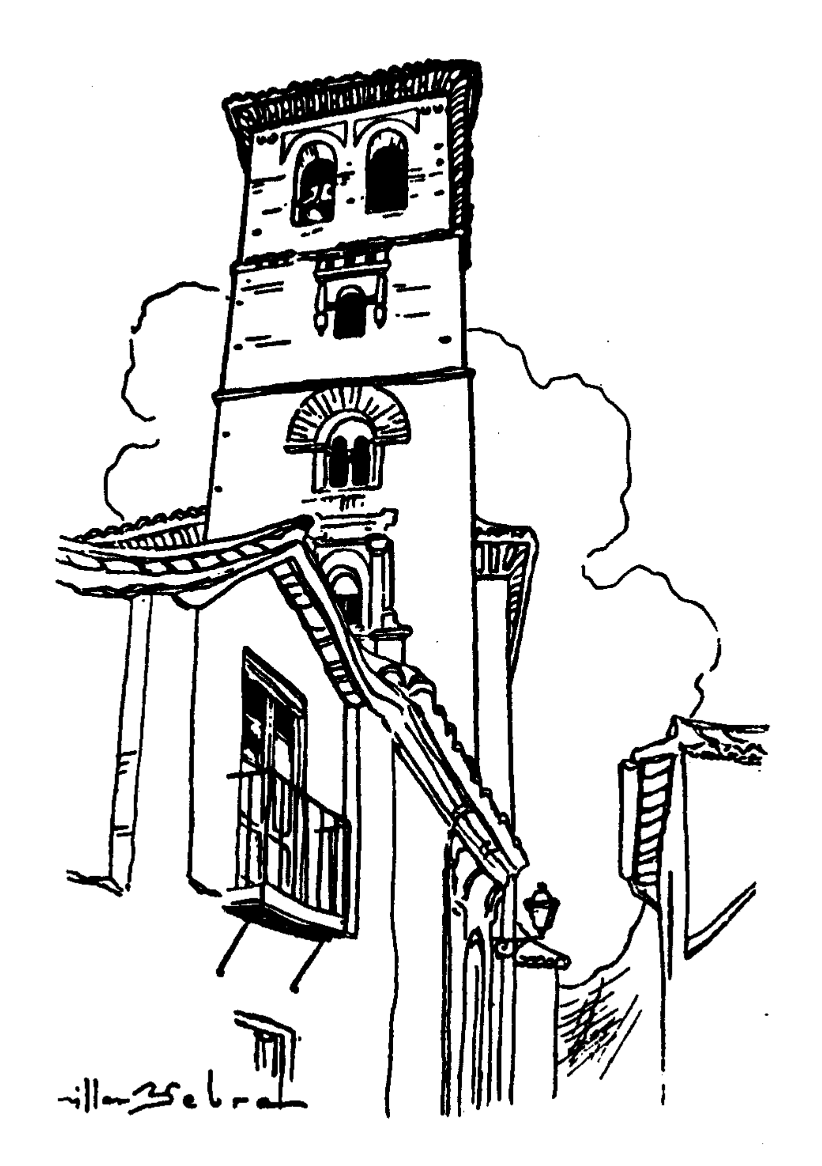
● لم أستطع العودة إلى النص الأصلى لهذا الشعر وأنا فى القاهرة، ولم تسعفنى المصادرة الاسبانية التى فى مكتبتى الخاصة، لأنه لا يزال مخطوطًا فيما أرجح، ويتطلب الأمر العودة إلى النص العربى نفسه، فقد نقله مرمول فيما يبدو نثرا، ويبدو أن معرفته بالعربية كانت متواضعة، وأن لغة النص الأصلية كانت هابطة، لأن النص الاسبانى الذى بين يدى ردئ للغاية، جمله منفصلة لا رابط بينها، كما لو كان ثرثرة شفوية، فلا يوحى بأنه ترجمة لقصيدة أبدًا.. ولعلى أعود إلى القضية برمتها، قضية الموريسكيين فى قابل الأيام. (المترجم)

«وبعد تمجيد الله الذى فى السماء وحده، وتقديس اختياره، وببركة أوليائه، أبدأ فى ذكر تاريخ ما حدث فى الأندلس، وصنعه العدو فيه، طبقًا لما ترونه مكتوبًا : الأندلس شيء مشهور يذكر فى كل العالم، يطوقها اليوم الإلحاد ويحيط بها من كل الجهات، ونحن بينهم خاضعون كغنم ضالة، أو كفارس على حصان بلا شكيمة، لقد ارعبونا بقسوة وعلمونا النفاق والخداع، حتى أن المرء يتمنى الموت للألم الذى يشعر به. ووضعوا اليهود على رءوسنا، وليست لهم ذمة، ولا يوفون بعهد ولا يحترمون كلمة، وكل يوم يبحثون لنا عن أكاذيب جديدة، وعن حيل مخبأة، ويصنعون معنا كل ما يوهن العزيمة، ويحتقروننا وينتقمون منا، ويتدخلون فى شريعة أهلنا، ويرغموننا على عبادة التماثيل والصور معهم، ويضايقوننا، دون أن يجرؤ أحد على الكلام[٣١]».

«وما أكثر الأشخاص الذين يتعرضون للمضايقة بين الكافرين! يدعوننا بالنواقيس لنعبد الصور والتماثيل، ويأمروننا بأن نطيع شريعتهم المثيرة لنا، وأن نذهب إلى الكنيسة حيث يجتمعون، ويقف أحد الوعاظ، ويتحدث عن الخمر ولحم الخنزير فى صوت كنباح الكلب ويقيمون القداس وهم يشربون النبيذ، وتستمع إليه يقول فى تواضع : هذه هى الشريعة الصالحة، وستعرف فيما بعد أن رئيس القسس فى الكنيسة وأعظمهم تقديسًا، لا يعرف الحلال من الحرام، فإذا انتهى من موعظته خرجوا، بعد أن يكونوا قد وقروا كل الوقار من يعبدون، ويذهبون وراءه دون أن يخشوا خجلا. يصعد رئيس الكنيسة على المذبح، ويرفع قطعة من الخبز يراها الجميع، وتسمع الخبط على الصدور، ثم يدق ناقوس

---

(٣١) على الرغم من الحرية الواسعة التى كان يتمتع بها اليهود فى الأندلس الاسلامى، مما يسر لثقافتهم أن تزدهر، وأدى إلى ظهور أعلام منهم فى عالم الفكر والترجمة، كانوا يعانون من اضطهاد لا مثيل له فى الجانب المسيحى، مما دفع بكثيرين منهم إلى اعتناق الكاثوليكية، وبلغ بعضهم مكانة متقدمة حتى بين رجال الدين الكاثوليك انفسهم، ولكنهم فى كل الأحوال لم ينسوا أنهم يهود، وإن تجاوزوا عن عقيدتهم، وبعد سقوط دولة الإسلام بأربعة شهور واثنى عشر يومًا أصدر الكاثوليكيان إيزابيل وفرناندو قرارًا فى ١٤ مايو ١٤٩٢ بطرد اليهود نهائيًا من الأندلس، وهو قرار لم يشمل الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية من قبل، ولأن عددًا كبيرا من هؤلاء اليهود الذين تكثلكوا كانوا يعيشون بين المسلمين، ويجيدون اللغة العربية، فقد اتخذ منهم الحكام ورجال الدين الكاثوليك سياطًا يجلدون بها المسلمين. وفيما بعد تبيّن الأسبان ما هم عليه من نفاق، فصدر ما يعرف بقانون «نقاء الدم»، وكان على كل إسبانى يتولى منصبًا عامًا، أن يثبت بمقتضاه أنه لا تجرى فى عروقه دماء يهودية. (المترجم)



مئذنة مسجد البريانة Alburiana وقد أصبحت برج ناقوس
بعد أن هدم المسجد وأقيمت على أنقاضه الكنيسة!

الانتهاء. ولهم قداسان، أحدهما يُغنَّى فيه والآخر للصلاة وكلاهما مثل الطل فى السحاب. ومن يحضر القداس يجد أنهم ينادون أسماء من ورقة، لا يبقى شاب ولا شيخ لا ينادونه. وتمر أربعة شهور ويذهب عدو كبير القسس إلى «بيت الريبة» يطلب العفو، ويمر من باب إلى باب معه حبر وورق وقلم، ومن تنقصه الوثيقة عليه أن يدفع غرامة عليها «ربع فضة»، وأخذ الأعداء بنصيحة: على الجميع أن يدفعوا، الأحياء والأموات، وكان الله فى عون من ليس عنده ما يدفعه! سوف يحملونه وقد مزقت بدنه السهام!»

«لقد نقضوا الشريعة بلا سبب، ويعبدون التماثيل وهم جالسون ويصومون شهرًا ونصف، وصومهم كصوم البقر، فهم يأكلون فى منتصف النهار، ولنتحدث إلى قسيس «الاعتراف»، وبعد ذلك إلى قسيس «القربان»، وبهذا تتم شريعة الكافرين، ومن الضرورى أن نقوم بهذا، لأنه يوجدبينهم قضاة قساة يأخذون مزارع المسلمين، ويجزونهم كما يجزّ القصاص القطيع، وآخرون بينهم يفحصون ويتمعنون ويستبعدون كل القوانين. وما أكثرالذين يأخذون الأمر على عاتقهم ويعملون بما يحمله لهم الجواسيس، وهم ينتشرون بين الناس فى كل مكان وكل لقاء! وليس بوسع المرء منا أن يشكر الله بلغته دون أن يفلت منهم، وسوف يكون مآله الضياع! وعندما تتاح لهم الفرصة سوف يرسلون الدليل وراءه، وسوف يجده ويعتقله حتى ولو كان على بعد ألف فرسخ، ويلقون به فى السجن الكبير ويعذبونه ليلا نهارًا قائلين له: تذكر!، ويبقى المسكين مفكرًا، والدموع تملأ عينيه، ومن قيد إلى قيد يقولون له: تذكر! وليس له من قوت إلا الصبر، ويضعونه فى قصر مرعب، يبقى فيه زمنًا طويلا، ويفتحون له ألف خصم وخصم، لا يستطيع أمهر سباح أن يخرج منها سالمًا، لأنه فى بحر لا ساحل له».

«ومن هناك يحملونه إلى غرفة التعذيب، ويقيدونه ليعذبوه، ويظلون يعذبونه حتى يفتتون عظامه، وبعد هذا يعدون حفلة موسيقية فى ميدان «الحطابين Hatabin»، ثم يقيمون منصة تشبه منصة القضاء، ومن سيطلق سراحه يلبسونه رداء أصفر، أما الآخرون فيحملونهم إلى النار مع تماثيل وصور مرعبة. ولقد أدخل علينا هذا العدو الغم بأساليب مريعة، وأحاط بنا كالنار من كل جوانبنا. ونحن نعانى من القهر والظلم على نحو لا يطاق ولا يحتمل. وفى أعيادهم وأيام الآحاد نبقى فى بيوتنا، ونصوم يومى الجمعة والسبت، وقد ازداد قوادهم وحكامهم شرًّا، وكل واحد منهم يزعم أنه يعمل على توحيد الشريعة والقانون، ويضيفون إليهما ما يشاءون، ويعلقون سيفًا بتارًا، ويخبروننا كتابة باليوم الذى يبدأ فيه العام الجديد فى ميدان باب البنت Bib el Bonut، وهم يوقظون النائمين، الذين عليهم أن ينهضوا من نعاسهم فى لحظة محددة، لأنهم يأمرون بأن تظل كل أبواب بيوتنا مفتوحة. وحرموا علينا الملابس العربية، والحمامات والجلوس أرضًا



شارع شعبى فى حى البيازين وبقايا مئذنة مسجد!

على طريقة العرب ! ».

« لقد فعل العدو كل هذا ووضعنا فى أيدى اليهود يصنعون بنا ما يريدون، دون أن يتهم أحدًا من المسيحيين بالخطأ، وكان رجال الدين والرهبان جميعا فى قمة السرور، لأن الدين أصبح واحدًا للجميع وأنهم وضعونا تحت أقدامهم، وذلك هو ما اتسع له وطننا، كأنهم يرون فى الكفر شرفًا يضفونه عليه. والعدو حانق علينا، وشرس معنا مثل تنين، وكلنا جميعا فى قبضته مثل اليمامة فى مخلب الباشق، ولأنهم سمحوا لأنفسهم بأن يصنعوا كل هذه الأشياء معنا، قررنا أن نقضى عليها، وأن نبحث عن الوسائل عند المنجمين، وأن نطلب الرأى عند القضاة، لنرى ما إذا كان ممكنا أن نجد فى القانون ما يحمينا ويريحنا، وقد قال لنا الرجال الممتازون الذين اهتموا بالبحث عن أصل بلوانا، اننا مع الصيام ننتظر النجاة، وأن أحزاننا سوف تجعل الشبان مع الوقت يشيبون قبل زمانهم، ولكن بعد هذه المحنة سوف يجىء الفرج حتمًا، وأن الله سوف يرحمنا، وهذا ما على أن أقوله ولو أن الحياة كلها شرور لا تنتهى، ولهذا أناشد فضائلكم، ياسادة : لا تمسوا صلاتى، وإلى هنا هذا ما تبلغه كل قوتى، ولا تحتقروا سعايتى، ومن يقرأ فى هذه الأبيات مرثيتى فليدع الله أن يدخلنى جنة رضوانه »[٣٢].

● ثورة الموريسكيين :

وهذه القصيدة تهدف إلى استمالة المسلمين فى شمال أفريقية، ومثلها الرسالة التى تطلب المساعدة مباشرة، واكتشفتها جواسيس الحكومة الاسبانية مع شخص يدعى ابن داود، عندما أراد أن يعبر إلى الشاطئ الآخر من البحر الأبيض المتوسط، والموقف اليائس الذى عرضنا له من قبل أثار الموريسكيين ودفع بهم إلى الثورة، ولإثارتهم على نحو أشد شاعت نبوءات تعلن عن عودة الامبراطورية الأندلسية،

---

(٣٢) يشير مرمول إلى أن الونسو دل كاستيو ترجم هذه الأبيات، ورسالة معها، ويفهم منها أن ما قيل عن ثورة الموريسكيين حقيقى، وكان على الموريسكى ابن داود أن يحمل الرسالة والشعر إلى بلاد البربر، ويطلب المساعدة من المسلمين فيها. ولكنه اعتقل فى أدرة، ووجدوا هذه الأوراق معه، وقد أرسل المركيز دى مونديخو هذه الأوراق وترجمة لها إلى الملك.

(خوان باليرا)

وتحرير المستعبدين من أتباع الرسول، وخاصة بين سكان منطقة جبال البشرات، وكلهم تقريبًا حافظوا على عقيدتهم الإسلامية. وفى كتمان شديد تجمع الثائرون، بعضهم من سكان حى البيازين، والآخرون من رؤساء المسلمين فى مقاطعة البشرات، واختاروا لهم ملكًا، شابًّا فى الثانية والعشرين من عمره، يدعى ابن أمية، وينحدر من نسل خلفاء قرطبة الأمويين. وطبقًا للتقاليد العربية القديمة تلقى الملك الجديدة البيعة الدينية، وهو يرتدى عباءة من الأرجوان، وتوجه والذين معه نحو القبلة، وسجدوا تحت أربع رايات تتجه نحو جهات العالم الأربع، ثم صلى بهم، وأقسم أن يعيش أو يموت دفاعًا عن دينه ووطنه وشعبه. وحينئذ نهض الملك، ورمزا لطاعة عامة الناس له ألقى واحد من الحاضرين بنفسه أرضًا، وباسم الجميع قبل الأرض التى وطئتها قدماه، وعين الملك قاضيًا للجماعة، وحمله آخرون على أكتافهم، ثم رفعوه قائلين : «**نصر الله محمد بن أمية، ملك غرناطة وقرطبة**» !

وما أسرع ما اشتعلت الثورة حية متوهجة، وغطى الموريسكيون المسلمون كل منطقة البشرات، وارتفع صوت المؤذن عاليًا من فوق المنارات : «لا إله إلا الله محمد رسول الله». ولكن نهاية هذه المحاولة اليائسة التى استهدفت إعادة الدولة الإسلامية كانت سابقة لأوانها، وبدل أن نذكر كيف أخمدت هذه الثورة فى طوفان من الدموع والدماء نؤثر أن نرخى الستارة على هذه المأساة. ولقد استولى **خوان دى أستوريا** على مدينة جليرة Villa de Galera وأعدم كل سكانها ذبحًا دون تمييز بين رجل وامرأة، أو بين عجوز وطفل. وبعد أن سقطت بقية القلاع القوية فى سلسلة جبال البشرات، فى يد الإسبان، وجلها سقط بسبب الخيانة، وزعوا كل الموريسكيين الذين استسلموا فى مقاطعة غرناطة على بقية المقاطعات، أما الذين اختفوا فقد اصطادوهم كما لو كانوا وحوشًا، وقدموا إلى المقصلة لذبحهم، وكثيرون استطاعوا أن ينجوا بأنفسهم عبر البحر، ولكن حب الوطن ردهم إلى الأندلس من جديد، حيث سقطوا بين مخالب محاكم التفتيش، وقدموا مشاهد تدعو إلى العظة والاعتبار، فى محاكمات الإحراق بالنار علنا، وقام بها المخلصون جدًّا للكاثوليكية. وكان موقف الذين حُملوا إلى مقاطعات أخرى داخل إسبانيا

أسوأ من الرق نفسه، فالحديث باللغة العربية أو العزف على آلة موسيقية مما كان يستخدمه العرب وغيرها، جريمة يعاقب عليها بالسجن مدى الحياة. ورغم كل هذا يعترفون بأن هذه الوسائل جميعها لم تبعد بالموريسكيين كثيرًا عن عاداتهم القديمة، ولم تستطع إرغامهم على أن يتحولوا عن دينهم مخلصين، وإذا حملوا موريسكيا إلى السجن لم يكن يقاوم، وعادة يقبل التصالح معهم أملا فى الحرية، ولكن إذا بلغ النهاية، وحانت لحظة الاحتضار، وكان على أبواب الآخرة، يرفض الكاثوليكية فى صوت حاسم واضح، ويموت على الإسلام، ويلقى الله وهو يردد بين شفتيه : لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

ومن ثم بدا للحكومة الإسبانية واضحًا أن الدين الذى أتى به محمد لا يمكن استئصاله من شبه الجزيرة إلا مع آخر نفس يخرج من آخر موريسكى، وحينئذ توجه تقى من كبار رجال الدين الكاثوليكى (!!) بمذكرة إلى الملك يؤكد له فيها أنه على قناعة كاملة بأن قتل كل الموريسكيين مناسب ومفيد ومباح(٣٣)، ولكن أسقف بلنسية، ولم يكن بأقل تقوى ولا تدينا من مواطنه ذاك، كتب أيضًا تقريرًا آخر أوضح فيه أن الواجب المقدس يفرض عليهم القضاء على جميع الكافرين أى المسلمين، وأكد على أن كل المصائب التى انصبت على رأس إسبانيا خلال نصف القرن الماضى كانت عقابًا عادلا من السماء على التسامح الزنديق الذى اتبعته الحكومة مع الموريسكيين. ويمضى مستنتجًا من كل هذا أنه إذا كان غير عملى أن يقتل الملك مئات الألوف منهم، فمن الواجب عليه أن ينفيهم جميعًا، وإذا بدا له فمن الأفضل أن يحكم عليهم بالسجن المؤبد، أو بالاشغال الشاقة فى مناجم أمريكا اللاتينية، ومثل هذا الحل يعد تساهلا معهم إلى حد كبير، لأننا إذا نظرنا إلى الأمر فى جدية فإنهم يستحقون الموت جميعًا(٣٤). وتلا هذا التقرير طرد جميع الذين ينحدرون من أصول إسلامية فى حكم الملك فيليب الثالث، وعندما فقدت اسبانيا أنشط وأمهر فلاحيها تحولت إلى صحراء قاحلة لا تصلح إلا موطنًا للكاثوليك المحافظين.

---

(٣٣) Bleda, Defensio fidei, Pag. 277

(٣٤) خوان خمينث، حياة وفضائل خادم الله الموقر دون خوان ريبيرا، روما ١٧٣٤، ص ٣٦٧ و٣٨١.

وبعد أن محيت آخر آثار الإسلام فى شبه الجزيرة، أصبح أسطورة كل ما يمكن أن يقال عن المسلمين، أو يتحدث به التاريخ عن حكمهم فى إسبانيا، لأن الأحجار، وهى شواهد صماء، لا تقدم لأبصارنا حتى اليوم صورة كاملة لازدهار وثقافة العرب الإسبان. وهذه الآثار الإسلامية التى بقيت على الرغم من تدمير الناس والزمان لها، لا تكثر فى مكان من إسبانيا كما تكثر فى غرناطة، ولا يكاد يوجد مكان فى هذه المدينة العظيمة، أو فى ما حولها، لا يحتوى على بقايا من العصر العربى. ولا نستطيع بأية حال أن نذكرها كلها هنا، ولكن من الضرورى أن نشير إلى أكثرها أهمية، وإذا استثنينا الحمراء وجنة العريف، فإن أحدًا من الرحالة لم يشر إليها.

● الآثار العربية فى غرناطة :

ولنبدأ من بينها بربوة «عين الدمع»[٣٥] الفاتنة، وكانت المكان المفضل لراحة العرب، وهى بجانب باب إلبيرة، وتغص بالرياض والبساتين، ويصفها ابن بطوطة بأنها لا مثيل لها فى العالم[٣٦] ويستطيع المرء أن يرى المدينة من أعلاها : سطوح بيوتها، ودروبها، وقصورها، وقبابها، وجوامعها، ومآذنها، وهو منظر بالغ الروعة على التأكيد. وهناك تصب المياه مجتمعة، وتجرى إليها من السييرا، لتسقى أعلى أجزاء المدينة. وثمة بركة كبيرة ، تحيط بها جدران قوية، تستخدم لمرور المياه والحمامات[٣٧]، ويقوم على زواياها أربعة أبراج تسمى «مناظر»، وتوجد لها الآن نظائر فى كثير من بيوت المدينة، وما زالت بقايا هذه الأبراج قائمة حتى يومنا، وكذلك البركة، وتغطيها نباتات الجنبة، وتطوقها أشجار اللبلاب من جوانبها،

---

(٣٥) وهى ضاحية من ضواحى غرناطة الفاتنة، وكانت أيام المسلمين متنزها بديعا، تغص بالمروج والحدائق الغناء، وظلت حتى بعد سقوط غرناطة تحتفظ على أيام الموريسكيين ببعض سحرها القديم، وأصبح اسمها «عين الدمعة»، وكانت مسكن علية القوم، وفيها بنى لسان الدين ابن الخطيب، الوزير والكاتب والمؤرخ، قصرا بديعا له طالما تحدث عنه، وعن الضاحية نفسها. (المترجم)

(٣٦) ابن بطوطة، ٣٦٩/٤.

(٣٧) بدراثا، التاريخ الكنسى لغرناطة، القسم الرابع، الفصل ٤١.

ووسط البركة جاف[٣٨]. ومن هذه الربوة، وهى قريبة مما يطلق عليه اليوم اسم لاكرتوخا La Cartuja، يمكن الوصول إلى باب إلبيرة، الذى يقود الى مدينة إلبيرة القديمة، وقد تدهور عقده الضخم، ذو الشكل الحدوى، الذى تزينه الشرفات. وعلى اليسار ، ، تقع القصبة القديمة فوق مرتفع، وأسوارها فى الجانب الأعظم منها لما تزل قائمة وصلبة، ولكن الحى بأكمله أصبح خرابا.

وفى قمة الارتفاع الذى أشرنا إليه، قريبا من القصبة القديمة، فى دائرة كنيسة سان ميجيل كان يوجد قصر باديس بن حبوس، مؤسس أول إمارة حكمت غرناطة، وذلك طبقا لرواية مرمول، ولكن لا توجد له بقايا الآن، ويشار اليه باسم «بيت الديك Casa del Gallo» أو «بيت لا لونا La Luna».

وثمة بابان من العصر العربى لا تزالان باقيان حتى اليوم، وهما : «باب فج اللوز Fajalauza، وباب عين بيدر Onebidir أو Bonaita.

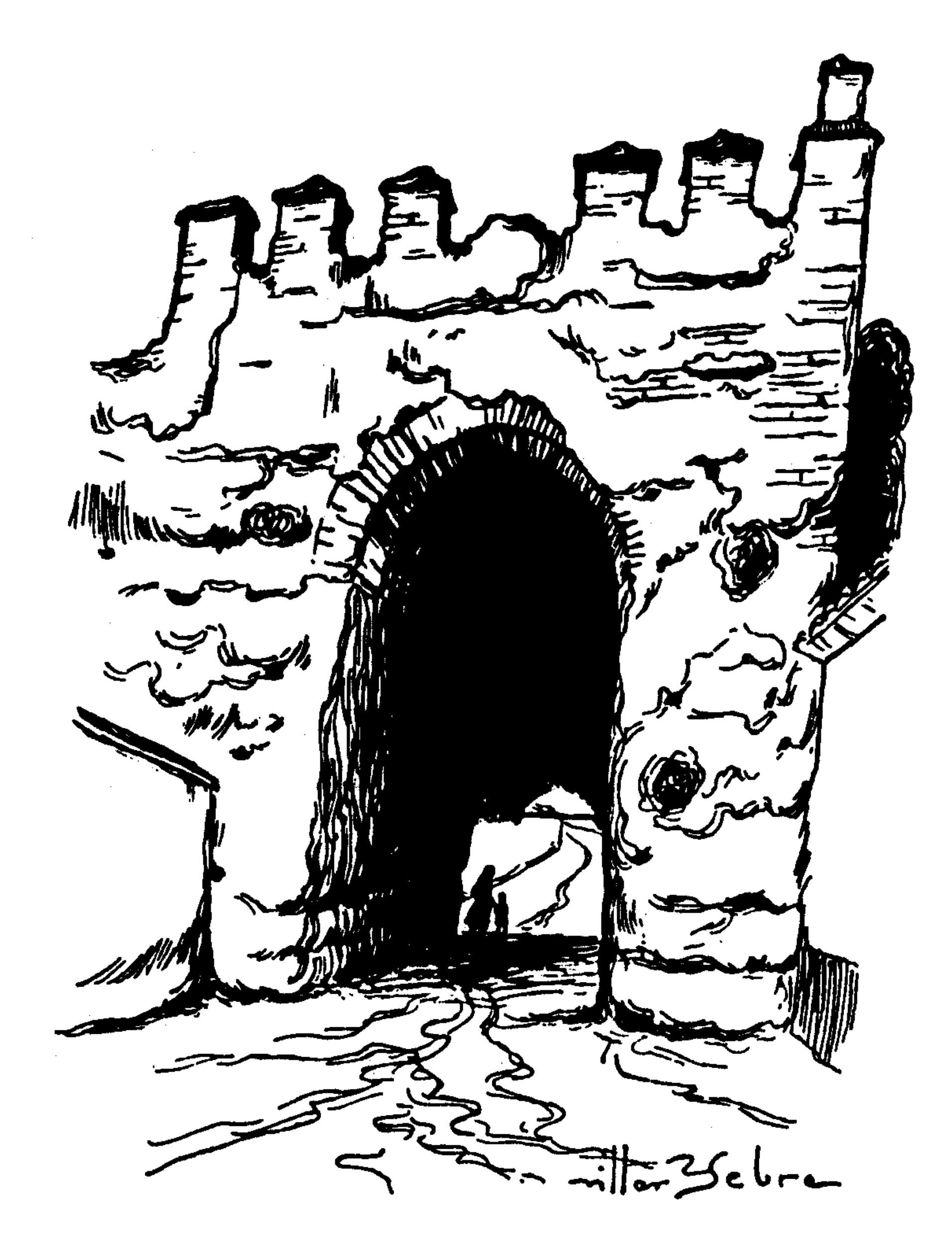
وتتعمق أكثر فى البيازين، الحى الذى كان يسكنه البياسيون، الذين أزاحهم المسيحيون عن وطنهم بياسة Baeza، واستقروا هناك، وليس ثمة مكان آخر يحمل الطابع الشرقى واضحا، ودون تغيير، كما فى هذا الجانب من المدينة، وهو يقوم ويمتد فوق منحدرات الربوة الوعرة، ولم يبق ، فى الحق، من مسجد البيازين إلا أطلال غير ذات أهمية، وكان يقوم فى المكان الذى تشغله اليوم كنيسة سان سلفادور. وعلى النقيض، توجد بيوت خاصة كثيرة، لا تزال فى الشكل الذى تركها عليه العرب. فالأسطوان[٣٩]، ودخل اللغة الاسبانية فى صورة Zaguan، والساحة الداخلية تتوسطها عين أو نافورة، وتطوقها الخضرة، والغرف ذات الحنايا، أو الحنية الواحدة، فى مدخلها، تجى فى شكل محراب، وتحفظ فيها

---

(٣٨) يقول ميجيل لفونت القنطرة : ان محيط البركة يبلغ ٤٠٠ خطوة، وعرض جدرانها ثمانية أقدام، وتتكون طبقا لعادات المسلمين من بلاط وأحجار ورمل وجير، وفى أحدى زواياها الغربية نرى بوضوح أساس وبقايا برج من الأبراج الأربعة التى كانت فى الزوايا، وفى نهاية هذا الجانب نفسه تتوزع بقايا برج آخر.

(خوان بالبرا)

(٣٩) ابن بطوطة، ٤/٥.



باب فج اللوز Fajalauza

الأباريق، أو الكئوس الكبيرة، مملوءة بالماء[٤٠]، والشمسيات الدقيقة الصنع، ودخلت الاسبانية فى صورة ajimeces، وهى النوافذ المزدوجة العقود[٤١]، والحنية ودخلت اللغة الإسبانية فى صورة alhania، وتعنى القبة alcaba الصغيرة[٤٢]. وقد

(٤٠) كما سيظهر فيما بعد، فان الفكرة الشائعة فى غرناطة نفسها، وفى كتابات كثيرين من الرحالة، من أن هذه الحنايا مخصصة لوضع النعال فيها، فكرة خاطئة تماما.

(٤١) كترمير، تاريخ سلاطين المماليك ٢٢/٢٨٠. وابن جبير، ص ٢٦٦ و٢٣٧.

احتفظوا بذلك كله، ولا تزال جميعها، فيما يبدو، مهيأة لاستقبال سكانها القدامى، ومع ذلك فان المعمار العربى الذى يبدو من خلالها إنما يمثل مرحلة الاحتضار فحسب، وكما سبق أن قلنا فان الموريسكيين ظلوا زمنا يسكنون حى البيازين، كمقر رئيسى لهم تحت الحكم المسيحى، ومساكنهم تحمل طابع تلك الأيام التعسة، وعبثا نحاول البحث فيها عن زخارف جميلة ورائعة على الجدران، وما أقل ما نلتقى بالنقوش العربية.

فاذا تركنا حى البيازين، وسلكنا طريقنا فى الاتجاه الذى يلتقى فيه نهرا شنيل والدارو، نلتقى ببقايا ظاهرة لقصر عربى بحدائقه، وعلى الجانب الآخر من الطريق الرائع المحفوف بأشجار الحور العملاقة، الغارق فى الفىء والطراوة، ووشوشة النوافير، ولعله أجمل طريق فى العالم للنزهة، وهناك وراء جسر نهر شنيل فى طريق أرملة Armilla وفى أملاك الدوق جور Gor، وتعرف باسم بستان الملكة،

---

(٤٢) طبقا لكوباربياس Covarrubias فان الحنية تعنى القبة، أو المكان الذى ينام فيه. ولكن دوزى أعطاها معنى القبة، وردها إلى هذا الأصل. . ولكن الاستخدام فى إسبانيا أعطاها المعنى الأول، وكلمات كلبيخو التى ذكرها دوزى لا تدعم رأيه فى شىء، ولكنها تؤكد بدقة تحديد كوباربياس، مهما يكن أصلها ومعناها فى اللغة العربية، وكلمة الحنية لا تعنى فى اللغة الاسبانية غير القبة، وما ذكره دوزى نقلا عن جو نثالث هو: «أمام باب هذه الحنية، وهو عقد كبير» فأخطأ حين فهم أنه يشير إلى الحنية، بينما هو يشير فى الحقيقة الى الباب. فالباب وليست الحنية كان عقدا كبيرا. ويصف لنا كلبيخوبيث تيمور بك قريبا من مدينة سمرقند، بأن جسم البيت فيه «ثلاث حنيات تتخذ أسرة أودكة». ويضيف: وفى المواجهة كانت واحدة من هذه الحنايا، هى أكبرها، وكان عليها صور تمثل قصة، وأمامها مخدع من الوسائد الصغيرة، عملت من أقمشة حريرية مطرزة بالذهب. وبعد أن انتهى من وصف الحنية، ولا يمكن أن تعنى غير قبة، وقبة صغيرة، يأتى فى الحال بالكلمات التى استشهد بها دوزى، وفهمها خطأ، واعتقد انها تخدمه برهانا حاسما على الحقيقة التى يؤكدها، ولم يفهم دوزى فقط الكلمات التى ذكرها، وانما لم يقرأ أيضا، أو لم يفهم، الكلمات التى سبقتها. (خوان باليزا)

● بعيدا عن الصراع بين دوزى وبعض العلماء الأسبان الذين يحاولون أن يتسقطوا أخطاءه، ليقللوا من قيمة الأعمال العظيمة التى قام بها، وبدافع الغيرة والحسد أحيانا، فان الحق مع دوزى رغم كل ما كتب باليرا. الحنية تعنى فى اللغة العربية الاعوجاج أو التجويف الذى فى الحائط، ولم تتحدث المعاجم عن معناها الاصطلاحى المعمارى، بما فى ذلك المعجم الوسيط الذى أصدره المجمع اللغوى فى القاهرة، ولكن من كثرة ترددى على الآثار الإسلامية فى اسبانيا، وما هو شبيه بها فى المغرب، يمكن أن أؤكد أن الحنية تعنى التجويف الذى يرى فى الحائط، كالقبلة، وقد يكون عريضا وعميقا، ويتخذ مكانا للراحة والجلوس، ويجئ سقفه فى شكل نصف قبة، ولكنه بعيد تماما عن لفظ القبة كما يتحدث بها الإسبان اليوم وتعنى غرفة النوم. ولسبب لا أفهمه فان كلمة الحنية، رغم شيوعها فى النصوص الوسيطة الاسبانية على الاقل قد حذفت من المعجم الذى أصدره المجمع اللغوى فى مدريد.

(المترجم)

نرى برجا مربع الشكل، عريض المساحة، واضح الامتداد ، وفيه قاعة مرتفعة ، ويشبه فى تكوينه برج قمارش فى الحمراء، ونقوشه العربية بارزة، ومتداخلة مع زخارف أنيقة من الملاط، وتحتوى على شعار بنى نصر : «ولا غالب الا الله». وفى مرات كثيرة على عبارة «بارك واحفظ سعادة وصحة سيدنا السلطان، الملك العادل، آمين».

وليس بعيدا من هناك، فى الجانب الأسفل من البستان، توجد بركة كبيرة، وقريبا منها نلحظ أنقاض بهو، وكان يستخدم فيما يحتمل حماما. وكان هذا القصر الذى تخلفت بقاياه يعرف بين العرب باسم قصر السيد وطبقا لما وصلنا من شواهد، فإنه كان موجودا فى زمن مؤسس الدولة النصرية، وأعطاه هذا سكنا للأمير دون فيليب، وكان مع فارس مسيحى آخر قد أقام طويلا فى غرناطة[٤٣].

فاذا عدنا الى الخلف، عبر قنطرة شنيل، متجهين نحو دير سنتو دومينجو، نرى إلى جواره بقايا حدائق ومبانى، وكانت فيما يبدو متصلة بالحمراء عبر طريق تحت الأرض، وتكوّن فى مجموعها، مع قصور أخرى، مقر الملوك، وكانت تتغير باختلاف فصول العام. وثمة طريق آخر مغطى بأفنان الغار الكثيفة والمظلة، والتى لا تستطيع أشعة الشمس أن تخترقها أبدا، وتقودنا الى ما يسمى بالغرفة الملكية Cuarto Real[٤٤]، وهى فى برج قوى متماسك الجوانب وصامد، وفى داخله توجد قاعة مرتفعة، يعلو جدرانها القيشانى الجميل، وزخارف عربية أخرى، وتؤكد الرواية أن عواهل غرناطة كانوا يعكتفون فيه خلال أيام رمضان لكى يستسلموا للصلاة والصوم، معتكفين وخاشعين طوال الشهر المعظم، يتلون القرآن، والمواعظ الخاشعة التقية المنقوشة على جدران القاعة تدعم هذه الفكرة، فيما يبدو. وبين هذه النقوش يتكرر أول سورة الفتح كثيرا وبينها أيضا : «يا ثقتى، يا أملى، أنت الرجا، أنت الولى، فيا للنبى المرسل، اختم بخير عملى». و «لا ملاذ لنا بغير

---

(٤٣) وقد ذكر نفجيرو أيضا هذا القصر، وكان فى زمنه نصف أطلال، وأنه فى «بستان الملكة»، ليس بعيدا من نهر شنيل.

(٤٤) يملك الآن هذا الأثر الرائع السنيور اميليو بريث دل بوجاد، وقد رممه شيئا، فى جانب منه فحسب، لأن ترميمه كله صعب وباهظ النفقات، وقد وصف اميليو لفونت القنطرة هذه الغرفة، وترجم كل النقوش التى عليها، وليس فيها شئ ذو اهمية أكثر مما أشار اليه شاك (خوان باليرا)

ما يأتى من عند الله القوى العليم، ولا دافع لى غير ما يهبنى الله، فيه أثق ، وإليه أعود».

ومما يثير العجب أنه على الرغم من كل غضب وانتقام محاكم التفتيش ضد كل ذكريات الإسلام، لم تهدم هذه النقوش العربية، ونقوش أخرى كثيرة، لا تزال تحتفظ بها غرناطة.

ونتجه الآن نحو ذلك الجانب من المدينة، ومازال حتى اليوم كما كان عليه أيام المسلمين، وهو الأشد جاذبية. ولأنه المركز التجارى فيها فقد د خلنا إليه من الميدان الشهير الذى يحمل اسم «باب الرملة». وجاء اسمه من «باب الرمل» القريب منه، ورغم البيوت الكثيرة القديمة التى تحيط به، فإن الميدان المتسع بعد كثيرا ، فيما يبدو، عن الطابع الذى كان عليه الميدان نفسه، وشهد فى عصور أخرى المبارزات ولعب الصولجان بين ابن سراج وأبى عبد الله الصغير، وعبثا نبحث عن الشمسيات، تلك النوافذ الدقيقة، ذات العقود المزدوجة، تتوسطها عمدان صغيرة، ومن ورائها خلال الشباك الحديدية التى تكسوها، ومن مشربياتها، تراقب السيدات الجميلات الحفلات.

ونمضى فى طريق عريض يدعى شارع السقاطين، وهى كلمة عربية دخلت اللغة الإسبانية فى صورة Zacatin، ومن الميدان المذكور نصعد فى موازاة الدارو، فنرى القيصرية أولا على الشمال[٤٥]، وهى مساحة كبيرة، ذات قاعات عديدة، تشغلها المحلات التجارية وغرف التجار، وكانت القيصرية تضم بقايا أوضح ألوان المعمار العربى فى غرناطة الى أن أتى عليها حريق حدث عام ١٨٤٣[٤٦].

(٤٥) من المحتمل ان كلمة القيصرية مشتقة من لفظ قيصر، كما ذكره لفونت القنطرة، معتمدا على مرمول كربخال، لأن الرومان كان لهم بناء مسور فى كل مدينة أفريقية لخزن بضائعهم، وإقامة تجارهم، وتوفير الأمان لهم وأن العرب والمسلمين قلدوهم فى هذا.
(خوان باليرا)

(٤٦) ومثل هذه القيصرية يوجد فى المدن الأفريقية أيضا، وهى تؤدى المهمة نفسها التى يؤديها «البازار» ولكن تحت اسم آخر. أنظر:

- البكرى، طبعة سلان، ص٢٢.
- عبد اللطيف، طبعة ساسى، ص ٣٠٣.
- مرمول، وصف أفريقيا، ٨٧/٢.
- ابن بطوطة، ٤/٣.

والكتدرائية القريبة منها تومئ إلى المكان الذى كان يحتله المسجد الجامع فقد أقيمت على أنقاضه، وفى المصلى منها يوجد قبر هرنان بيريث دل بولجار Hernan Pérez Pulgar، وثمة نقش يشير الى مغامرات هذا البطل، وكان قد دخل المدينة قبل عامين من الاستيلاء عليها، وإشارة إلى امتلاكها علق بقبضة يده تمثال حواء مارية على الباب نفسه.

ينتهى شارع السقاطين فى الميدان الجديد Plaza Nueva، ومنه يمكن الصعود إلى الحمراء عبر شارع «لوس جوميلس Los Gomeles»، وإذا واصلنا السير على ضفاف نهر الدارو، فسوف نكتشف سريعا منظرا رائعا، فوق رابية كثيرة الجداول، كثيفة الخضرة، تغطيها أشجار البندق والجوز ونباتات أخرى، وكان العرب يطرونها كثيرا، ويرونها جنة الله فى الأرض، ويجى لزيارتها خلق كثيرون، من بلاد بعيدة، لأنها تنعش النفس، وفيها يصح البدن، ومن بين جبالها المرتفعة تبرز أسوار الحمراء، وتعلو أبراجها ذات اللون الأحمر، وبعيدا هناك، فى أعلى قمة منها، بين أكام من أشجار الرمان والريحان، تزهو جنة العريف، تبهر النظر بجمالها الفاتن، وتسيطر على المشاعر بفتنتها الحالمة.

● جنة العريف:

وكان هذا البيت الريفى مصيف ملوك غرناطة، ويبدو أنه لا يعود الى عصر بنى نصر أنفسهم، كما نفهم ذلك من نقش لا يزال موجودا حتى يومنا، وفيه أن الملك أبا الوليد، «إسماعيل الأول ابن فرج»، جدّد البناء فى عام الانتصار الأعظم للعقيدة، وهو يشير إلى أبى الوليد الأول، والى معركة عام ١٣١٩، والتى قتل فيها دون بدرو Don Pedro ودون خوان: Don Juan(٤٧).

(٤٧) أرجوت دى مولينا: نبلاء الأندلس، الكتاب الثانى، الفصل ٥٢. ومدونة الفونسو الحادى عشر، الفصل ١٨.

● فى عهد أبى الوليد زحف الجيش القشتالى بقيادة دون بدور «دون بطرة فى المصادر العربية القديمة» ودون خوان وكانا وصيين على الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة، وكان وافر العدد، ومعهم العديد من أمراء قشتالة، ومن المتطوعين الانجليز، وجرت بينهم وبين المسلمين وقعة هائلة قرب غرناطة عام ٧١٩ هـ-١٣١٩م، «ويجعلها ابن خلدون عام ٧١٨ وهو الأصح»، وكان المسلمون فى ستة آلاف، منهم ألف وخمس مئة فارس، والبقية رجالة، ولكنهم صفوة مختارة بقيادة شيخ الغزاة أبى سعيد عثمان بن أبى العلاء، وكان نصر المسلمين حاسما رغم قلة عددهم، وقتل دون بطرة نفسه فى هذه المعركة، ولم يقتل من المسلمين إلا العدد اليسير. (المترجم)

ويجد الداخل فى الرسوم التى على القاعة ، حيث تقوده الى البيت الريفى ، آيات من القرآن الكريم، تذكره بالسعادة التى أعدها الله للمتقين من عباده فى جنات الآخرة : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم، بارك الله فى سيدنا ومولانا الأمير محمد وأسرته تحية وسلاما، ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا[٤٨]، ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما، وينصرك الله نصرا عزيزا، هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما[٤٩]. ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا، ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما، إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا، إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما، سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إنْ أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرًا﴾.

وفى مساحة تشكل إطار العقود التى تؤدى الى داخل المبنى توجد هذه الأبيات من الشعر :

قصرٌ بديعُ الحسنِ والإحسانِ لاحتْ عليه جلالةُ السلطانِ
راقَت محاسنهُ وأشرق نورُه وهَمَتْ سحائبُ جودِه الهُتّانِ

---

(٤٨) ترجم إميليو لفونت هذه الآية على النحو التالى : «لقد فتحنا لك بابا صريحا. (خوان باليرا)

(٤٩) باستثناء المقدمة، فالبقية من سورة الفتح ، الآيات من ١ الى ٥، ويوجد فى النقش حتى الآية الحادية عشرة، وقد ضاعف اميليو لفونت من هذا النقش فى الحقيقة.

● اقتصر شاك من النقش حتى الآية الخامسة، وآثرت أن آتى به كاملا، ليكون أصدق تصويرا للحالة التى يعرض لها وهى تصوير أحداث المعركة التى انتصر فيها أبو الوليد. (المترجم)

رقمْت يدُ الإبداعِ فى أرجائه وشْياً كمثلِ أزاهـرِ البستانِ
فكأنَّ مجلسَه العروسُ تبرَّجتْ عند الزفافِ بحسنها الفتَّانِ
وكفاهُ من شرفٍ رفيع القدرِ أنْ نال اعتناءَ خليفةِ الرحمنِ
خيرُ الملوكِ أبو الوليد المتَّقىَ من نخبةِ الأملاكِ من قحطانِ
المقتَدِى بالطاهرين جدودِه أنصار خيرِ الخلقِ من عدنانِ
لحقتْهُ منه عنايةٌ قد جَدَّدتْ منه جمالَ مصانعٍ ومبانِ
فى عامِ نصرِ الدين والفتحِ الذى هو بالحقيقةِ آيةُ الإيمانِ
لازال معنوًّا بسعدٍ خالدٍ فى نورِ إرشادٍ وظلٍّ أمانِ

وقد عانت جنة العريف كثيرا من عبث الأيام وإهمال العناية ،وسوء ذوق البشر، حتى أنها لا تكاد اليوم تعطى أكثر من مجرد فكرة عما كانت عليه فى زهرة أيامها الأولى.

○ جنة العريف كما رآها رحالة إيطالى :

ومن المفيد ، فيما أرى، أن ننصت الى وصف نفجيرو Navagero لها، وقد رأى القصر والحدائق عام ١٥٢٦م، ولم تكن يد الزمان والأحداث قد عبثت بها كثيرا، ولو أنها كانت قد أخذت طريقها نحو الانحدار على التأكيد، ولكن حتى مع هذا الانحدار كانت أفضل بكثير مما هى عليه اليوم. ومن الوصف المذكور نخرج بتصور حيٍّ لفن العرب فى بناء الحدائق وربطه بالمعمار، يقول هذا الرجل البندقى النبيل :

«خرجنا من الأسوار التى تطوّق الحمراء، من باب مستحدث يوجد فى الخلف، ودخلنا فى حدائق قصر آخر بالغة الروعة، وتوجد فى قمة الجبل، ويسمونها جنة العريف[٥٠]. ورغم أن هذا القصر ليس كبير الحجم جدا، إلا أنه بناء ممتاز، وأراه مع حدائقه الرائعة، وتشكيلات مياهه العديدة، أجمل ما رأيت فى إسبانيا، ويحتوى على ساحات كثيرة، تجرى المياه فيها كلها متدفقة وفيرة، وأفضلها ساحة تجرى قناة

---

(٥٠) كلمة العريف تعنى ما يعدل فى لغتنا الحديثة المهندس المعمارى.

المياه فى وسطها، وتمتلئ بأشجار البرتقال والريحان، وهناك منظرة كبيرة مغطاة، تقدم مشهدا بالغ الروعة، وتحتها تنمو أشجار الريحان عالية، حتى تكاد تبلغ الشرفة. وأشجار الريحان هذه كثيفة، وذات رائحة طيبة، وترتفع متساوية فوق الربوة، وتبدو كما لو كانت واديا أخضر. وتجرى المياه عبر كل جنبات القصر، وحتى داخل الغرف نفسها، إذا أردت، وبعضها أعد لكى يقدم فى الصيف إقامة حلوة محببة، وفى ساحة منها فياضة بالخضرة والأشجار الجميلة تتناثر المياه فى أشكال ذكية، ويجرى الماء أحيانا خلال قنوات مغطاة، ولا تلبث أن تفاجئ الماء فوق العشب الأخضر، متفجرة بين قدميه، وكل شئ حوله يسبح فيها، ثم تختفى القنوات من جديد بطريقة لطيفة محببة، دون أن نلحظها. والى جانب ذلك، توجد هناك ساحة أخرى أقل ارتفاعا من الأولى، وليست كبيرة جدا، تحيط بها أشجار اللبلاب الكثيفة والجميلة، حتى لا نكاد نرى جدرانها، إنها الساحة التى فوق الصخرة، وفيها شرفات كثيرة، ومنها يمتد البصر إلى مسافات بعيدة، نرى من خلالها نهر الدارو فى تدفقه، وهو منظر فاتن وجميل».

وفى وسط هذه الساحة توجد نافورة رائعة، تصب فى حوض كبير، وتندفع المياه خلال أنبوبة فى الوسط إلى ارتفاع يقرب من عشرين مترًا، وغزارة المياه مذهلة، ولا شيء أكثر لطفا مثل أن ترى المياه تتفجر، وتسقط، وتتحول إلى رذاذ. ومع رؤيتها فحسب، كيف تتناثر عبر كل الجوانب، ثم تتفتت وتتلاشى فى الجو، يمكن أن تستمتع بأوقات طرية لطيفة.

وفى الجانب الأعلى من هذا القصر، يوجد فى الحديقة درج عريض وجميل، يصعد إلى هضبة تجرى إليها المياه بكميات وفيرة من صخرة قريبة، ثم تتوزع على القصور والحدائق، وثمة مفاتيح محكمة، وأبواب متقنة، تحكم تدفق هذه المياه، وتدع الماء يجرى بالقدر المناسب، فى اللحظة المطلوبة، وبالطريقة المقررة، وقد شيد الدرج بفن، فترى وأنت هابط كل درجة منها أعرض من سابقتها، ويخترق كل الدرجات تجويف فى الوسط تجرى المياه خلاله، ثم تتجمع فى شكل ماء راكد. ويوجد أيضا تجويف آخر، فى أعلا أحجار الدرابزين الذى يوجد على جانبى الدرج، ويستخدم مجرى ماء أو قناة، وفى أعلى مفتاح مناسب لكل واحد من هذه

التقسيمات، أى أن الماء يمكن أن يتدفق للبهجة، عبر القنوات التى فى أعلى الدرابزين، أو فى التجويف الذى فى وسط الدرج العريض، أو من خلال الطريقتين فى الوقت نفسه، ويمكن أيضا، إذا أردت، أن تزيد من تدفقها وكمياتها، فتفيض على جانبى القنوات، وتسبح فيها كل درجات السلم، وتبل كل من يكون عليها فى تلك اللحظة، وهكذا استطاع العرب أن يصنعوا من المياه ألف لعبة ولعبة، وباختصار يبدو لى أن هذا المكان لا ينقصه شىء من الجمال واللطف، وكل من يعرف كيف يستمتع ويحترم الجمال إذا عاش هناك مستريحا، عاكفا على الدرس، آخذا من اللذاذات النبيلة بنصيب، لن يشعر بالحاجة الى أية رغبة أخرى[٥١].

● آثار عربية أخرى فى غرناطة :

وفوق قمة الربوة، وهى اليوم قاحلة، وترتفع خلف غرناطة، وفى أعلى صخرة وعرة المنحدر، وتسمى اليوم مجلس المسلم Silla del Moro نلاحظ حتى الآن بقايا جدران وبرك قديمة متهدمة تشير إلى مكان قصور أخرى، أو بيوت ريفية لبنى نصر، وفيها كانت القلعة الصخرية واشتهرت ببهائها، ويسمونها فى العربية قصر الحجارة، وبالإسبانية Aligares وبيت ريفى آخر تحوطه حدائق باسمة، ويسمونها دار العروس.

ومما يثير الدهشة والعجب كيف تلاشت هذه المبانى والحدائق سريعًا، حتى أن نفجيرو لم ير فى عام ١٥٢٦ م غير بقايا أطلال من عظمتها الأولى، ومع ذلك، فإن وصفه لها مهم للغاية، لأنه يسجل فى دقة محمودة الأمكنة التى كان يوجد فيها كلا البنائين، لأن دمارها لم يكن حينئذ كاملا كما هو اليوم : «فإذا صعدنا إلى ما هو فوق جنة العريف حيث كان الدخول فى زمن ملوك المسلمين إلى حدائق قصر ثان بالغة الجمال، ويسمى قصر الحجارة[٥٢]، ومن هناك يمكن الذهاب أيضًا إلى

(٥١) Naugerii, opera, pag. 365.

(٥٢) يقول دون ميجيل لفونت القنطرة فى مؤلفه «كتاب الرحالة» : كان قصر الحجارة أجمل قصور ملوك غرناطة المسلمين وأضخمها، وأقيم على ربوة عالية، ولا تزال أنقاضه باقية حتى يومنا، وقد أشاد كل من : لوثيو مارينيو، ومرمول، وبدراثا، بروعة هذا القصر والأغانى الرومانسية الغرناطية القديمة تشير إليه. يسأل الملك دون خوان ملك قشتالة أسيراً مسلما فى فج غرناطة : =

حدائق قصر آخر، وكان يسمى يومها دار العروسة Daralhaaroza أما الآن فهم يطلقون عليها اسم «سانتا إلينا Santa Elena. وكل الطرق حيث تمضى من مكان إلى آخر، مغطاة حتى النهاية بأشجار الريحان، أما اليوم «زمن الكاتب الإيطالى طبعًا» فكله دمار، ولا ترى غير بعض الأطلال، والصهريج بدون ماء، لأن القنوات تهدمت، وبقيت بعض بقايا الحديقة، وعلى جانبى الطريق يقوم قليل من براعم شجر الريحان وذلك أنها على الرغم من اجتثاثها مازالت تحتفظ ببعض جذورها.

«وتقع دار العروس فوق جنة العريف، على الجانب الذى يطل على نهر الدارو، على حين أن قصر الحجارة، على العكس، يقع خلف الحمراء، ويوجد على اليمين فى ربوة تطل على الوادى، حيث يجرى نهر شنيل، ومن ثم يمكن للمرء أن يستمتع فيه بمنظر الفج الرائع. وأبعد منه فى الاتجاه نفسه، على ربوة فى وادى شنيل، على بعد نصف ميل أو أزيد قليلا من قصر الحجارة، يوجد قصر آخر، وصلنا على نحو أفضل، وينتمى إلى عصر الملوك المسلمين، وهو فى موقع رائع الجمال، وأكثر انعزالا من بقية القصور، وأقرب إلى النهر. وأخيرًا إذا حكمنا من خلال أطلال القصور، وبقايا البيوت الريفية الجميلة، وجب علينا ان نستنتج منها أن اولئك الملوك المسلمين لم يكن يعوزهم شيء مما يبهج المرء، ويجعل الحياة أكثر متعة وجمالا».

أطلال قليلة من هذا القصر الأخير، ويدعى دار الود Dar ul Guad لا تزال باقية فى مكانه حتى اليوم، ويوجد فى بقعة لا يمكن للمرء أن يتصور مكانًا آخر أشد جمالا منها وأعذب رومانسية، فى طريق ثنس Cenes. وثمة بيت حديث فى كل

= أية قلاع تلك،
عاليه وذات بريق؟
فيرد المسلم:
إنها الحمراء يا سيدى،
والأخرى المسجد،
والبقية قصور الحجارة،
وبنيت فى فخامة وروعة.

(خوان باليرا).

شيء تقريبًا، وفقير فى المظهر، يسمى «بيت الدجاج Casa de las Gallinas، أقيم فوق أنقاض القصر القديم، ولكن الأساس، والجانب الأسفل من الجدران، وعقد أحد الأبواب، وفوقه يمكن أن نكتشف الآن بعض زخارف من الملاط وكلها تشير إلى يد الفنان العربى(٥٣).

ونعود إلى المدينة بعد هذه النزهة، لنذكر بعض الأبنية الملحوظة، والجانب الأكبر منها يقع على مسافة غير بعيدة من نهر الدارو. فثمة مدخل عربى جميل لا يزال قائمًا فى بيت العملة Casa de la Moneda ويوجد بداخلها نقش يشير إلى أن هذا البيت كان مستشفى فى أيام المسلمين(٥٤). وكان فى ساحته حتى زمن قريب، بقايا أسدين كبيرى الحجم من الحجر، يتدفق الماء من حلقوميهما، ويصب فى حوض كبير. وبيت الفحم Casa del carbon، ولا يبعد عن ميدان باب الرملة كثيرًا، ويوجد مهملا فى حالة بالغة السوء، ولا يزالون يعترفون حتى اليوم بأنه كان فى أزمان خلت صورة رائعة للفن العربى، ولم يبق من هذا كله إلا عقد مدخله المرتفع تزينه زخارف من الملاط، وقبته ذات الأشكال المتدلية، وفوق العقد نقش يتضمن صورة الإخلاص، وكتبت فى خط كوفى، وآياتها رفض مباشر لعقيدة التثليث، إنها تقول: ﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد﴾.

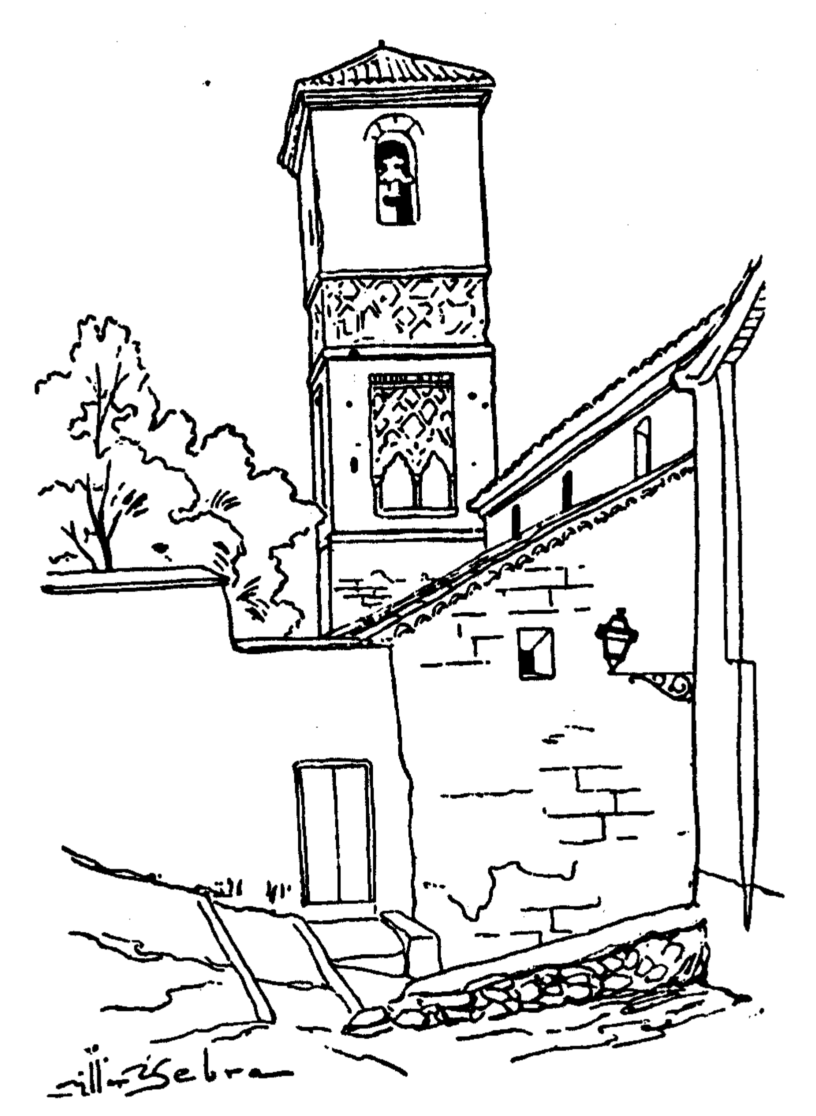
وجهل المسيحيين وحده هو الذى يفسر لنا كيف أن هذه الكلمات إذا نطقها

---

(٥٣) ذكر هذه القصور الجميلة أيضًا كل من: مرمول فى كتابه «ثورة الموريسكين»، ومندوثا فى كتابه «حرب غرناطة»، وبدراثا فى كتابه «التاريخ الكنسى لغرناطة»، وبيريث دى هيتا فى كتابه «الحروب الأهلية فى غرناطة»، ولوثيوس مرينيوس ثكولوس فى كتابه: De rebus Hispanie، ولم يشر واحد منهم إلى مكان هذه القصور بدقة كما فعل نفجيرو، وثمة اخبار تتصل بغرناطة فى العصر الذى تلا حرب الاسترداد مباشرة توجد فى كتاب:
Annales de vita et rebus gestis Friderici II electoris Palatines. Auctore Huberto Leodio. Francofurti. 1624.

وقد أقام فريدريكو الثانى فترة طويلة عام ١٥٢٦ م، فى بلاط كارلوس الخامس، عندما كان يقيم فى الحمراء، ولكنه اهتم أكثر، هو والذين معه، بمصارعة الثيران، وبرقص الفتيات الموريسكيات لهم، أكثر من اهتمامهم بكل معالم المدينة المعمارية.

(٥٤) ترجم لفونت القنطرة النقش فى كتابه النقوش العربية فى غرناطة»، ص ١٧٣- ١٧٤، ولم أنقله هنا لأنه طويل جدًا.
(خوان باليرا)



مئذنة مسجد الطيبين وأصبحت برج ناقوس بعد أن حوّلوه إلى كنيسة

إنسان، وهى مكتوبة فى لغة لا يفهمها، سوف تحمله إلى شعلة متوهجة، ليحرق حيا فى وسط الشارع، على مرأى من الجميع دون أن يجرؤ أحد على معارضة محكمة التفتيش.

وثمة منارة صغيرة تشبه «الخيرالدا»، ولكن فى التفصيلات الصغيرة، ولا تزال باقية حتى اليوم فى كنيسة سان خوان الملوك San Juan de los Reyes [وأقيمت فوق أنقاض مسجد الطيبين] وعلى النقيض من هذا لم يبق فى دير سانتا إيزابيل الملكية،

ونعرف أكيدًا أنه بنى فوق قصر وحدائقه كان ملكا لبنى نصر[٥٥]، أية أطلال ذات أهمية يمكن أن تشى بمعماره العربى.

وأخيرًا، ما زال البناء الذى يدعى «بيت شابيث Casa de chapiz»[٥٦]، يحتفظ بساحته حتى يومنا، وتقوم حولها قاعات ذات دورين مع أعمدة من الرخام، وشمسيات دقيقة، وسقف وعقود وحيطان مليئة بالزخارف الجميلة والقيشانى.

● قصر الحمراء:

بقى علينا أن نتحدث عن أهم الآثار العربية فى غرناطة: عن الحمراء. وسميت كذلك لأن اللون الأحمر كان يكسو جدرانها[٥٧]، وهى القصور الوحيدة التى وصلتنا فى حالة جيدة، وقاومت عوادى الزمن، بين قصور وقلاع عربية أخرى كثيرة كانت قبلها فى إسبانيا على هيئتها، وهى اليوم فى: جيان، ومالقة، وطريف، والمنكب، وجوسين Gaucin ولوشة، وشاطبة، والمرية، ومربيطر، ترقد أطلالا كلها على نحو ما. وهذه القلاع كان من العادة أن تضم بين جوانبها. التى تتناثر عليها الأبراج، قصر الأمير أو العامل أو القائد، وبيوت كبار الموظفين، ومسجدًا، ومعسكرا، ودار الصناعة وغيرها.

ويذكرنا موقع الحمراء فوق المدينة بموقع قلعة هيدبرج Heidelberg فهذه فوق ارتفاع وعر المنحدر، على ضفة نهر Neckar، وكذلك الحمراء، تسيطر على كل وادى الدارو العميق، وتلمع حيطانها من بعيد، والمواد التى بنيت بها المنشآت المختلفة ليست واحدة بعامة: فبعضها مبنى بأحجار ولبن، وضعت مع ملاط، وبعضها الآخر بنيت جدرانه بما يسمى الطابية، وهى كلمة دخلت الاسبانية فى

---

(٥٥) انظر: فرناندو دى بائيثا، أشياء غرناطة، وعاصر فترة استيلاء المسيحيين عليها ونشره ج. موللر، ص ٦٤.

(٥٦) تشغل هذا البناء الآن مدرسة الدراسات العربية فى غرناطة. (المترجم)

(٥٧) بما أن اسم الحمراء يعود إلى القرن التاسع الميلادى، على نحو ما أشرنا من قبل، يصبح غير مقبول الرأى القائل بأن ابن الأحمر، مؤسس النصرية، هو الذى أطلق عليها هذا الاسم. وثمة قصر فى العراق كان يسمى الأحمر، وذكره كوزجارتن فى كتابه: منتخبات عربية، ص ١٢٦. وابن خلكان، طبعة سلان، ص ٢٤٠.

صورة tapia ومادتها مزيج من التراب والجير والأحجار الصغيرة، وهذا اللون من المبانى هو الأكثر شيوعًا، وكان مستخدمًا فى أفريقيا وأسبانيا فى زمن الرومان، وأطرى بلينيو Plinio صلابة الجدران التى تقام من هذا الخليط، «إنها تدوم قرونًا، وتقاوم المطر، والعواصف والنيران، وأصلب من كل ألوان الملاط»[٥٨].

لكى نزور القصر الملكى الشهير يمكن أن نصعد إليه من شارع «لوس جوميلس Los Gomeles» ويصل إلى باب الرمان Las Granadas ووراء هذا الباب مكان مسور ملىء بأشجار الحور الوارفة، وشوارع تصطف على جانبيها الأشجار، وتحفل بالنوافير والجداول، والجدران التى تحيط به تمتد حول الربوة، وتتوجها الشرفات، وللدفاع عنه أقيم على مسافة منه عدد لا بأس به من الأبراج، وهى تستخدم فى جانب منها للدفاع وتحميها طبيعة الأرض نفسها من جانب آخر، لأنها أقيمت فى أمكنة وعرة المنحدر، ويسكنها الملك وخدمه. وباب الشريعة هو المدخل الرئيسى الذى يؤدى إلى داخل القلعة، وهو مكان مسور تحت برجين، وكان الملك نفسه علنا، وفى جمع، يصدر الأحكام، ربما طبقًا للتقاليد المشرقية القديمة، وهذه الغاية وتنسبها الرواية إلى هذا الباب، تتفق مع نقش يقول: «أمر الله بأن تزدهر شريعة الإسلام تحت هذا الباب»[٥٩]. وهذا يذكرنا بكلمات سفر التثنية، الفصل ١٦، الآية ١٨: «قضاة وعرفاء نجعل لك فى جميع أبوابك، التى يعطيك الرب إلهك، حسب أسباطك، فيقضون للشعب قضاء عادلا». واليد الصخرية فوق الباب تشير فيما يحتمل إلى قواعد الإسلام الخمس: الصلاة والزكاة، وصوم رمضان،

---

(٥٨) بين لنا ابن خلدون طريقة عمل الحيطان من الطابية، فى مقدمته ٢/٣٢٠، وعندما يقول بلينيو إن الأسوار التى تبنى بالطين لا تكون جيدة البناء أبدًا إذا لم تملأ بواسطة قوالب أو أشكال من الخشب، فهو فى هذا يتفق تمامًا مع الوصف الذى تركه ابن خلدون، ولا يزالون يحتفظون بهذه الطريقة حتى اليوم فى شمال أفريقيا، ولكن ليست لها الصلابة القديمة. انظر: هوست، أخبار المغرب، ص ٢٦٣.

(٥٩) أورد اميليو لفونت القنطرة الترجمة كاملة لنص النقش الذى فوق عقد الباب فى خط مغربى كبير، وهى:
«أمر ببناء هذا الباب المسمى باب الشريعة، أسعد الله به شريعة الإسلام، كما جعله فخرًا باقيًا على الأيام، مولانا أمير المسلمين، السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف، ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبى الوليد بن نصر كافى «لعلها كافأ» الله فى الإسلام صنائعه الذاكية، وتقبل أعماله الجهادية، فتيسر ذلك فى شهر المولد المعظم، من عام تسعة وأربعين وسبعمائة = (١٣٤٨ م)، جعله الله عزة واقية، وكتبه فى الأعمال الصالحة الباقية».



باب الشريعة فى مدخل الحمراء

وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، والجهاد[٦٠]. والرمز نفسه يستخدم تعويذة فى حجم أصغر. والمفتاح وهو أيضًا مرسوم هناك، ليس له من رمز يمكن أن نفهمه ألا أن الباب مفتاح القلعة، ومن النقش نعرف أن الباب شيده السلطان أبو الحجاج يوسف فى عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤٧. وفوق الأعمدة نقرأ الكلمات التالية: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، الملك لله وحده».

وبعد أن نعبر هذا الباب، ونترك وراءنا على مسافة قريبة منه بابًا صغيرًا أيضًا، يسمى باب النبيذ Peurta del Vino وفوقه نقش يحمل اسم محمد الخامس الغالب بالله، وآيات من سورة الفتح، نجد أنفسنا فى ميدان الجب Aljibes، وعلى جانب منه نجد القصبة بأبراجها الكثيرة، وفى زمن مضى كان هناك المسجد الجامع فى الفضاء المقابل، حيث توجد الآن كنيسة «القديسة العذراء Santa Virgen» وفضلا عن ذلك كان فيها أيضًا القصر الملكى، وان شئت الدقة كانت ثمة سلسلة طويلة من الأبراج والأبهاء، والساحات والحمامات، وحجرات الحريم، وغرف أخرى للأسرة المالكة، والسيدات، والحاشية، والمراقبين، وجانب من هذه الأبنية هدمه كارلوس الخامس، ليفسح المجال أمام بناء قصر من طراز عصر النهضة، وبدأ فى إنشائه هناك عام ١٥٢٦.

ومع ذلك يبدو أن الجانب الذى هدمه الأمبراطور لم يكن ذا أهمية كبيرة، لأن نفجيرو فى وصفه للحمراء لا يذكره، مع أنه حرر هذا الوصف قبل أن يأتى الأمبراطور إلى غرناطة للمرة الأولى، وحين سحرته مفاتن مبانى بنى نصر أمر ببناء قصر بجوارها، يكون مقرًا له[٦١].

---

(٦٠) واضح أن المؤلف لسبب لا أدريه أسقط شهادة أن لا إله إلا الله، من قواعد الإسلام، وأضاف مكانها الجهاد. (المترجم)

● يرى إميليو غرسية غومث أن رقم خمسة يدعو إلى التفاؤل بين العرب، وذو قيمة وقائية، وأن هذه اليد، وتسمى «يد فاطمة» تعويذة ولا صلة لها بأركان الإسلام. انظر: مع شعراء الأندلس والمتنبى، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ص ٢١٠، الطبعة الرابعة دار المعارف، القاهرة عام ١٩٨٥. (المترجم)

(٦١) الرسالة التى وصف فيها نفجيرو الحمراء تحمل تاريخ اليوم الأخير من شهر مايو ١٥٢٦ م، وقد دخل كارلوس الخامس غرناطة لأول مرة فى ٤ يونية من العام نفسه. انظر: سندوبال، تاريخ كارلوس الخامس، الكتاب الرابع عشر، الفقرة الخامسة.

=

واختفى جانب آخر من الحمراء أيضًا، لابد أنه كان يمتد فى اتجاه ما يسمى بيت شانجة Casa Sancho، والأبراج الأخرى فى الشمال الشرقى(٦٢). وإنه لمن المؤسف جدًا أن الروايات الكثيرة التى عاصرت استيلاء الملكين إيزابيل وفرناندو على غرناطة وتتحدث عن هذا الحدث، لا تقدم أى وصف للأبنية التى كانت قائمة هناك فى ذلك الوقت(٦٣).

وفى عام ١٥٢٦ م، وطبقًا لرواية البندقى النبيل ووصفه الذى أشرنا إليه لم يكن يوجد أى جانب رئيسى آخر من الحمراء غير ما هو قائم الآن(٦٤)، وينحصر هذا،

= والرسالة التى كتبها خوان نجرو سكرتير نفجيرو فى : نقوش البندقية التى جمعها Cicogna، الكراسة رقم ٢٢، صفحة ٣٣٩، وهذه الرسالة تحمل ٨ يونية ١٥٢٦ م، وتصف دخول الامبراطور إلى غرناطة.

ونملك أيضًا سلسلة من الرسائل كتبها بلتسار كستيجلون الشهير، وكان سفيرًا للبابا لدى الامبراطور كارلوس الخامس، وكتبها فى غرناطة، ولكنها لا تحمل للاسف غير أخبار سياسية.

(٦٢) ربما تهدم جزء من الحمراء فى حريق شب حوالى منتصف القرن السادس عشر، لانفجار مخزن بارود، وقد وصفه الشاعر بثينت اسبينيل :

تهاوت أسقف من أحزان عارمة،
وآجر وألواح فى الهواء الكسول،
وكرات كثيفة من نيران عنيفة،
وصنعت فى الحمراء مثل هذه الخسائر،
أتت النار والدخان على القصور الملكية،
وأين منها قصور نومانثيا - وجعلت منها بحيرة.
وانهارت غرف الملك الصغير الفاتنة،
من الرخام المعروق، واللون الأزرق، والمذهب، ولا تقدر بثمن،
انهارت، كما تهاوت عظمة سيدها

(٦٣) ثمة مكتوب صغير ونادر لفرنسى كان فى جيش الملكين إيزابيل وفرناندو يبدأ : «إنه مشهور جدًا، وجدير بالذكر الحصار المنتصر، على مدينة غرناطة المتكبرة، الكبيرة والشهيرة»، (باريس ١٤٩٢)، ولكنه يشير فحسب إلى : «وعلى حين رحل عدد من كبار القواد المسلمين ومشهوريهم، الذين جاءوا فى خضوع ظاهر أمام المدرس المذكور، حتى بلغوا أحد القصور قرب مدينة غرناطة، ويسمى قصر الحجارة Ahxares. وأوصلهم المدرس والاستاذ العظيم حتى العودة إلى البيت الملكى فى مدينة غرناطة المذكورة، ويسمى الحمراء.

ولا نجد شيئًا يتصل بهذا فى مدونة برنالديث، واقتصر بدرو مرتير، ونملك سلسلة من الرسائل التى كتبها فى غرناطة منذ عام ١٤٩٢، على صيحات الاعجاب، وقال عن القصر الملكى فى الحمراء، أنه وحيد فى العالم.

(٦٤) Naugerii, opera, 364

والأخبار والمعلومات الواردة فى كثير من الكتب، وتتصل بأقسام الحمراء التى هدمت تقوم كلها على أسس واهية. وعندما يقال أن الساحات والقاعات التى لا تزال قائمة كانت تقوم إلى جوارها أخرى متصلة من =

وبخاصة إذا استبعدنا الأبراج التى تقع على مسافة بعيدة فى ساحتين كبيرتين، وساحة البركة، مع برج قمارش، الذى يبدأ المدخل من عنده، وبهو الأسود، والقاعات المحيطة به، وكل واحدة من هذه الساحات، بأبراجها المتصلة بها، والقبة، والحجرات الأخرى يطلق عليها اسم القصر[٦٥]، أى أن الجانب الذى ظل قائمًا من الحمراء حتى الآن، طبقا للذوق العربى، يتمثل فى قصرين. ونفهم من النقوش التى فيه أنه ينتمى إلى عصرين مختلفين: العصر الذى أسس فيه القصر وأقيم البناء، والعصر الذى تمت فيه الزخرفة. وفى بهو الريحان وبرج قمارش يسود اسم يوسف أبى الحجاج، وفى الأمكنة الأخرى نلتقى باسم محمد الخامس الغنى بالله، ومع ذلك فإن زخرفة الملاط التى على الجدران يمكن أن تكون قد جددت، لأن النقوش التى عليها لا تشهد على أى حال إلا بأن بناء العمارة التى توجد فيها يعود إلى الأمراء الذين ترد أسماؤهم فى هذه النقوش.

وكان الباب الرئيسى للقصر، فيما يحتمل، نحو الجنوب، حيث يوجد البناء المؤسف الذى أقامه كارلوس الخامس، ودون شك فإن هذا الباب، ومثله فى ذلك كل السور الخارجى، وطبقًا للطريقة المتبعة فى المشرق فى بيوت الأمراء والخاصة، يتيح للمرء أن يشك قليلا فى تصور الفخامة والروعة التى يمكن أن يكون عليها البناء من الداخل. ويلاحظ هذا بطريقة واضحة فى السور، وفى الباب الذى ندخل منه الآن إلى القصر. ولكن من يمضى قدمًا فى الساحات لأول مرة لايستطيع أن يتحكم فى إعجابه العميق أمام العالم الفاتن الذى يجد نفسه فى وسطه فجأة للمرة الأولى. ولأن آلاف الزخارف والرسوم تثير الإعجاب فى الحمراء، فإن ذلك

= الجانب الغربى، فإن هذا النظام الهندسى يختلف تمامًا عما نعرفه فى القصور المشرقية. والفكرة التى تتردد فى كل مكان، من أن غرف ملوك غرناطة الشتوية تهاوت أرضًا تناقض ما أورده مرمول، وطبقًا له فإن الحجرات التى كانت حول ساحة الأسود تكون حجرات الشتاء: «والقصر الثانى، ويوجد فى الجانب الشرقى يدعى بهو الأسود، والنافورة الجميلة التى فى وسط الساحة وهى مبلطة كلها بالرخام المعرق، وذات أعمدة جميلة حولها، تقوم عليها سقوف القصور والقاعات. وفى هذه الساحة الحجرات، وغرف النوم، والقاعات الملكية، ويقيم فيها الملوك شتاء، وهى ليست بأقل تكلفة من برج قمارش». ثورة الموريسكيين، الكتاب الأول، الفصل السابع.

(٦٥) ويظهر هذا بوضوح صحة ما قاله مرمول فى الفصل الذى أشرنا إليه فى الهامش السابق، ويظهر أيضًا لماذا كان كل جانب من جوانب قصور الخلفاء فى قرطبة يعد قصرًا كاملا ومستقلا، وهكذا نجد قصر السرور، وقصر التاج.

كله يعطى فكرة عن الجوانب الرئيسية والأشكال المعمارية، لا عن الخصوصيات أوالتفصيلات التى تتلاقى لتكون مجموعة متناسقة، ونابضة بالحياة، ومهما أسرفنا فى الخيال لا يمكن أن نضيف حالات أخرى تجعل من هذا البناء عملا وحيدا فى العالم.

تقع قصور الحمراء فوق صخرة وعرة المنحدر، وسط مناظر طبيعية بالغة الروعة، وتقف الشرفات على انحدار صعب وعميق، وتتوسطها جداول موشوشة تنحدر من الجبال، ويتصاعد منها أريج الغابات ذات الزهور العبقة، والنظر من خلال الشرفات والنوافذ البارزة قليلا إلى الجبال لامعة تغطيها الثلوج، أو الحقول زاهية تكسوها الخضرة، جوهرى لتفسير هذه الفتنة الساحرة التى تستولى على مشاعرنا وحواسنا، وتسلبها، وتسيطر عليها أكثر، عندما نتوقف متأملين مدة أطول، ونعود إليها مرات ومرات. ويضاف إلى هذا الطراز الفاتن للقاعات والأبهاء روعة الأضواء ووميضها، وتقلبها، وتسربها عبر الساحات من خلال زرقة السماء الفياضة بالجمال، أو تندس شفقا خافت اللمعان من خلال فتحات القباب المزخرفة. وترى الأعمدة دقيقة، والعقود رائعة، ويقال أن التخلص منها ممكن فى لحظة، وتتدلى من فوقها السقوف، كما لو كانت معلقة حقا، وليست قائمة على أعمدة. وأخيرا تحاصرك وشوشة المياه، ونسائم الصيف الخفيفة، تعبق بأريج الورود والرياحين، ولا تستطيع ريشة أى فنان أن تعطى فكرة دقيقة لهذا العالم الفاتن، وجديرة به، فكيف نستطيع أن نحقق ذلك عن طريق الكلمات!.

وإذا أخذنا فى الحسبان كثرة النقوش الممتازة، ودقة الزخارف الجميلة، والقرون التى مرت عليها، فإنه ليبدو معجزة أن هذه الزخارف احتفظت برونقها وبهائها كاملا داخل القصور العربية الملكية، ولو أنها عانت دائمًا من تقلب فصول العام. ومع ذلك، ليس من الصعب علينا إذا استخدمنا الخيال، فى هدى من الجوانب التى لم تتعرض لأى تلف، أن نتصور ما كان عليه مجموعها فى حالتها الأولى.

وقد رصفت الأرض بألواح الرخام الأبيض، وتمتد حاشية من القيشانى الملون على الجزء الأسفل من الجدران، وترتفع بمقدار أربعة أقدام، ويغطى الملاط بقية الحيطان فوقه، وبعد ذلك يقوم إفريز على أعمدة صغيرة أحيانا، يستريح السقف

عليها، ويتكون هذا من قطع صغيرة من الخشب مطعمة، ومن أشياء أخرى مرصعة، سواء كانت خلايا أو مسلات بارزة من الملاط، أو مركبة تأخذ شكلا متدليا.

وأعمدة الرخام دقيقة الشكل، وذات تيجان متنوعة الرسوم بلا حد، تحمل فوقها أفاريز ترتكز عليها الطنف، وبين هذه الأفاريز ترتفع العقود، وصنعت من هياكل خشبية مغطاة بالجير، ويغلب على العقود عادة أنها شبه دائرية، مرتفعة قليلاً، وتميل شيئا إلى تقليد جوانب العقد الحدوى، وتبدو مع كل هذا مدببة فى الأعم الأغلب، بفضل الملاط الذى يغطيها. وثمة تجاويف متعددة الأنواع، متعمقة فى الجدران، وتكسو الأحجام الكبيرة منها المقاعد الخشبية والمخدات، وتستخدم للراحة، وتسمى حنية. ويوجد فى الصغير منها ويسمى طاقة أباريق أو جرار فيها ماء. وتتناثر الزخارف فى فيض مسرف، وتنوع مذهل، فى كل أنحاء القصر، على الجدران، أو فى السقوف، أو فوق الأعمدة، أو فى الحنيات والبوائك. ويتجمع القيشانى ويتوافق، مكونا أفاريز فى أسفل الجدران، وزخارف مفرغة، وتزاويق متشابكة، ذات ألف لون ولون. وهناك زخارف مفرغة فى الرخام، بالغة التنوع، وأخرى ناتئة رائعة. والملاط الذى صنعت منه الزخارف البارزة تكسوه متاهة من الخطوط المنقوشة، تبدو أمام الناظر كما لو كانت منظارا سحريا.

وتلتقى فى القصر بكل ألوان التركيبات الهندسية، من نجوم، وتثمينات، وأشجار، وزجاج ملون، ونسخ هذه الزخارف حقيقة من الصعب إدراكها، والدقة التى نفذت فيها تجعلنا نعتقد أنها عملت بقوالب، ولكن لسنا على يقين من هذا، وقد وصف لنا ابن خلدون، فى الفصل الذى أوقفه على «صناعة البناء»، الطريقة التى كانت تستخدم عادة فى عمل الزخارف البارزة على الجدران، وشهادته ذات وزن كبير، لأنه عاش زمنا طويلا فى بلاط محمد الخامس، الملك الذى يعود إليه الفضل فى جانب كبير من زخارف الحمراء[٦٦]، ولكن شرح ابن خلدون غامض إلى حد كبير فيما يتصل بهذه النقطة، عندما يقول: «ومن صناعة

---

(٦٦) المجلة الأسيوية، ١٨٤٤، ٥٦/١.

البناء ما يرجع إلى التنميق والتزيين، كما يصنع فوق الحيطان الأشكال المجسمة من الجص، يخمر بالماء، فيشكل على التناسب بمثاقب الحديد، إلى أن يبقى له رونق ورواء»[٦٧].

وفضلا عن الزخارف التى أشرنا إليها يمكن أن نضيف ألوانا لا حصر لها من النقوش الدقيقة، تمتدعلى طول الأفاريز، كحواشي للعقود والشمسيات والحنيات، أو التجاعيد الهندسية، وتم تنفيذ هذه النقوش كلها بأسلوب يشبه الأسلوب المستخدم فى بقية الزخارف، حتى أن العيون ذات التجربة المحدودة، والخبرة القليلة، يمكن أن تتصورها رسوما أرابسكية Arabisque. وأخيرا فإن الانطباع الرائع الذى تثيره كل هذه الزخارف يتحقق، وبقوة تخطف البصر، من خلال الرسوم الرائعة، ذات الذوق الرفيع. وتوجد فى كل جوانب القصر ثروة غنية من الألوان تنتشر فى بذخ واسراف، ويغلب من الألوان على ما هو مرتفع منها، ويتميز بقوته وحيويته البالغة، الأحمر، أو الأزرق، أو الذهبى. ويسود فى الوسط اللون البنفسجى، والأرجوانى، والبرتقالى، وحتى ألواح الرخام البيضاء، التى رصفت بها الأرض كانت منقوشة فيما يبدو.

● ساحة الريحان :

وساحة الريحان أو البركة تستقبل الداخل[٦٨]، وتحييه بكلمات «السعادة» و «البركة» و «والازدهار» و «الصحة الباقية» و «والحمد لله على نعمة الإسلام»، وهى كلمات تبرق على الجدران. وثمة حوض كبير تحيط به سياج من أشجار الريحان الحية النضرة، وتنعكس العقود فى عمقه، ومن عمود إلى آخر يمتد قيشانى الحنيات، وبريق التوريقات المفرغة فى الجدران، وتوجد العقود فى أصغر جوانب الساحة فحسب، وصف من الأعمدة على يمين الداخل، تحمل فوقها قاعة ثانية، ويمكن أن نستنتج منها أن جانبا من القصر الذى هدمه هنا كارلوس الخامس كان يتكون من طابقين. وتجىء النقوش هنا فى شكل أكاليل من شجر اللبلاب تتثنى

(٦٧) ابن خلدون، المقدمة، ٣٢١/٢، طبعة القاهرة ص٤٠٨.

(٦٨) انظر الملحق رقم٦، آخر الكتاب.

على امتداد الجدران والعقود، ويحدث الشيء نفسه فى بقية أمكنة القصر الأخرى، وتحيى الزائر على نحو ما أشرنا، أو تحتوى على آيات من القرآن مثل : ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾. ﴿قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات فى العقد، ومن شر حاسد إذا حسد﴾. أو تضرعات وتوسلات مثل : «النصر والتمكين، والفتح المبين، لمولانا أبى عبد الله أمير المؤمنين». أو أشعار كالأبيات التالية، وتوجد فى القاعة الشمالية، وتمدح من استرد الجزيرة الخضراء[٦٩]، ولا نعرف أكيدا من هو هذا الملك :

تبـارَكَ من ولَّاكَ أمْـر عبـادِه ... فأولى بك الإسلامَ فضلًا وأنعُما
فكم بلدةٍ للكفرِ صبَّحتَ أهلَها ... وأمسيْتَ فى أعمارِهم متحكما[٧٠]

[ومنها عن يمين الباب الشمالى المفضى إلى البهو المجاور :]

ولـو خُيِّرَ الإسـلامُ فيما يـريـدُه ... لما اختار إلَّا أنْ تعيشَ وتَسْلَما
لقد لاحت أنوارُ الجلالِ ببابك ... يفـترُّ منها النـدى بِشْرًا وأبْسَـما
وتلك آثـارُها فى كـل مَكْـرُمَـة ... أبـدى وأوضحَ بَـدْرٍ إذا انتـظما

[وعن يسار الباب] :

فيا ابن العُلى والحلمِ والبأسِ والندى ... ومن فَاقَ آفاقِ النجوم إذا انْتَمَا
طـلعْنَ بـأفـقِ المـليـكِ رحمـةً ... ليجلو ما قد كان بالـظلم أظلما
فأمَّنْتَ حتى الغصنَ من نفحةِ الصَّبا ... وأرهبتْ حتى النجومَ فى كَبِدِ السَّما
فإنْ رعشتْ زُهْرُ النجومِ فخيفةً ... وإنْ سال غصنُ البان شُكْرِكَ ثَمَّا[٧١]

(٦٩ طبقا لما أورده اميليو لفونت القنطرة فى كتابه: «النقوش العربية» حيث ترجم هذه الأبيات، فإن الملك الذى حول الاستيلاء على الجزيرة الخضراء كان محمدا الخامس، وقد استولى الفونسو الحادى عشر على هذه المدينة عام ١٣٣٤م، واصبحت فى يد المسيحيين، وكان ملك غرناطة فى ذلك الوقت أبو الحجاج يوسف الأول. (خوان باليرا).

(٧٠) بعد هذه الأبيات أورد المؤلف ترجمة ثلاثة أبيات اخرى، ولم استطع الأهتداء إلى نصها، ولم أره مفيدا ترجمتها نثرا. (المترجم)

(٧١) عدد كبير من أبيات هذه القصيدة جار عليه الزمن اليوم، فلايمكن قراءتها بسهولة، مثل البيتين الأولين من العسره الخامسة، وكل أبيات السادسة والثامنة، وقد ترجمها شاك كلها إلى الألمانية، وتابعنا ترجمته مستعينين بترجمة ونسخ ألونسو دل كستيو لها، وكانت النقوش على أيامه واضحة تماما، ويمكن أن تقرأ كلها، وقد اعتمدنا على اميليو لعونت القنطرة، وأكد لنا كل هذا. أنظر كتابه : النقوش العربية فى غرناطة. (خوان بالرا)-

وهذه النقوش وهى للتحية، أو تمثل شعار بنى نصر، أو غيرها، وتحتوى على كلمات قليلة، مكتوبة فى الخط الكوفى، على حين أن الآيات القرآنية والشعر كتبت فى خط الرقعة، وجاءت مشكولة(٧٢).

وفى الجانب الشمالى من ساحة الريحان يوجد برج قمارش القوى، وجاء اسمه قمارش من مكان يعرف بهذا الاسم قريبا من مالقة، ربما لأن سكان المكان المشار إليه هم الذين بنوه، أو كانوا مكلفين بالدفاع عنه(٧٣).

لدخول هذا البرج علينا أولا أن نعبر بوابة، يوجد على جانبيها حنيات صغيرة، ويظن بعامة أنها كانت لحفظ النعال، وعلى زوّار القصر أن يخلعوها قبل أن يدخلوا الغرفات طبقا للعادات الشرقية، غير أننا نعرف أكيدا أن مثل هذه الحنيات لا توجد عند مداخل الأبواب فحسب، وإنما نراها أيضا فى العقود التى بين مختلف القاعات، وتأتى على الفكرة التى أشرنا إليها من أساسها. وإذا أخذنا أيضا فى الاعتبار أن النقوش التى تزين الحنيات تتحدث غالبا عن الأكواب والأباريق، وعن إطفاء الظمأ وغيرها، بدا لنا من المؤكد أنهم كانوا يضعون فيها أباريق أو دنانا مملوءة بالماء.

= ● الواقع أن هذه الأبيات جزء من قصيدة تبلغ ٩٠ بيتا، لأبن زمرك، أنشدها السلطان فى ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، عقب مافرغ من البنية الشهيرة ببابه، ويذكر المقرى أن لسان الدين سرد هذه القصيدة بطولها، ولكن المقرى لم يورد منها غير بيتين هما مطلعها، وكذلك فعل لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه الاحاطة، ولعل إشارة المقرى كانت وهما منه، أو لعله رآها كاملة فيما لم يصلنا من مخطوطات ابن الخطيب، أو فيما لايزال مخطوطا، والبيتان هما:

تأمّلَ أطلال الهوى فتألّما ... وسيما الجوى والسقم منها تعلّما
أخو زفرة هاجت له نار ذكرة ... فأنجد فى شعب الغرام وأتهما

(المترجم)

(٧٢) حاول خوان باليرا، المترجم الاسبانى، ان يلقى مزيدا من الضوء على قضية النقوش هذه وهى معقدة، وهو غير مستشرق، يكتب اعتمادا على غيره، فجاءت ملاحظاته قاصرة، ورأيت من الأفيد للقارىء أن أحيله إلى أحدث بحث وأوجزه، كتبه عنها عالم مستشرق ضليع، إميليو غرسيه غومث، فى كتابه الذى ترجمناه له بعنوان: مع شعراء الأندلس والمتنبى، ص٢٤٣، الطبعة الرابعة، دار المعارف بالقاهرة، عام١٩٨٥. (المترجم)

(٧٣) المقرى، نفح الطيب، ٢٨٢/١ - ٢٨٤، طبعة أوربا. وطبقًا لمرمول كربخال، فى كتابه «ثورة الموريسكيين»، الفصل السابع، الكتاب الأول، فإن كلمة قمارش لها أصل آخر: «الأول والأهم غرفة تسمى قمارش، وهو اسم برج رائع الجمال، غنى بالزخارف فى داخله، على نحو باهظ النفقات، ويشبه كثيرًا، ما كان سائدًا بين الفرس والسوريين ويدعى Comaragia.

ويشغل الرواق الجانب الأمامى من البرج، أو قاعة البركة، ويسمى عادة قاعة انتظار البركة، وتردد نقوشه كثيرا الآيات التالية من سورة الصف : ﴿نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾، ولا تستطيع أن تجد فى هذه القاعة الرائعة فترا واحدا ليس مليئا بالزخارف، كما لو أن العبقرية طرزت الحجر، وصنعت منه نسيجا جاء فى شكل سجاد، وطرزته كما لو كان «دنتلا». والأفاريز، والجدران، والعقود والسقف، كلها مغطاة بأكاليل الغار، والأزهار، وزخارف فى شكل الورود، متنوعة الأشكال، وأوراق وأغصان، وكلها جاءت فى أدق فن، وأكمل روعة، ويبدو منظر ساحة الريحان كما لو كان من خلق الجن، بمياهها الصافية وأعمدتها المرمرية السامقة والتى تعتمد عليها الأسقف وتقوم عليها العقود مثل ستارة رائعة تتدلى من السقف، وطرزت فى ثراء وروعة. وثمة قباب فخيمة هنا وهناك ويطلق عليها العامة الآن اسم قاعة السفراء وكانت - إذا شئنا الدقة - قاعة الاستقبالات أو العرش، وتطل شرفاتها على الوادى، وعمق نهر الدارو، وتقدم منظرا طبيعيا يفوق جماله الوصف. ويغلب عليها ضوء نصف غامض، يظهر فى نعومة فوق الجدران التى تكسوها الزخارف فى غنى، وتتشابك خطوطها فى ألف زخرفة وزخرفة، جامحة الخيال، تسخر من كل محاولة لوصفها. وكثافة الحيطان مدهشة، وتضفى على النوافذ السبعة، التى تحتل ثلاثة جوانب من القاعة، مظهر الغرف الصغيرة. وهناك، فى أعلى، يتسرب الضوء مرتجفا خلال سلسلة من الشمسيات، وفوقها يرتفع السقف مبطنا بخشب الأرز(٧٤) وتفصل بينها قباب صغيرة، وغرف، ومن حافتها التى تلتقى مع جدران القاعة تتدلى قطع من الملاط تبدو كما لو كانت سقفا متدليا أو زجاجا. وبين نقوش قاعة الاستقبال هذه، وهى ملكية حقا، يجدر بنا أن نشير إلى النقش التالى. ويوجد فى الجانب الشمالى، فى مواجهة عقد المدخل، وتتحدث القاعة الوسطى حيث كان العرش :

تُحيِّيكَ من حين تصبحُ أو تمسى ثغورُ المنى واليمنِ والسعْدِ والأنسِ
هى القبّـةُ العُليَا ونحنُ بُنـاتُهـا ولكنْ لى التفضيلَ والعزُّ فى جِنْسِ

---

(٧٤) يقول ميجيل لفونت عن هذا السقف : إنه رائع، من قطع الخشب المرصع، متعدد الألوان، بيضاء وزرقاء ومذهبة، تشكل دوائر وتيجانًا ونجوما وشهبًا، وتقلد قبة السماء. (خوان باليرا)

جوارحُ كنتَ القلبَ لا شكَّ بينها | وفى القلبِ تبدو قوةُ الروحِ والنفسِ
وإن كان أشكالِى بروجَ سمايها | ففى عَدا ما بينها شرفُ النفس
كسانىَ مولاىَ المؤيدُ يوسفُ | ملابسَ فخرٍ واصطناعٍ بلا لبس
وصيَّرنى كرسىَّ ملكٍ فأيَّدتْ | علاه بحقِّ النورِ والعرشِ والكرسى

وفى أبيات أخرى تجرى مناظرة بين الحنيات التى فى المدخل، وكان فيها أباريق مملوءة ماء، وما فوقها أكثر جمالا وامتيازا، تقول الحنية التى على اليمين:

فقتُ الحسانَ بحليتِى وبتاجى | وهوتْ إلىّ الشهْب فى الأبراجِ
يبدو إناء الماءِ فىَّ كعابدٍ | فى قِبلةِ المحراب قام يُناجى
ضمنتْ على مرِّ الزمانِ مكارمِى | ذى الأوامِ وحاجةِ المحتاج
فكأنَّنى استقريتُ آثارَ النَّدى | من كفِّ مولانا أبى الحجاج
لا زال بدرا فى سمابى لايحًا | ما لاحَ بدرٌ فى الظلام الداجى

وتجيبها التى على اليسار على النحو التالى:

رَقمتْ أناملُ صانعى ديباجى | من بَعْدِ ما نظمتْ جواهرَ تاجى
وحكيتُ كرسىَّ العروشِ وزدتُه | أنى ضمنت سعادة الأزواج
من جاءنى يشكو الظماء فموردى | صِرْفُ الزلالِ العذْبِ دون مزاج
فكأننى قوسُ الغمامِ إذا بدا | والشمس مولانا أبو الحجاج
لا زال محروسَ المهابةِ ما غدا | بيتُ الإله مثابةَ الحُجَّاج

انتهت أمكنة القصر التى عرضنا لها حتى هنا، ويمكن أن توازن بينها وبين تلك التى توجد شرقى المدخل، وليس سهلا أن ندخل هناك دون أن نعتقد ونشعر أننا اختطفنا إلى عالم الأحلام، غير أن أضغاث الأحلام هذه تتلاشى سريعا عندما نرى ونفهم أن كل جوانب البناء تبدى علمها، وتظهر حكمتها، وتعكس تناسبها الواضح، وأنها جميعا ككل، وكل واحدة كجزء، تؤدى دورها فى تناسق تام، مع المجموعة البديعة. والمهندس المعمارى الذى شيد تلك القاعات يجب أن يكون فى الحقيقة أستاذا ماهرا حتى يجعل الطبيعة تشكل جزءا من البللور، وهكذا فحسب استطاع أن يجمع فى حركة موقعة، كل الأعضاء المتباعدة، فى تأليف هندسى



زخارف شعرية على أحد جدران الحمراء ولعل أصل البيت:

طلعتَ بأفق الملكِ (للناسِ) رحمةً ليجلو ما قد كان بالظلم أظلَمَا

بديع، وفى وحدة متناسقة، وأن يتجنب مايمكن أن يحدثه بريق الزخارف النضر من انطباع بأنه يحمل ما فوق طاقته، ولذلك جمع تأثيرات تلك الكثرة الوافرة من التفاهات والتفصيلات، لكى تحدث انطباعا عاليا تماما ومتسلطا.

● ساحة الأسود :

ساحة الأسود، واشتهرت فى الأساطير الشعرية، فراغ مربع واسع، يحيط به رواق من الأعمدة، ولتكوين فكرة عن عظمته القديمة، يجب أن نستشعر بناءه الأول تصورا، بألوانه وذهبه، وقد اختفت فى الجانب الأكبر منها، مع القيشانى اللامع، الذى يكون الافريز القائم على قواعد الجدران، والرسوم التى تتدلى من السقف، وهى مذهبة أحيانا، وفى وسط الساحة حوض كبير من الرخام الأزرق، صحنه سداسى الشكل، ويعتمد على اثنى عشر أسدا من الرخام أيضا، وماؤه يتصل بالماء الذى يجرى فى مختلف قنوات كل القصر، ويتدفق فى نافورة عالية، يقع ماؤها فى الحوض، ويعود إلى الخروج من أفواه السباع. وهذه الأسود، ومثلها أيضا تماثيل حيوانات أخرى، تظهر غالبا، على نحو مارأينا، فى قصور مسلمى إسبانيا وصقلية، ولكن هذه هى الوحيدة التى وصلتنا. وأعمدة الرخام رقيقة وخفيفة، وذات تيجان جديدة الشكل، ودائما متنوعة، وشاهد واضح على ابتكار الفنان الذى لايغلب، وتحمل منفردة أومجتمعة، فى أبهاء صغيرة ذات قباب مفرطحة، العقود التى تحيط بالساحة. وتظهر فى الأسقف والحيطان، وعلى كواتها المتنوعة، النجوم، والشعارات، وشخصيات مجسمة من كل نوع، إنها تركيبة بالغة الثراء من الزخارف والرسوم، ولاتستطيع العين إلا بالكاد أن تتابع هذه المتاهة من الرسوم المتشابكة.

وعلى الجانبين، كما قلنا، تتجمع العقود والأعمدة، وكل واحد منها يكون بهوا صغيرا، مرتفع السقف، مغطى كله بالملاط الخفيف ذى الزخارف المفرغة، أو التى تبدو مفرغة لرقتها، وهى تترك الضوء يتسرب ويعبر كما لو كانت شفافة. وحيثما توجه نظرك تجد الزخارف العربية الدقيقة تعطى الجص مظهر سجادة نسجت بفن ومهارة، وتمتد على السقف، وأطرافها على طريقة أكاليل الغار، مدلاة من

الجدران، فوق العقود. والفكرة فى ساحة الريحان تذكرنا بالحياة البدوية، وهى فكرة سيطرت على عملية إنشاء هذه الساحات، وعلى ينابيعها، ونوافيرها، وبركها، وقاعات الأعمدة التى تحيط بها، وإذا كان خيال الشاعر العربى يؤثر الإقامة فى الصحراء، وإذا كانت نقوش ساحة السفراء تمجد المياه الصافية كأفضل مرطب، وتبدو كما لوكانت تأخذ فى الحسبان سكان الجزيرة العربية وبلاد الشام الجافة، وذات الرمال الحارة، وليس سكان غرناطة التى يرويها العديد من الأنهار والقنوات، فلا نستغرب أيضا أنه ورد فى خاطر المهندسين العرب صورة راحة الظهر، أو«نومة العصر»، على حافة المياه، بركة أو حوضا، فأقاموا القصر على صورة خيام المعسكر، وبدلا من العصى وضعوا الأعمدة رقيقة وهيفاء، والسجاجيد ذات الألف لون ولون، والتى تغطى خيام الأمراء المشارقة، تحولت إلى جدران تكسوها الزخارف العربية، مع الملاط المجصص الذى يغطى العقود، ويتدلى من السقوف، وقلدوا حواشى وثنيات الشيلان، والنسيج، والنوافير التى توشوش فى وسطه، وتجرى مياهها صافية عبر كل القاعات، وسطح البركة لامعا ورقراقا، تحيطه الخضرة، والشجيرات ذات الرائحة العبقة، جاءت، أخيرا، تقليدا للينابيع فى الواحات.

ولكن الحمراء لا يجب أن تكون مجرد مكان للراحة فى الدنيا، يعكر صفوها ضجيج العالم، وإنما يجب أن تصبح أيضًا شيئًا سماويًا، ولهذا أقيمت فوق قمة مرتفع صخرى، حيث لا يصلها أى صوت أو صخب أرضى، وحيث لا يستطيع أى دخان أن يعكر صفو هوائها، وطيبته ونقائه، وحيث يهبط ضوء عذب الجمال، كضوء أعلى السموات السبع، ملتهبًا مثل تيار دافق، من قبتها السماوية المفرطحة.

● ساحة الأختين:

وفى الجانب الشمالى من ساحة الأسود توجد جوهرة القصر كله: تربيعة tarbea، ويسمونها ساحة الأختين، ربما لوجود حنيتين فيها، وربما لاستخدام لوحين من المرمر فى رصفها. وأبوابها من خشب الأرز، مرسومة ومذهبة فى أزمنة أخرى، وتعد لثراء ترصيعها ودقته ولطفه، أدق ما نعرف من هذا النوع. ويتميز



ساحة الأسود فى الحمراء

داخل الساحة بوفرة قيشانية، وجمال ترصيعه على بقية القصر، والأفاريز، والجدران مغطاة بالملاط، وجوانبها المختلفة، والأعمدة، والأفاريز، حافلة كلها برسوم رائعة، من النجوم والحواشى المطرزة، والزهور والتضليعات، تغطيها كلها، وتتقاطع أطرافها وحواشيها وتتشابك، وتخلق أشكالا وأشكالا جديدة، ويمكن القول أنها لا تنفد أبدًا وكلها تتنافس فى الأناقة واللطف. وعندما نتابعها بالعقل، ونفهم هذا القدر الكبير من الرسوم الرائعة، وتومئ إلى خيال ممتاز وثرى، وندرك فى فطانة نظامها والوسائل التى استخدمت فيها، يبدو لنا فى كل لحظة أن الفنان الذى قام عليها استنفد واستهلك كل التركيبات التى يمكن تصورها، ونتأمل دائمًا فى دهشة كيف تتدفق التكوينات الجديدة من أخرى قديمة.

وفى أعلى، ترتفع التربيعة على عمد صغيرة، وعقود وأصداف فى شكل مثمنات، وجاءت فى أدق الطرق الفنية وأمهرها. وثمة سلسلة من التفصيلات الدقيقة، لا يوجد بينها من لا ينافس الآخر ثراء ودقة زخارف، وأخيرًا تجذب القبة أنظارنا، وجاءت فى شكل سقف متدل، ومن خلال شمسياتها يتسرب الضوء خفيفًا، مرتجفًا، ومفتتا. ويكمل سحر المجموعة. ويحار المرء فى هذه القاعة : بأى أجزائها يعجب أكثر هل يعجب بهذا الفيض الدافق من التفصيلات اللطيفة الجميلة، أم بالزخارف اللامعة، أم بهذا التوافق فى النغم، صائبًا وحكيًا، ويصدر عن الجميع، ويمكن أن نؤكد فى حسم وثقة أن فن المعمار لم ينتج أبدًا أى عمل آخر يسبق، أو يفوق، أو يعلو، فى البريق الخاطف، والدقة والتناسق بين كل أجزائه، ما فى ساحة الأختين هذه.

وهناك، نحو الشمال، يوجد ما يسمى بغرفة الأمراء **Cuarto de los infantes**، أو منظرة لندراخا[٧٥] **Mirador de Lindraja** وسميت كذلك لأنها تطل من خلال شمسيات العقود الغنية بالزخارف على حديقة لندراخا الصغيرة، بنافورتها التى تطوقها أشجار الليمون. ومن الصعب أن يجد الإنسان مكانًا للراحة أكثر هدوءا

---

(٧٥) يقول الغرناطيون أن كلمة «لندراخا» هى تحريف لجملة «عين دار عائشة»، وأنها شخصية أخرى غير عائشة الشهيرة، والدة أبى عبدا لله الصغير، آخر ملوك غرناطة، وكلمة عين هنا تعنى النافذة. (المترجم)

وبهجة من هذا المكان : وشوشة النوافير، ولطف طراوة ظل الأشجار، على حين يتسرب بالكاد ضوء الشمس من خلال زخارف العقود المفرغة والرقيقة، وخطرات النسيم التى توشوش، وأريج الزهور التى تتناثر حوله، وكل شىء هنا ينعش الروح، ويفجر الأحلام الشاعرية، ويدفع بها إلى عالم رائع من الحكايات والحكم.

● **قاعة بنى سراج :**

وفى مواجهة ساحة الأختين توجد قاعة أخرى، بُنيت بالأسلوب نفسه، ولو أنها لم تسلم تمامًا من عبث الزمان، وتسمى قاعة بنى سراج لأن الروايات تجعل منها مسرحًا لموت ذلك الفارس النبيل، ويظنون أيضًا أن البقعة الحمراء التى لا تزال على رخام النافورة الأبيض، ظلت هناك شاهدًا وعلامة على ذلك الدم البرىء الذى أريق ظلمًا(٧٦).

وإلى اليمين من ساحة الأسود، على مقربة من القاعات التى كان فيها ملوك غرناطة يتمتعون بأجمل لذاذات الحياة وأشدها ترفًا، توجد مقابرهم، ولكنها تلاشت اليوم تمامًا(٧٧).

وشرقى هذه القاعة نفسها، بعد أن يمر المرء بثلاثة عقود كبيرة يصل إلى قاعة الشريعة، وتتميز بمعمارها الثرى والبهى، وبزخارف الملاط التى تتدلى كالسحب من عقودها، وبثلاثة رسوم تزين الغرف الثلاث التى فى الحائط الجنوبى. وهذه الرسوم الثلاثة على الجلد، ومعلقة فى القباب أو فى ميل السقف. والرسم الأوسط فوق أرضية مُذهبة، ويصوّر عشرة رجال فى ملابس بيضاء، يلبسون عمائم، وأسند كل واحد منهم ذراعه إلى خنجر، وجلسوا على حشايا مطرزة. ويقول عنها مندوثا

---

(٧٦) الاعتقاد بأن هذه العلائم الحمراء على الرخام بقايا دم كانت معروفة فى غرناطة بعد استيلاء المسيحيين على المدينة، وورد هذا فى : أشياء غرناطة، لمؤلفه هرناندو بابيثا، ص ٦٢، غير أنهم كانوا يعتقدون إذ ذاك أن هذا الدم لأمير شاب من الأسرة الملكية الغرناطية اغتيل فى هذا المكان، انظر مرمول، ثورة الموريسكيين، ص ١٣٩.

وفى «رحلة روخاس الممتعة»، وقام بها عام ١٦٠٢، يتحدثون عن بقع الدم هذه أيضًا، ويقولون أنها لما تزل طرية، كأن صاحبها قتل فى اليوم السابق. (طبعة ١٧٩٣، جـ١، ص ١٥١).

(٧٧) مرمول، ثورة الموريسكيين، الفصل السابع.

Mendoza، وقد ولد فى غرناطة بعد استيلاء المسيحيين عليها بثلاث سنوات، وكان يعرف العربية الدارجة ضرورة، وبوسعه أن يعرف الحقيقة : «فى إحدى قاعات الحمراء رسم يضم صورة عشرة أشخاص، وهم ملوك غرناطة، وبعض أهل غرناطة من المعمرين يعرفون بعضهم». وطبقًا لهذا يتحدث أرجوت دى مولينا Argot de Molina عن غرفة فى الحمراء تضم صورة ملوك غرناطة، وشعارات سلاحهم(٧٨). وفى الحق يوجد فى أقصى طرفى الرسم شعاران، لونهما أحمر، مع حزام مذهب. ويبقى رسمها حتى يومنا، وليس ثمة مجال للشك فيما يتصل بالموضوع الذى تمثله، ولكن أدلاء السياحة، وربما السياح أنفسهم، يعتقدون أن هؤلاء الأشخاص يمثلون قضاة المحكمة، ولهذا يطلقون عليها قاعة الشريعة، وكلها افتراضات تقوم على معلومات خاطئة.

والرسمان الآخران يمثلان مشاهد بالغة الإثارة لمغامرات صيد وحب، وفيها يظهر مسيحيون ومسلمون. وفى الرسم الذى على اليمين يظهر بناء قلعة، ذات أبراج من الطراز القوطى، لأن المشهد يجرى فى أرض مسيحية، وفيه نرى سيدة معها أسد مقيّد. ومخلوق ضخم، فى صورة إنسان، ولو أنه كث الشعر كحيوان، يأسر السيدة، ولكن فارسًا مسيحيًا يجىء لتحريرها، ويصرع هذا الحيوان الهائل المخيف. وثمة حصن أيضًا بجدرانه وأبراجه، تطل سيدة من شرفة فيه على فارس مسلم، يطعن برمحه فارسًا آخر مسيحيًا، ثم نرى فارسين مسيحيين أولهما يصارع راجلًا أحد الأسود، والثانى ممتطيا صهوة حصانه ويقتل دبًا، وعلى بُعْد منهما يقوم بناء آخر فى صورة قصر، ويظهر فى أحد أبراجه فارس وسيدة، وأمامه يوجد أشخاص آخرون جالسون يلعبون الشطرنج. وأخيرًا، ثمة عربى على ظهر جواده يصطاد أيلا.

ورسم الغرفة الصغيرة التى على الشمال يعرض أولا ثلاثة فرسان مسيحيين يصطادون أسودًا ودببة، وأحد هؤلاء الفرسان يركع أمام سيدة، ويقدم لها دبًا اصطاده. ونرى فى المواجهة، إلى جانب نافورة أنيقة، سيدة أخرى وضعت يديها

(٧٨) مندوثا، حرب غرناطة، سلسلة ريبادنيرا، ص ٦٥ - أرجوت دى مولينا، نبلاء الأندلس، الكتاب الأول، الفصل ٩٧.

متقاطعتين، وتتحدث مع رجل، وعلى بعد منها فارس عربي صرع خنزيرًا جبليا jabali، وأتباعه من القنّاصين يحملون الجبلى المصاد فوق بغل، ويصحبه الفارس نفسه أخيرًا، وهو إلى يمين البغل، ويضع الجبلى تحت أقدام سيدة أخرى، وراءها قصر يضم شرفات وقاعات وأبراج، وهذه السيدة، ونساء أخريات يكوِّن حاشيتها، تبدو وكأنها خارجة من هذا القصر.

من الصعب أن نحدد معنى وموضوع هذين الرسمين، وفيهما فضلا عن المشاهد الرئيسية التى أتينا عليها، مناظر أخرى متنوعة حية، وموضوعات أخرى صامتة، ومع كل هذا يغلب على الظن، احتمالا، أن موضوع الرسمين مأخوذ من حكايات غرناطية معروفة، وكم كان العرب يحبون هذا اللون من القصص!

لقد كانت هواية الاستماع إلى القصص فى أسبانيا أعمق مما عليه فى أى مكان آخر، فيما يبدو، ويقول المقرى فى كتابه نفح الطيب: إن فن حكاية الأقاصيص، والحكم المسلية، كان وسيلة فعالة للدخول فى مجتمع ملوك وعظماء الأندلس[٧٩]. ومشاهد وجماعات هذين الرسمين هى: عرب يقتلون فارسًا مسيحيا فى مبارزة، وجماعات صيد وقنص، وهو أمر مشترك بين مختلف العقائد والنحل، وعذارى فى خطر، وفرسان يكرون لإنقاذهن، وهى موضوعات، بلا شك من ذلك النوع الذى تتسع له الحكايات العربية الإسبانية بكثرة. وعلى حين أن الرسم فيما يتصل باللون لا يومىء بالتأكيد إلى فن متقدم جدًّا، وإلى حد ما لا نكاد نلحظ فى المنظر أى وجه، ولكن الرءوس لا يعوزها التعبير، جوانب الوجه فى رسم الأشخاص تشير إلى لون من الحذق والمهارة فى الرسم، وهى شىء نادر عادة مع الخطوات الأولى فى ممارسة الفن.

والرأى الشائع فى كثير من الكتب أن الإسلام يمنع تصوير الكائنات الحية، وأن هذا التحريم قاطع ويعمل به كل المسلمين، أفسح الطريق أمام من يعتقدون أن هذه الصور من المحال أن تكون من عمل المسلمين، وهو رأى خاطئ ولسنا فى حاجة إلى دحضه وتفنيده من جديد، فقد أظهرنا فى أمكنة أخرى من هذا الكتاب، وبأمثلة كثيرة، أن المسلمين لم تكن تقف فى طريقهم أية عقبة، وفى كل

(٧٩) المقرى، ١٣٧/١.

العصور، فيما يتصل بمثل هذا اللون من التصوير. والأمثلة التى من هذا النوع كثيرة يمكن أن نجدها فى سهولة مذهلة، ولكنى سوف أشير هنا إلى مثلين أزيد فحسب كتأكيد لما أشرت إليه من قبل. فمن بين الهدايا الرائعة التى أرسلها هارون الرشيد إل شارلمان ساعة، يظهر فيها عند نهاية كل ساعة زمنية اثنا عشر فارسًا، كل واحد فى نافذة[٨٠]، وكان لدى الخليفة المقتدر بالله شجرة صناعية فى قاعة العرش، صُنعت من ذهب وفضة، على أغصانها أنواع مختلفة من الطيور، عُملت من الذهب والفضة أيضًا، وبطريقة تجعلهم يسمعون لها هديلا وغناء[٨١]. ويصف الشاعر ابن حمديس بركة فى قصر بناه المنصور بن أعلى الناس فى بجاية عليها أشجار من ذهب وفضة، ترمى فروعها المياه، وتفنن فذكر أسودًا على حافتها، تقذف بالمياه أيضًا:

وبديعة الثمراتِ تعبُرُ نحوَها ... عَيْنايَ بَحْرَ عجائب مَسْجُورا
شجرية ذهبية نزعتْ إلى ... سِحْرٍ يؤثر فى النُّهى تأثيرًا
قد صُولِجَتْ أغصانُها فكأنما ... قَنَصَتْ بهنّ من الفضاء طُيورا
وكأنما تأبى لواقع طَيْرِها ... أنَ تستقلَّ بنهضِهَا وتطيرا
مِنْ كلِّ واقعة ترى منقارَها ... ماءً كسلسال اللُّجيْن نميرا
خُرسٌ تُعَدُّ من الفصِاح فإنْ شدتْ ... جعلتْ تُغرِّد بالمياهِ صَفيرا
وكأنما فى كل غُصْن فضّة ... لانتْ فأرْسِلَ خَيْطُها مجْرُورا
وتريك فى الصِّهْريج مَوْقع قطرِها ... فوق الزَبْرجَدِ لؤلؤًا مَنْثورا
ضحكتْ محاسنُه إليكَ كأنما ... جُعِلَتْ لها زُهرُ النجوم ثغورا[٨٢]

وفيما يتصل بالأندلس رأينا قبل كيف كان فى المسجد الجامع بقرطبة صورًا على أعمدة حمراء، ومن بينها صورة أهل الكهف، وكيف أن عبد الرحمن الناصر زين باب قصره فى الزهراء بتمثال لمحظيته، وكيف كان يلمع فى قصر الملك باديس فى غرناطة تمثال فارس مسلح من النحاس وكيف كان يزين قصور أمراء الأندلس،

---

(٨٠) Einhard, Annalcs ad annum, 807.

(٨١) أبو الفدا، ٢/٣٣٣.

(٨٢) القصيدة طويلة، وأورد المقرى ثمانية وأربعين بيتا منها، فى كتابه نفح الطيب، جـ ١ ص ٤٩١ - ٤٩٣، طبعة إحسان. (المترجم)

دائمًا تقريبًا، تماثيل أسود أو حيوانات أخرى، نحتت من الحجر، أو صيغت من المعدن. وفيما يتصل بالرسم فإن الاعتراض عليه أقل مما وجه إلى التماثيل لأن الآية رقم ١٩ من سورة المائدة: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إنَّما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلام رجسٌ من عمل الشيطانِ فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾، إنما تحرم التماثيل، وأن الرسول حرم هذه فحسب، ويفهم الكثيرون من الآية أنها تشير إلى عبادة الأصنام لا غير[٨٣]. وبين المسلمين عدد ليس بقليل يرى تحريم تصوير الكائنات الحية على نحو يجعل لها ظلا[٨٤]، ويرى أن المحرم بوضوح كتحريم الخمر، وهى محرمة قطعًا فى الآية، أن ننحت تماثيل لأشخاص أو حيوانات من الحجر أو المعدن، أو غيرها. ولكن الاعتراض يصبح أقل حسمًا وصعوبة على رسم الأشياء نفسها. وليس ثمة شك فى أن العرب استخدموا الرسم كثيرًا لتزيين قصورهم وبيوتهم، ولم يقفوا عند حد رسم الطبيعة الصامتة. ولدينا من القرن الحادى عشر شاهد قاطع نجده عند الشاعر الصقلى ابن حمديس، وهو يصف قصر المعتمد بن عباد فى أشبيلية، فيقول:

ترى الشمسَ فيها لِيقةً[٨٥] تستمدُّها ... أكفُّ أقامتْ من تصاويرها شَكْلا
لها حركاتٌ أودعتْ فى سكونها ... فما تَبعتْ فى نَقْلهنَّ يدٌ رِجْلا
ولما عشِيْنَا من توقُّد نورها ... تَخِذْنَا سَنَاهُ فى نواظرنا كُحْلا[٨٦]

وفى قصيدة أخرى يصف الشاعر نفسه قصر المنصور فى بجاية، ونستنتج منها أن سقوفه كانت مزينة بالصور، يقول:

---

(٨٣) تطلق الأنصاب، جمع نصب، على الأحجار التى ترفع فى بعض الأمكنة المقدسة، وعليها يراق الزيت، طبقًا للطقوس التى كانت شائعة بين عدد كبير من الأمم القديمة، والكلمة نفسها استخدمت فى الآية الثالثة من السورة نفسها لتشير إلى أنصاب الوثنيين. والمسلمون المتشددون، الذين يلتزمون التقاليد فى صرامة، هم وحدهم الذين يجعلون الكلمة تتضمن التماثيل أيضًا، ومع ذلك فإن الفرس والهنود، وهم مسلمون، يفهمون معنى الكلمة الوارد فى الآية على نحو أشد تسامحا وتحررًا.

(٨٤) لين بول، المصريون المحدثون، ١٣٥/١.

(٨٥) ليقة، أى ملتصقة.

(٨٦) القصيدة التى أخذنا منها هذه الأبيات، والأبيات التالية لها، توجد فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

● ترجمنا الجزء الأول والثانى، وسيصدران قريبًا فى مجلد واحد بعنوان «الشعر العربى فى أسبانيا وصقلية» (المترجم)

وإذا نـظرتَ إلى غرائبِ سقفِـه ... أبصرتَ روضًا فى السماءِ نضيرا
وعجبتَ مِن خُطَّاف عَسْجده التى ... حـامتْ لتبْنِىَ فى ذُراه وُكـورا
وضعتْ بـه صُنّاعُـهُ أقلامَهـا ... فـأرَتْـكَ كـلَّ طريـدةٍ تصـويـرا
وكـأنمـا للشمس فيـه لِيقَـةٌ ... مَشَقُـوا بهـا الـتزويق والتشجـيرا
وكـأنّمـا بـالـلّازوَرْدِ مُـخَـرَّمٌ ... بـالخطِّ فى وَرَق السماءِ سـطورا
وكـأنمـا وَشَّـوْا عليـه مُـلاءةً ... تـركوا مكـانَ وِشاحهـا مَقْصُورًا

والحق أن رسمى الحمراء كانا يوجدان بالدقة فى السقف أيضًا، غير أن الصور التى كانت فى قصر المنصور رسمها فى القرن الحادى عشر الميلادى فنانون مقتدرون للغاية، وتمثل مناظر صيد تشبه كثيرًا تلك التى تشغل جانبًا كبيرًا من اللوحتين اللتين أشرنا إليهما من قبل.

ومن ثم لا يوجد أى سبب لكى نشك فى الفكرة القائلة بأن المسلمين هم الذين رسموهما، وكل أساس يقوم عليه رفض الفكرة ينهار فى ضوء ما قلنا. وليس ثمة سبب يدعو إلى أن ننسب هذين الرسمين إلى فنانين آخرين ليسوا من العرب، بل على العكس، كل الظروف التى أحاطت بهما تجعل القول بأنهما من عمل فنانين عربا أقوى احتمالا، وأقرب إلى اليقين، لأن الرسمين كليهما يمثلان المسلمين فى صورة المنتصر على المسيحيين، وهما فى أسلوبهما غير معروفين للفنانين المسيحيين، فقد رسما فوق جلود مطبوخة لصقت فى السطح، والزخارف التى تحيط بالصور، وزخارف أخرى فى الصور نفسها، تتفق تماما فى أسلوبها مع بقية زخارف الحمراء. وكل هذا يجعلنا نرجح بحق نسبتها إلى نفس الأشخاص الذين قاموا ببناء وزخرفة كل الجانب القديم من القصر.

أما الرأى المعارض فيقوم على عقيدة خاطئة قطعًا، وفندناها من قبل، وعمادها أن الإسلام يحرم رسم الكائنات الحية، ودقة الرسم البالغة فى هذه الصور، إذا قورنت بفن النحت الجاف فى أسود النافورة التى تحمل الاسم نفسه، لا تدعم الاحتمال الممكن فرضًا والقائل بأن الفنانين الذين أبدعوهما من الأجانب، لأن نحت الأسود يمكن أن يعود إلى زمن أقدم، أو أنها من عمل فنان أقل مهارة، أو - وهو الأكثر احتمالا - لأن الأسود نُحتت لتقوم عليها النافورة، ولم ير الفنان من

الضرورى أن يقلد فيها الطبيعة بدقة، واكتفى بإعطائها مجرد ملامح تقليدية فحسب، وفيما عدا ذلك، فإن هذه الرسوم، رغم كل ما اشتهرت به، ومهما كان إطراؤنا لها، لا تكاد تتجاوز مرحلة طفولة الفن، وبدل أن ننكر أن الذين أبدعوها من الفنانين العرب، لأنها تنطوى على قدر كبير من الجمال، يمكن أن نندهش لأن العرب بعد قرون طويلة من ممارسة الفن لم يبلغوا درجة عالية من المهارة فيما أبدعوا منه.

وأخيرًا فإن معارف أولئكم الذين يحاولون أن يكتشفوا فى لوحتى الحمراء هاتين أسلوب الرسامين الإيطاليين فى القرن الرابع عشر الميلادى، أو أسلوب نظرائهم من الإسبان فى القرن الخامس عشر، أو حتى من يردّونها إلى أستاذ فنان محدد، واهية بقدر لا يستأهل منا أية مناقشة أو تفنيد.

وعلى النقيض مما يقولون، نحن نلحظ للوهلة الأولى تشابهًا كبيرًا بينها وبين الرسوم، والتصاوير المائية، فى المخطوطات المشرقية، مثل كتاب النظامى، أو الفردوسى. ونلمح هذا التشابه فى لوحة الوسط واضحًا، ويتجلى بخاصة فى حيوية الألوان ودفئها، وفى غيبة المنظور واللون الغامق. ونلحظ هذا التشابه فى الرسم أيضًا وبخاصة فى رسم الخيل، ومن ثم فإن لوحتى الحمراء هاتين إذا لم تكونا من عمل فنان عربى، كما يغلب على الظن احتمالا، فيمكن أن تعودا إلى أصل فارسى، وهى فكرة لا يقف دونها أى اعتراض وجيه، فمنذ زمن قديم جدًّا ازدهر فن الرسم بين الفرس هواية، وأقبلوا عليه متحمسين، واستخدمهم الآخرون فى مثل ذلك النوع من التصوير، وطبقًا **لابن بطوطة**، كان فى **غرناطة** «جملة من فقراء العجم، استوطنوها لشبهها ببلادهم»[٨٧].

لا يمكن أن نعرض هنا لكل جوانب الحمراء، وإنّما نشير إلى ما كان منها جديرًا بالنظر ويسترعى الاهتمام. وسنقوم بجولة صغيرة بين المبانى المنعزلة، والتى توجد بين أسوار القلعة، وكانت قديمًا مرتبطة بالقصر فيما يحتمل، وأغلبها لا يزال حتى يومنا متواريًا وراء زخارف معمارية رائعة، مثل ما يسمى «بيت شانجة Casa de

---

(٨٧) ابن بطوطة، ٢٧٣/٤.

Sanch » ويطلقون عليه أيضًا اسم « منظرة الأمير Mirador del Princepe » وكانت أمامه من قبل بركة تشبه التى فى ساحة الريحان، ومن الطابق الأعلى فيه، وقد كسى بالقيشانى والملاط فى ثراء، يستطيع المرء أن يستمتع بمنظر وادى الدارو الفائق الجمال، وبجنة العريف على مقربة منه. والنقوش التى هناك، إلى جانب الجمل التى تُردد بكثرة عبارات عن « السعادة »، و« السعادة الباقية »، وتضم كثيرًا من الدعوات الطيبات مثل :

يـا نـقـى يـا أمـلى أنت الرجا أنت الـولى
فـيـا للنبى المـرسـل اختم بـخـير عـمـلى

وفضلا عن ذلك، فإن الجدران مغطاة بأبيات من الشعر، نصف مطموسة، وليس فى مكنتى فك طلاسمها وقراءتها. ومن المبنى الذى أشرنا إليه آنفًا، نصعد عبر انحدار الربوة الشمالى حيث الحمراء، فنلتقى بعدة أبراج أخرى متنوعة، أوضحها « برج الأمراء Los infantes » و « **برج الأسيرة** La Cautiva » وكلاهما يضم فى داخله غرفًا ذات زخارف بديعة، تنافس أجمل زخارف الحمراء. وبرج الأسيرة(٨٨) يضم فضلا عن ذلك جمهرة من النقوش تشير إلى أن السلطان أبا الحجاج يوسف هو الذى بناه، أو أمر بتزيين جدرانه، إلى جانب آيات من القرآن، وأبيات من الشعر.

---

(٨٨) يقول إميليو لفونت القنطرة : « توجد فى هذا البرج قاعة صغيرة وبديعة نسيها كثير من الكتاب والفنانين الذين وصفوا آثار غرناطة بالدقة وتفصيلا، ولا أعرف أن نقوشها كانت موضع دراسة، أو حتى أمكن فهمها، فى المجموعات التى نشرت حتى الآن. وطبقا لطابع زخارفها تنتمى إلى نفس العصر الذى بنى فيه برج قمارش، وتشير نقوشها إلى يوسف أبى الحجاج، سابع أمراء بنى نصر، ويرى بعضهم أن هذا البرج كان فيما بعد سكنًاللسيدة ايزبيل سوليس، ودخلت التاريخ تحت اسم الأميرة ثريا، وأحدثت غرامياتها مع الأمير، وكانت جارية له، اضطرابات كثيرة وعنيفة فى البلاط الملكى، وأثارت الأحقاد والعداوات والدسائس، وأسرع هذا كله بالمملكة الغرناطية الضعيفة إلى الانهيار». فضلا عن جمهرة الزخارف، والنقوش ذات العبارات التقية، والأشعار التى ترجمها شاك، فإن لفونت القنطرة أورد ثلاث قصائد وترجمها، كانت توجد فى هذه القاعة.

ويبدو لى أن شاك ترجم أقل هذه النقوش طمسًا وتشويها، وفى القصائد الأخرى كتلك التى يفخر فيها الشاعر بنفسه، « توجد توريات ومجازات وجناس، وأبلغ آيات الإطراء على الملك يوسف فهو الأبهى جمالا والاعظم شجاعة، والأكثر علمًا وأدبًا، وأكمل الرجال. (خوان باليرا)

● **مسجد الحمراء والحمامات :**

ونعود الآن إلى البيت الملكى، ومن الضرورى أن نقول شيئًا عن المسجد والحمامات. أما المسجد فقد قام كارلوس الخامس بتحويله إلى مصلى كنسى، وأصابه التشويه تمامًا، ولكن الواجهة إذا نظرنا إليها من الصحن، تتيح لنا أن نتعرف على أصله من خلال تفاصيل الزخارف الكثيرة التى لا تزال قائمة حتى الآن.

والحالة التى عليها الحمامات، وقد تحولت إلى أنقاض، تثير الأسى البالغ والحزن العميق، ويمكن أن نستنتج من بعض البقايا فحسب أن المرمر والفسيفساء والقيشانى استخدم فى زخرفتها بوفرة. ومن موقع الحجرات يمكن أن نتعرف إلى التقاليد التى كانت متبعة، ومازالوا يسيرون عليها فى حمامات المشرق حتى الآن، فنلحظ أن هناك غرفة للراحة، وفوقها قاعة، وربما كان يجلس فيها الموسيقيون، وأمامها فسحة مبلّطة بالرخام الأبيض، لأخذ حمامات البخار، وفى وسطها فتحات كثيرة فى شكل نجوم. وسلسلة من الحجرات والممرات بين قاعة قمارش وساحة الأختين، وهى حديثة تمامًا، ويطلق عليها غرفة «زينة الملكة»، وتعود فى حالتها الحاضرة إلى عصر كارلوس الخامس. وهذه الغرفة قاعة مفتوحة، تفيض بفتنة لا توصف، وتنهض كعش النسر، فوق السور الذى يحيط بالحمراء من الجانب الشمالى، وتبدو كما لو كانت معلقة فى قمة برج ينهض بدوره على صخرة عالية، وتحت أقدامها، فى عمق بعيد، يوشوش نهر الدارو، ومن هناك يمكن للمرء أن يستمتع بمنظر البيازين فى انحداره، وبجنة العريف العالية، وتلمع بين أشجار الرمان والغار، وبقمة جبل بليته Veleta التى يغطيها الثلج، ويقال عنها أنها تصافح السماء، ولها كل روعة الخيال وفتنة الأحلام.

لا تُظهر الحمراء كل سحرها، ولا تكشف عن كل مفاتنها، إلا بعد تأمل طويل. لابد من العيش فى هذا المسكن الذى بنته الجن، ويجب أن يحلم المرء فى مغاراتها الحجرية الرطبة، وبين أفنانها وأعمدتها، والاستسلام لتأثير سحرها المتنوع الدائم، سواء عندما يدلق الفجر طراوة نداها السماوى فوق سطوحها وممراتها، أو

حين يرسل أشعة الضوء المتفجرة وترتجف فوق الجدران كما لو كانت تزينها بالجواهر، أو عندما تُغرق كل القصر فى أشعتها الذهبية الجنوبية المجيدة، وتجعله يسطع بهاء، كما لو كان من عالم آخر غير دنيانا هذه.

وتدخل، ومعك شعراء المشرق بين يديك، تستروح فى الشرفات العالية أريج تلك الوحدة الشافية، أو تجلس إلى جانب نافورة الأسود تتسمع إلى خرير المياه الساحرة تحت الأرض، بينما قمر ليلة صيف أندلسية يبحر فى السماء، ناثرًا ضوءه بين عمود وآخر، ويملأ الأروقة والتربيعات بظلال متمهلة وشاردة، كأنها أرواح عصور مضت، وعبقريات زمن خلا. ومن يتيح له الحظ فحسب مثل هذا، يستطيع أيضًا أن يتعمق فى أسراره، وأن يحل ألغازه، وحينئذ تغمره الأشعار المنقوشة التى تزين القاعات، وتغطى الجدران والأعمدة، وتبدو كرموز سحرية بالأمان والاطمئنان، وتلفه فى حنان غامر، وتنشده أغنية جميلة، ويتحول البناء كله إلى شعر وإيقاع، وتتحدث نافورة الأسود أولا، يقول نقش الحوض:

تباركَ من أعطى الإمام محمدًا ... مغانىَ زانتْ بالجمالِ المغانِيَا
وإلاّ فهذا الروضُ فيها بدائعٌ ... أبى الله أن يلقى لها الحسنُ ثانيًا
ومنحوتةٍ من لؤلؤٍ شفَّ نورُها ... تحكى بمرفضِّ الجنانِ النواعيا
يذوبُ لجينٌ سال بين جواهرٍ ... غدا مثلُها فى الحسن أبيض صافيًا
تَشابَهَ جارٍ للعيون بجامدٍ ... فلم نَدْر أيًّا منهما كان جاريًا
ألم تر أنّ الماء يجرى بصفْحِها ... ولكنها مدَّتْ عليه المجاريا
كمثل محبٍّ غاض بالدمع جَفْنُه ... وغضَّ بذاك الدمع إذ خاف واشيًا
وهل فى التحقيق غيرُ غمامةٍ ... تفيضُ إلى الآسادِ منها السواقيا
وقد أشبهْت كفَّ الخليفةِ إذْ غدتْ ... تفيضُ إلى أسد الجهادِ الأياديا
فيا من رأى الآساد وهى روابضٌ ... عداها الحَيَا عن أن تكون عواديا
ويا وارثَ الأنصار لا عن كلالَة ... تراثَ جلال يستخفُّ الرواسيا
عليكَ سلامُ الله فاسلمْ مخلَّدًا ... تجدِّدُ أعيادًا وتُبلى أعاديا

أما ساحة الأختين فتطرى نفسها عجبًا على هذا النحو:

وروضةِ حُسْن للشباب نضيرة ... هصرتُ بغصن البان فيها المجانيا

ولله مبناكَ الجميل فإنّه ... يفوق على حكْم السعودِ المبانيا
فكم فيه للأبصار من مُتنزَّهٍ ... تَجِدُّ به نفسُ الحليم الأمانيا
تبيتُ لهم كفُّ الثريا معيذةً ... ويصبح معتل النواسم راقيًا
وطامحةٍ فى الجو غير مطالة ... يردُّ مداها الطرفَ أَحْسَرَ عانيا
تمدُّ لها الجوزاءُ كفَّ مسارع ... ويدنو لها بدرُ السماء مناجيًا
وتهوى النجومُ الزهر لو ثبتتْ به ... ولم تكُ فى أفق السماء جواريا
ولو مثلتْ فى سابقيه لسابقتْ ... إلى خدمة ترضيك منها الجواريا
ولا عَجَبٌ أنْ فاتت الشهب بالعُلا ... وأنْ جاوزتْ منها المدى المتناهيا
فبين يدىْ مثواك قامتْ لخدمةٍ ... ومن خدمَ الأعلى استفاد المعاليا
به البهو قد حاز البهاءَ وقد غدا ... به القصرُ آفاقَ السماءِ مُباهيا
وكم حُلَّةٍ جلّلتهُ بحليْها ... من الوشْى تنسى السابرىَّ اليمانيا
وكم من قسىٍّ فى ذراه ترفَّعتْ ... على عمُد بالنور باتتْ حواليا
فتحسبها الأفلاك دارتْ قسيُّها ... تظل عمودَ الصبح إذْ باتَ باديا
سوارى قد جاءتْ بكلِّ غريبة ... فطارت بها الأمثالُ تجرى سواريا
به المرمر المجلوُّ قد شفَّ نوره ... فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
إذا ما أضاءتْ بالشعاع تخالُها ... على عظمِ الأجرام منها لآليا
فلم نر قصرًا منه أعلى مظاهرًا ... وأرفع آفاقًا وأفسح ناديا
ولم ندرِ روضًا منه أنعم نضرةً ... وأعطر أرْجاء وأحلى مجانيا
مصارفة النقدينِ فيها بمثلها ... أجازَ بها النقدين منها كما هيا
فإنْ ملأتْ كفَّ النسيم بمثلها ... دراهم نورٍ ظلَّ عنها مُكافيا
فيملأ حجر الروض حول غصونها ... دنانيرَ شمس تترك الروضَ حاليا
[عجائبُ لم تخطر ببالٍ وإنما ... ظَفرْنا بها عن همة هى ما هيا][89]

---

(٨٩) البيت الأخير اختفى فى وقتنا، وعوض بزخرفة حديثة يتكرر فيها الرقم ٧، ولكن الونسو دل كستيو احتفظ لنابه، ولم يكن اختفى على أيامه. والأبيات من شعر ابن زمرك قالها بمناسبة إعذار الأمير ابى عبد الله محمد، بن محمد الخامس، وتوجد كاملة فى نفح الطيب، جـ٧، ص ١٨٨ – ١٩٥، طبعة إحسان عباس.

● انظر أيضًا : اميليو غرسية غومث، شعراء الأندلس والمتنبى، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ص ٢٢٦، الطبعة الرابعة، دار المعارف القاهرة عام ١٩٨٥. (المترجم)

صحراوات اليوم أصبحت هذه القصور!

اختفت كل الحياة البهجة التى كانت تملأ أجواءها يوما، فى عصور خلت، ولم يعد أحد أبدًا يسمع سيدة Zaida تعزف فى شرفتها على العود لعاشقها. ولكن أحيانًا، فى أيام الحفلات، والمهرجانات والأعياد تتفجر كل النوافير، ويلتقط القصر الصامت أنفاسه، وحينئذ، وحيثما تمضى، يتدفق الماء صافيا، قويًا عنيفًا لا يقاوم، كمشاعر تعرضت للضغط زمنًا طويلا، ثم تفجرت مندفعة من أعماق القلب، فياضة كشريط من الفضة، تتدفق فى الشلالات، وتمضى عبر قنوات من الرخام المصقول الناصع. وكان يقال: إن البهاء القديم يرفع رأسه مع الماء من بين حشاشات الأرض، وكان مدفونًا هناك من زمن بعيد، كما لو أن أرواح سادة ذلك البيت السحرى، وعبقرية العرب، مع خزائنه المخبأة، صحت لتزيّن من جديد هذه الأمكنة الممتازة، بكل جلال ماضيها.

ويزدهر ربيع شرقى، ينتشر وينعش الأحجار، يُعيرها الضوء والدفء، وتنبعث الخضرة فى البراعم من جديد، ويهيج ناضجًا، وتتفتح الأزهار، وتنتشر قطرات الندى، على حين يعبق نسيم الصبا عبر التربيعات، بأريجه الذى التقطه من بلاد النخيل، والضوء قلقًا ومطحونًا يتكسر أشعةً فى النوافير، ويجرح الضباب، ويطوف ويلمع كسحابة فجر متمهلة، وترتفع أنغام الزمن القديم فى كل الأروقة والقاعات، وتندفع فى حشد من الطرب والابتهاج.

سعيد من يستطيع زيارة الحمراء فى مثل تلك الأيام. حينئذ سوف تستيقظ فى روحه الأحلام المكبوتة، وتحيا الآمال الضائعة، كما تنبعث حوله بهجة القصر العربى فى ماضيه، نصف أمجاد ونصف أطلال.

أعرف جيدًا.. ليس كل الناس يرون هذه الأشياء ويحسون بها، ويجب ألا يدخل هذه القصور أبدًا من لا يحترمونها ويتعرفون على الأحجار بوصفها أحجارًا فحسب، ولا يفهمون روح الشرق العظمى، ولا يأخذون بها، وهى تتحرك وتتنفس، وتطوف فى هذا العالم المزدهر من المرمر.

ونصعد مرة أخرى إلى القمة، عبر طريق صخرى معلق بين الشجيرات

المتشابكة، والزهور الوارفة، وورود العسل الفواحة، حيث جنة العريف برباها العالية تطل على الوادى العميق. وبيت الراحة هذا عانى على نحو لا يقارن أكثر من بقية أجزاء الحمراء الأخرى التى قاومت الفناء، وقد أصبحت جنة العريف أطلالا تقريبًا، أو أصابها التجديد على نحو بعيد، فزخارف الأفاريز، والتوريقات، ونقوش الجدران والعقود، وقاعات الأعمدة وغرفاتها، أتت يد الإنسان القاسية على الجانب الأكبر فيها، وكل ما ندركه منها حين نتأمل حالتها الحاضرة، فكرة مجملة خفيفة عن الطريقة التى كان بها العرب يخططون معمارهم فيما يتصل بإنشاء الحدائق، وكيف أنها تفتن المشاعر بساحاتها الجميلة وأروقتها الرشيقة، ودقة استخدام المياه فى التجميل، والأزهار الكثيفة والغابات الصغيرة المثمرة، والأغصان الكثيفة المظلة، ورغم ذلك لا تزال تحتفظ بموقعها الفاتن الذى لا يقاوم سحره، على الرغم من احتضارها الحالى. ويبدو أنها كانت المقر الصيفى لملوك غرناطة، بساحتها التى تتخللها الجداول، وأشجار الغار تغمرها بفىء طرى، وبمناظرها الرائعة تفوق أى، وكل، وصف حيث يستمتعون من خلال المناظر والحدائق المعلقة برؤية شاعر حالم اقتحم بسحره عالم الحقيقة.

ومن لم يقض أبدا أصيل يوم ربيعى فى جنة العريف لا يحق له أن يقول أنه رأى الخلق فى عظمته كاملة : وهذه الوحدة الغرامية، وظل أشجار الرمان الرقيق، والعطر الفوّاح تعبق به ألف زهرة وزهرة، ومنظر جنة عدن النضرة، فى أجمل مقاطعة على وجه الأرض، واد بين جبال الألب، تحت شمس استوائية، تكسوه خضرة غنية جنوبية، وكل هذا يملأ الروح بدهشة دينية حلوة، كمن يدخل فى معبد الطبيعة المقدس والغامض. ومن خلال أزهار الغار والأشجار التى تزيّن الحياة، تلتف فى جمال، أو تتدلى فى فتنة، يمتد البصر عبر انحدار وراء انحدار، وكلها تكسوها الخضرة، حيث يتكاثر التين الشوكى، ويتفتح نبات الصبر الأمريكى، ويمد أوراقه الكبيرة والعريضة، وتتشابك أغصان أشجار الريحان والليمون، وتسرع الجداول الصغيرة الموشوشة، تعلوها رغوة، فى العمق بين أشجار الدفلى. وترسل أشجار السرو فيئها الأكثر طولا، وتمتد هبات أرجوان نيرّة فوق الفج، على حين تخفى الشمس قرصها بين قمم الجبال، وشرفات الحمراء،

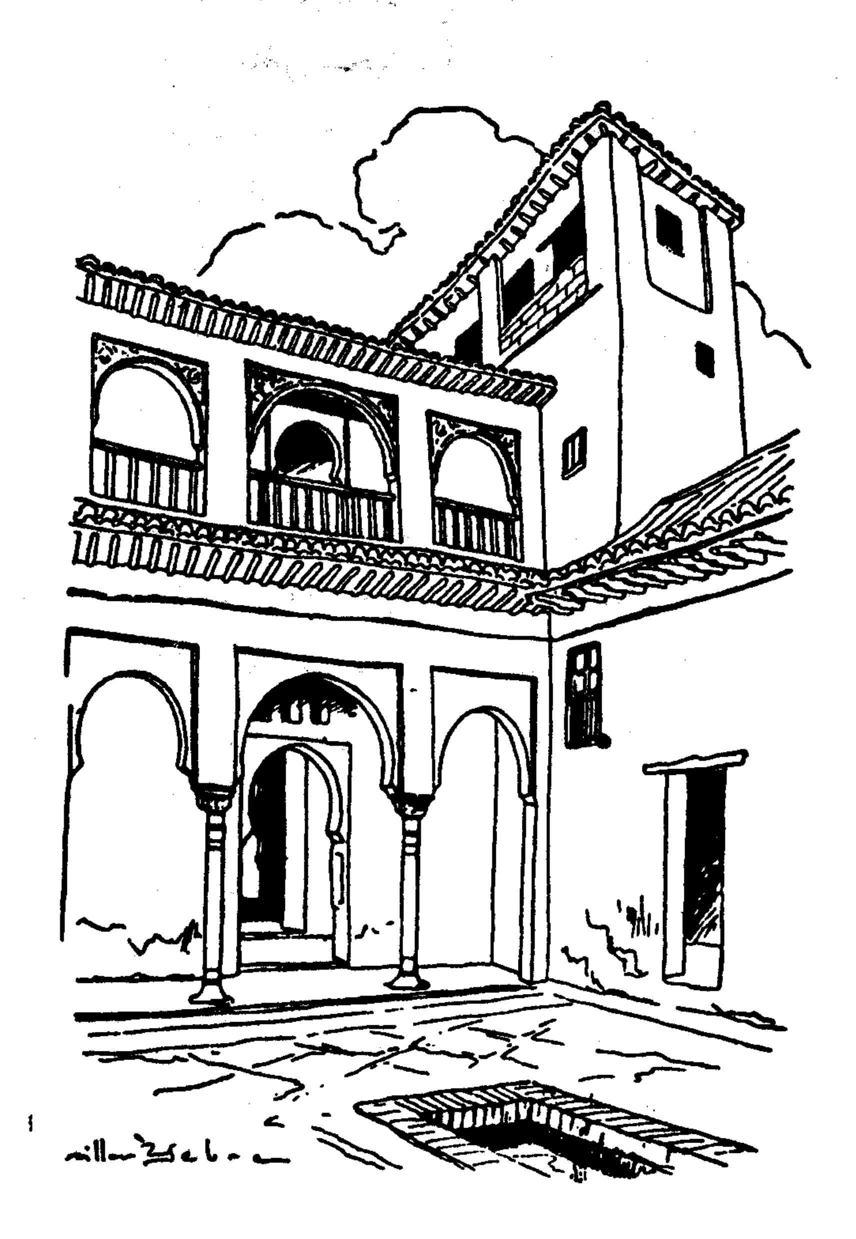
وتتوج أعالى أشجار الدرداء، وتسبح فى بريق أحمر ملتهب، وبينما زهرة الأصيل تتلألأ على رءوس الأحجار، وفى قمم السيرا العالية تتوجها الثلوج، وتعكس كل ألوان قوس قزح، وتغمر الوادى كسحابة من الضوء المتموج الكسول، ولا تلبث أن تتحول إلى بخار أزرق، ثم تتلاشى أخيراً بين الظلال، ويرن فى مئة برج لدق الأجراس فى المدينة إيقاع «حواء مارية»، وعندما يسقط الظلام ينهض ليل الجنوب من بين كل المغارات، حالما كأميرة من أميرات الحكايات المشرقية، ويتدفق شذا كمائم الزهر الأشد التهابًا، موشوشًا فوق قمم أشجار السدر، ويدخل الليل جنة العريف، وحينئذ تبدو الأزهار والثمار أقوى بريقًا، وأشد لمعانًا بين الأوراق الخضرة، وتمضى أشعة القمر الطرية متسربة بين الأغصان، تتأرجح بين النوافير، وتترقرق على الجداول، وتغرد الأطيار فوق الأغصان فى رقة وعذوبة، ويسمع من بعيد صوت قيثارة، وهزة شهوانية تجتاح الحدائق والقاعات، وتبدو الينابيع حينئذ وكأنها تتدفق فياضة، ومياهها تجرى أكثر غزارة، كما لو أن تنفس الليل يقوى حركة المياه المتعبة، ويمدّها بالأمل، وتلمح الأميرات فى حجابهن الأبيض على حافة الشرفات، يستمعن لموسيقا «زهرة» عبقرية رونق الأصيل، ودليل جوقة النجوم الساطعة.

● **دمعة على مجد مضى :**

ولكن، بين المفاتن التى أضفتها الطبيعة على قصور غرناطة الملكية، لا يكاد المرء يستطيع أن يكبح مشاعر الحزن العميقة تجتاح داخله، فهى وحدها، الأخيرة، وربما كانت الأقل أهمية بين أعمال عربية أخرى رائعة، التى قاومت عوادى الزمن، وطاولت الفناء، وبقيت حتى يومنا.

أين قرطبة العربية؟ ملكة المدائن، ومكة الغرب، يحج إليها المؤمنون فى قوافل ممتدة لا تنتهى؟ وأين مدارسها ومكتباتها، وكانت الخلية الأولى لعالم المعرفة فى أوربا، والنبع الذى يقصده العطشى إلى العلم من كل المقاطعات؟

وأين الزهراء، مدينة الأساطير، وقد أضفى عليه االأمويون كل ترف الشرق وعظمته؟ لقد ابتلعتها الأرض، وفنى كل ذلك العالم الجميل. ومزق الزمن تميمتها



الساحة والقاعات التى تطل عليها فى قصر دار الحرة العربى

التى ارتبط وجودها بها، وبعثرت الرياح رماد الخلفاء كله، واليوم . . تبدو عظمة امبراطوريتهم غارقة فى ماض سحيق، أبعد من أقدم أية مدينة فى العالم البدائى، كأنها قد مضى عليها آلاف الأعوام حين كانوا فى أوج ازدهارهم. إن أعمدة طيبة فى مصر، مدينة المائة باب، لا تزال قائمة حتى يومنا، ومعابد نينف Ninve عاصمة الأشوريين لا تزال تطفو بتماثيلها الضخمة فوق أعماق التاريخ المظلمة، وفوق حلم قرون خلت. ولكن لو تساءلنا عن قصور عبد الرحمن الناصر لا أحد يعرف، ولا حتى يشير إلى المكان الذى كانت فيه.

ومع ذلك، فثمة ما هو أشد حزنًا من فكرة ضياع هذه الآثار الفنية العديدة، إنه الحظ التعس للشعب الذى توّج شبه الجزيرة بهذه الروائع. نعم، إن تأمل خراب الروح فى الإنسان الذى يقدمه لنا الشعب الإسبانى فى موقفه الحالى يُحزن أكثر مما تحزن الخرائب والأنقاض فى عاصمة مدمرة، وكانت يوما، فى عصر آخر، تزدهر بالناس والحياة!

لقد تعرض العرب الأندلسيون للاضطهاد، وأزيحوا عن وطنهم بحرًا، وسقطوا من جديد بين مخالب همجية أقسى من التى كان عليها أسلافهم الأقدمون، وحتى مقابرهم اختفت من الأرض، وتقطع إسبانيا طولا وعرضًا، تبحث عبثًا عن مقابر لهم على الأقل، مثل تلك المقابر الصامتة التى فى آسيا، ولا تحمل أية أسماء، ولكنها تومىء إلى مهد نوعنا، إنها بقايا شعوب جاهلة من العالم البدائى.

لقد أتى الغضب والزمن المدمر على آلاف الأعمال لعلماء العرب وشعرائهم فى إسبانيا، ولم يبق منها إلاّ القليل موزعًا بين مكتبات المشرق وأوربا، وما تضمه هذه المؤلفات من فكر ليس فى خدمة العرب، وهم أنفسهم أساتذتنا فى مختلف العلوم، فهم يتجولون بدوا وجهالا عبر صحراوات أفريقيا. ومن الحق أن ذكرى الأندلس الجميلة لا تزال تعيش بينهم تقليدًا متواصلا، وتتوارد فى خيالهم حلما غائمًا، ويورث الآباء أبناءهم مفاتيح بيوتهم فيها، أملا فى العودة إلى الحياة على ربوعها يومًا، عندما ترفرف راية الإسلام من جديد على أبراج الحمراء، ولكن هذه اللحظة لم تجىء أبدًا. وكل يوم تظهر النجوم وتغيب فى صفحة السماء، ولكن

هلال الإسلام يشحب فى الأفق، كى لا يرتفع نحو المجد، ولا يعود إلى الاشراق أبدًا. وربما فى مستقبل غير بعيد جدًا سوفف يذهب، ويمسح تيار القرون المندفع الإسلام وشعوبه وثقافته من على وجه الأرض[٩٠]. وسريعًا سوف تتلاشى آثاره فى أوربا، وتبرز الحمراء وسط فيضان كاسح وغاضب غَمَر الآثار الأخرى وأغرقها، كما تلمح فوق الأمواج البرج الوحيد لمدينة ما غاصت فى الماء، ومع ذلك فإن أسوارها تتهاوى حجرًا وراء آخر، تحت طرقات التدمير.

من الاعتقادات الشعبية السائدة فى المشرق، أن نجم سهيل اللامع له قوة سحرية، وأن وهج الأمبراطورية العربية كان من عمله، وفى عصر عبد الرحمن الناصر كان ذلك النجم لا يزال يرتفع فى أفق اسبانيا الشمالى، ويلمع وسط ضوء أحمر متوهج فوق القصور المتألقة،والمنارات السامقة[٩١]، ولكن هذا النجم فى دورته، أخذ يمضى متمهلا مائلا نحو الجنوب حتى يعادل الليل والنهار، وتختفى المبانى الرائعة واحد وراء آخر.

ولا يزال هذا النجم يرتفع فوق رغوة البحر فى شواطئ الأندلس الجنوبية، ويحمم ببريقه الخافت أنقاض شرفات آخر قصور العرب، وعندما يدع أوربا إلى

---

(٩٠) أبقيت هذه النبوءة الواهية على حالها لأنها تعكس موقف الأوربيين من الإسلام مهما تواروا وراء الموضوعية. وبعد الحديث الموضوعى عن الإسلام فى إسبانيا يختم شاك كتابه بنتيجة لا تؤدى اليها مقدماته. وعلى أى حال ربما كان واقع الإسلام فى القرن التاسع عشر الميلادى يبرر له ان يحلم، فى لحظة رومانسية نام معها العقل، وطغت الأمنيات المخبأة، وأعتقد أن شاك غير سعيد الآن فى قبره، ومع كل لحظة تأتى يصبح أقل سعادة بنبوءته، فالإسلام يبعث من جديد، ويمضى صعدا، وفى ثورة إيران المجيدة وما سيتلوها دليل على أن حيويته لا تنفد، وأن زحفه لن يتوقف. (المترجم)

(٩١) تأكيد المقرى نفح الطيب (١٠٣/١ طبعة أوربا و ١٦٤/١ طبعة إحسان عباس) بأن وادى سهيل غربى مالقة، فيه جبل يحمل اسم سهيل ايضا، ولا يرى نجم سهيل بالأندلس الا منه، ليس صحيحا، لأن سهيل يتحرك نحو الجنوب، وهو الآن يرتفع فوق قادش. انظر: Humboldt, Kosmos, II, 332.

الأبد، فإن القصر العربي سوف يصبح كله، بدوره، كومة من الأنقاض أيضًا[٩٢].

(٩٢) نأمل الا تتحقق هذه النبوءة الفلكية الشاعرية، وبفضل المهندس الماهر روفائيل كنتريراس، ولما يزل شابا، ويكافح منذ سنوات ولسنوات أطول، ضد تأثير سهيل الشرير، ويدفع الضريبة التى لابد أن نؤديها للطبيعة، لكى يجعلنا جديرين بأن نكون خلفاء لمن سبقونا فى حماستهم وفنهم. وإنه لجدير بأن نشيد هنا، بما تدين له به الحمراء. وما يهمنا الآن ألا يأتى يوم يكون فيه وزير مالية فى حاجة الى المال، ككل الذين فى اسبانيا، وهى بلد سخى وقليل الموارد، وليس مغرما بالفن العربى الإسبانى، ولا بجمال الطبيعة، فيبيع بيوت الحمراء وأبراجها، ويحولها الى حى عادى حديث ، ولا يحول، هو أو غيره، دون المياه التى تروى الغابات والأشجار التى تحيط بالقلعة، وتضفى عليه فتنة رائعة، وتصبح هذه الجنة الفيحاء مجرد تبة جرداء، مثل مرتفعات كثيرة فى بلادنا. (خوان باليرا)

○ ملحق رقم ١

مصحف عثمان فى الأندلس والمغرب

[انظر صفحة ٢٤، الهامش رقم ٣٧ من هذا الكتاب]

لم يكد الرسول صلوات الله عليه يلحق بالرفيق الأعلى حتى عادت جزيرة العرب تغزو نفسها، فارتدت بعض القبائل عن الإسلام، وامتنعت أخرى عن دفع الزكاة، وكان الخليفة أبو بكر شديد الصلابة وحاسما فى مواجهة هذه الفتن، وأصر على أن يعود الخارجون عن حظيرة الاسلام إليه بلا قيد ولا شرط، وإلا فالحرب معهم حتى النهاية، وكان خالد بن الوليد بطل تلك الحروب، واستطاعت قيادته الشجاعة والحكيمة أن تخضع بلاد العرب الوسطى وتكرهها على التسليم فى نحو ستة أشهر، أخضع أولا قبيلة طيئ، ثم قبيلتى أسد وغطفان، وكان طلحة قد أدعى النبوة فيهما، وأخضع بنى حنيفة فى اليمامة أخيرا، وتجمعوا تحت قيادة مسلمة نبيهم المزعوم، وقاوم أصلب مقاومة، وكان تحت أمرته فيما تذكر الروايات أربعين ألف رجل، واستطاع أن يحطم جيشين من جيوش المسلمين قبل أن يصل خالد على رأس جيش ثالث، حقق النصر، وهزم مسلمة، وكان الثمن الذى دفعه المسلمون عاليا، نحو ا من ألف شهيد، بينهم أربع مئة وخمسون صحابيا، جلهم من حفظة القرآن الكريم.

وبلغ الأمر عمر العظيم فهاله، واهتم له، ويروى البخارى بإسناده عن زيد بن ثابت، قال: «أرسل إلى أبو بكر، مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضى الله عنه: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر

يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك، ورأيت فى ذلك رأى عمر، قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن. قلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال : هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعنى، حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما. فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى، لم أجدها مع أحد غيره. ﴿لقد جاء كم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم﴾، حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر، رضى الله عنه».

ولم يقم زيد بن ثابت بهذا العمل وحده، عاونه فيه عمر، واختير زيد لأنه كان حافظا مثبتا، واعيا لما حفظ ، وحضر العرضة الأخيرة للقرآن، حين عرضه رسول الله على جبريل للمرة الثانية، فى السنة التى كانت فيها وفاته، واتبع فى تدوينه طريقة التحقيق العلمى، فى نهجه العصرى المألوف لدينا، ونفذ ذلك فى دقة، وجمع النص سورا من أجزاء متفرقة مكتوبة «على سعف النخيل، ولوحات من الحجر الأبيض، وصدور الرجال»، على حد تعبيره، ثم أودعت الصحف عند أبى بكر حياته، ثم عند عمر حياته، وانتهى بها المطاف عند حفصة أم المؤمنين، وبنت عمر ابن الخطاب.

* * *

وفى خلافة عثمان كثرت الفتوح، وانتشر القراء فى الأمصار، وقرأوا القرآن فى لهجاتهم على تعددها، وبدأت الفروق بين ما يقرأون وما ينبغى أن يكون تتسع شيئا فشيئا، وظهرت قراءات مختلفة للنسخ الشائعة، وكان السبب فيها نقص فى طبيعة الخط الكوفى، وأدّى ذلك الى تخطئة القارئين بعضهم بعضا، ويروى ابن الأثير فى تاريخه الكامل، فى أحداث عام ثلاثين للهجرة، أن حذيفة بن اليمان، ومعه سعيد بن العاص توجها إلى أذربيجان، فأقام سعيد حتى عاد حذيفة من بعض أسفاره، ثم رجعا إلى المدينة، وفى الطريق قال حذيفة لسعيد بن العاص :

«لقد رأيت فى سفرق هذه أمرا، لئن تُرك الناس ليختلفن فى القرآن، ثم لا يقومون عليه أبد، قال: وما ذاك؟ قال رأيت إناسا من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد، ورأيت أهل دمشق يقولون: ان قراءتهم خير من قراءة غيرهم، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك، وأنهم قرأوا على ابن مسعود، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك، وأنهم قرأوا على أبى موسى، ويسمون مصحفه لباب القلوب، فلما وصلوا الى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك، وحذرهم ما يخاف، فوافقه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثير من التابعين، وقال له أصحاب ابن مسعود: ما تنكر؟ ألسنا نقرؤه على قراءة ابن مسعود؟، فغضب حذيفة ومن وافقه. وقالوا: إنّما أنتم أعراب فاسكتوا، فإنكم على خطأ. وقال حذيفة: والله إنْ عشت لآتين أمير المؤمنين، ولأشيرن عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك، فأغلظ له ابن مسعود، فغضب سعيد وقام، وتفرق الناس، وغضب حذيفة وسار الى عثمان فأخبره بالذى رأى، وقال: أنا النذير العريان، فأدركوا الأمة، فجمع عثمان الصحابة، وأخبرهم الخبر فأعظموه، ورأوا جميعا ما رأى حذيفة، فأرسل عثمان الى حفصة بنت عمر: أن أرسلى الينا بالصحف ننسخها، وكانت هذه الصحف هى التى كتبت فى أيام أبى بكر.

وبناء على ذلك عين عثمان عام ٣١هـ = ٦٥١م لجنة برآسته، تتألف من: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ونسخوا تلك الصحف فى مصحف، مرتب السور، واقتصر فيه من بين جميع اللهجات على لهجة قريش، لنزول القرآن بلغتهم، تنفيذًا لإشارة الخليفة عثمان: «إذا اختلفتم فاكتبوا بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا». وحفظت النسخة الأصلية فى المدينة، وكتبت منها ثلاث نسخ أخرى أرسلت الى المعسكرات الحربية الثلاثة، فى: دمشق، والبصرة، والكوفة. وتضيف احدى الروايات ومصحفا رابعا أرسل الى مكة، وأمر عثمان بإحراق كل النسخ الأخرى، وارتضى عمله المسلمون جميعا، فى أيامه وبعدها، إلا ما قيل من أن ابن مسعود عارض فى إحراق مصحفه، وفى عمل عثمان، وأمر الناس فى الكوفة بالتمسك

بمصحفه، ثم تخلى عن رأيه فيما بعد، اقتناعا أو نزولا على رأى الجماعة، وبذلك ضبط القرآن، كتاب الله ، ودستور المسلمين ، أبد الدهر.

* * *

كان عمر العظيم قد حجز على أعلام قريش من المهاجرين، فلا يخرجون من المدينة للبلدان الأخرى إلا باذن ولأجل، ويخاف على الأمة من انتشارهم فى البلاد، وإن الرجل ليستأذنه فى الغزو، وهو ممن حُبس فى المدينة من المهاجرين، ولم يكن يفعل ذلك بغيرهم من أهل مكة، فيقول له : قد كان لك من غزوك مع رسول الله صلى الله عليه ما يبلغك، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك، وكان عامة المسلمين على أيامه لا يعرفون الاختلاف، لأن دواعيه مفقودة، وعمر القوى الشديد يقف بالمختلفين من الخاصة عند الحد الذى لا ينبغى لهم أن يتجاوزوه. ويقول الشعبى : لم يمت عمر حتى ملته قريش.

فلما كان عثمان خلَّى بينهم فاضطربوا فى البلاد، وانقطع إليهم الناس، واتخذوا أموالا فى الأنصار ، ووقع الاختلاف، وبدأت الفتنة تطل برأسها، وفشت القالة فى عمال عثمان، واضطرب الأمر بين يدى خليفة الله، واختلط الخير بالشر، وتشاور مع صحبه، فنصحوه بالشدة، وآثر اللين والمواتاة والمتابعة إلا فى حدود الله، وعرض عليه معاوية أن يسير معه الى الشام فأبى أن يبيع جوار رسول الله بشئ ، وإنْ كان فيه مصرعه، وعرض أن يرسل إليه جندًا يقيمون معه بالمدينة للمحافظة عليه فرفض ، حتى لا يضايق جيران رسول الله، وأهل دار الهجرة والنصرة، فى أرزاقهم بجند يساكنهم، «والله إن رحا الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان أن مات ولم يحركها، كفكفوا الناس، وهبوا لهم حقوقهم، واغتفروا لهم، وان تنوسيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها».

وتفجرت الفتنة، وقدم الثائرون من الأمصار الى المدينة، فى جماعات كثيرة، تريد باطلا وترفع راية الحق، تبغى الشرور وتتحدث عن الخير، تستهدف الدنيا وتتخفى وراء الدين، وحاصرت الخليفة الوقور المسن الطيب فى داره، تريده أن يخلع نفسه من الخلافة، ثم منعوه من الصلاة فى المسجد، واستمر الحصار واشتد

حتى منعوه الماء، فلا يصل إليه شيء منه إلا خفية، ويطل عليهم عثمان من حين لاخر يعظهم فلا تؤثر فيهم الموعظة، وخاف المحاصرون أن تفشل خطتهم، فعجلوا بالجريمة، أحرقوا أبواب الدار، وتسوّروها من دار أخرى مجاورة، ولما رأى عثمان ذلك منهم، والذين حوله قلة ، ويريدون الدفاع عنه، استسلم لقضاء الله، وأمر من معه أن ينصرفوا لأنهم لايغنون عنه شيئا، واقتحمت عليه جماعة من الثائرين بيته، وهو يقرأ فى سورة البقرة من مصحفه، فاعتدوا عليه، وضربوا عنقه، وانتهبوا ما فى بيته، واستولوا على بيت مال المسلمين، ولحقت روح الخليفة الطيب بربه لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة عام ٣٥ هـ = ١٧يونية ٦٥٦م، ولم يصرح الثائرون بدفنه، وورى جثمانه خفية وفى صعوبة، خرجوا به بعد المغرب، ولم يشيع جنازته إلا نفر قليل، وصلى عليه جبير بن مطعم.

قتل عثمان اذن وهو يتلو القرآن مطمئنا فى النسخة الوحيدة من المصحف التى كانت فى المدينة، عندما أمر بتوحيد المصحف وحرق ما عداه، وأرسل بالنسخ الأخرى إلى الأمصار الأربعة التى أشرنا اليها من قبل، وأضفى حادث الاغتيال البشع، والملابسات التى أحاطت به، أهمية خاصة على نسخة عثمان هذه، وبدأت الروايات تتناثر حولها، تكثر وتعظم وتبالغ، وفيها قليل من الحق، وكثير من الخيال الخصيب، وبدأت تتنازعها المساجد الكبرى على امتداد العالم الإسلامى.

وأول من تحدث عن هذه المصاحف المشرقية من الأندلسيين أبو القاسم التجيبى السبتى، فهو يذكر أنه عاين بنفسه عام ٦٥٧ هـ = ١٢٥٨م، المصحف الشامى بمقصورة جامع بنى أمية بدمشق المحروسة، وأنه رأى أيضا المصحف المكى بقبة اليهودية وهى قبة التراب، وبعده بحوالى مئة عام تقريبا جاء الرحالة المغربى ابن بطوطة إلى المشرق، وزار دمشق، وأكد ما رآه أبو القاسم فى مسجد بنى أمية، ويقدم عنه معلومات أكثر تفصيلا، يتحدث عن المقصورة العظمى من المسجد فيذكر، «فى الركن الشرقى منها، إزاء المحراب، خزانة كبيرة، فيها المصحف الكبير الذى وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه الى الشام، وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة، فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم، وهناك يحلّف الناس غرماءهم، ومن ادعوا عليه شيئا».

ويحدثنا ابن بطوطة أيضا أنه زار البصرة ورأى مسجدها، ووصفه، وذكر أن «فيه المصحف الكريم الذى كان عثمان رضى الله عنه يقرأ فيه لما قتل، وأثر تغيير الدم فى الورقة التى فيها قوله تعالى: ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾»، وكان ابن سعد فى تاريخه الطبقات الكبرى قد روى أن الدم حين ساح على صفحة المصحف وقف عند هذه الآية ولم يتجاوزها. وصمت ابن بطوطة تماما عن مصحفى الكوفة ومكة، غير ان ابن مرزوق التلمسانى الأصل، الأندلسى الاقامة، وكان معاصرًا لابن بطوطة، زار مكة ودمشق ورأى مصحفيهما ويضيف أيضا أنه رأى كذلك مصحف المدينة، وقرأ فيها كلها، وكان هذا عام ٧٣٥ هـ =١٣٣٤م.

واذن فلدينا أخبار عن مصاحف مكة والمدينة والبصرة ودمشق حتى القرن الثامن الهجرى، الرابع عشر الميلادى.

أما مصحف الكوفة، فلم تقع عينى على من تحدث عنه، وثمة أمر لافت للنظر، وهو أن المقرى التلمسانى، صاحب كتاب نفح الطيب، وتوفى فى القاهرة عام ١٠٣٨ هـ = ١٦٣٢م، وحج الى مكة، وزار المدينة، وأقام بدمشق زمنا، لم يحدثنا عن هذه المصاحف، ولو وجدت على أيامه لكان بها حفيا، ولما تردد فى الإشارة إليها، أترى العثمانيون نقلوها فيما نقلوا من تراث العالم العربى بعد استيلائهم على مصر؟ ، ربما.

***

كان الأندلس بحكم بعده عن مركز الإسلام فى المشرق، وإحاطة الأعداء به من كل جانب، وكثرة المحن التى تعاورته، شديد الحرص على أن يأخذ بحظه من هذا الشرف، فكان له مصحف من بين تلك المصاحف التى أمر الخليفة عثمان بنسخها، وكان فى الأندلس فى نفس الوقت الذى كانت فيه المصاحف الأربعة الأخرى، أو الخمسة، مستقرة فى أمكنتها، وكما كان عليه الحال فى دمشق صنعوا به هنا، فاختاروا له مكانا فى المنبر، عليه حلية ذهب مكللة بالدر والياقوت، وأغشية من الديباج، وصنعوا له كرسيا يوضع عليه، من خشب العود الرطب، ومساميره من ذهب، وبالغوا فأضافوا انه مصحف عثمان نفسه، ومضوا مع المبالغة الى نهايتها، فزعموا: «إنه مما خطه بيمينه».

ووجه المبالغة هنا واضح لا يحتاج دفعه إلى فضل بيان، لأن عثمان رضى الله عنه أمر بجمع المصحف، وكون لجنة برآسته للقيام بهذه المهمة، ولكنه لم يسهم فيه كاتبا، وينفى ابن بشكوال المؤرخ الأندلسى، على نحو غير مباشر أنه مصحف عثمان، فيصرح: «وما قيل ان فيه دم عثمان هو بعيد، وان يكن أحدها فلعله الشامى». والحق أن المصحف الشامى الأول أيضا ليس عليه دم عثمان بداهة، لأنه أرسل إليها فى حياته، إلا أذا أراد أن معاوية استجلب فيها بعد مصحف عثمان نفسه، ليتخذ منه سلاحا سياسيا يثير به أهل الشام، كما استخدم بعض مخلفات أخرى، وهو ظن يضعفه أن أحدا من المؤرخين لم يشر الى هذا، وليس سهلا على أهل المدينة وفيهم كبار الصحابة أن يتخلوا عنه لأحد، وأخيرا فإن الرحالة الذين تحدثوا عن مصحف دمشق تحدثوا أيضا عن مصحف المدينة، على نحو ما أشرنا فيما سبق.

متى وصل هذا المصحف إلى الأندلس؟ وكيف؟ وعلى يد من؟، وفى أى تاريخ استقر فى المسجد الجامع؟ لا أحد يدرى. وأول خبر نلتقى به عن هذا المصحف نجده عند مؤرخى القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى، ويشير إليه المقرى فى أكثر من مكان من موسوعته **نفح الطيب**، بمناسبة الحديث عن مسجد قرطبة الجامع، ويشير إلى مصادره أحيانا، ويهملها أحيانا أخرى.

ويقول ابن مرزوق، وهو آخر من كتبوا عن المصحف الأندلسى، بعد أن نقل عنها، أنه اختبر المصحف الذى بالمدينة، والذى نقل من الأندلس فألفى خطهما سواء.

كان المصحف الأندلسى، المنسوب إلى عثمان، موجودا فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى، لا شك فى هذا، وأرجح أن بدء وصوله كان فى عهد عبد الرحمن الأوسط، وتولى الإمارة بين عامى ٨٢٢ و ٨٥٢م، فهو أول أمير أندلسى انفتح على المشرق، واحتذى خطاه، وأرسل فى طلب الكتب والعلماء والفنانين منه، فلا يبعد أن يكون الوراقون، وما أمهرهم، وأقدرهم على التقليد، قد صنعوا له هذا المصحف، أحكموا رسمه، وأجادوا التقليد فيه، ونسبوه إلى عثمان، وقبضوا ثمنه عاليا، ولكى تصبح القصة محبوكة، والمصحف

مميزا، والثمن الذى يدفع فيه قليلا مهما يكن، أجروا على صفحة منه، فى الآية من السورة التى ذكرت كتب التاريخ أن الخليفة الشهيد كان يتلوها، دما أحمر، وزعموا أنه دم عثمان.

ومثل هذا التزييف يحدث كثيرا فى القديم، وعلى أيامنا هذه، وفى أشكال متنوعة، تتناول المخطوطات، والعملة، والآثار والتحف الفنية وغيرها، ولا يتأتى لأحد أن يتبين زيفها، الا قلة من الخبراء المتخصصين.

وبقى المصحف الأندلسى فى المسجد الجامع بقرطبة، ولمكانته فى القلوب لم تستطع الفتن العاتية التى اجتاحت عاصمة الخلافة فى الغرب على يد البربر، وأتت على المدينة تدميرا وتخريبا وحرقا، أن تمتد إلى المسجد العظيم أو إلى ما بداخله، رغم أنها دمرت مدينتى الزهراء والزاهرة، وبقى فيها طوال عصر الطوائف، لأن قرطبة كانت عاصمة إمارة بدءا، ثم جزءا من مملكة إشبيلية فى أعوامها الأخيرة، ولم يمسه المرابطون، لأنهم كانوا أقرب إلى السلفية والبساطة، فلم يعيروا مثل هذا الأمر اهتماما، أو على الأقل لم يصلنا فى مدونات التاريخ ما يومىء إلى اهتمامهم به، إلى جانب عزوفهم عن قرطبة بما فيها، واتخاذهم إشبيلية عاصمة لهم.

حتى إذا جاء الموحدون بدأ الأمر يأخذ وجهة أخرى.

* * *

كان القرطبيون يجلون هذا المصحف كثيرا فيما يبدو، ولذلك حرص ابن بشكوال المؤرخ الأندلسى على أن يحدد لنا اليوم الذى نقل فيه من المسجد الجامع فى قرطبة إلى مراكش فى المغرب، وأن ذلك تم ليلة السبت حادى عشر شوال سنة اثنتين وخمس مئة، (= ١١٥٧ م) فى أيام أمير المؤمنين عبد الواحد بن على، وبأمر منه. وفى تلك الأيام كانت قرطبة قد تدهورت تماما، وتحولت إلى مدينة إقليمية لا يكاد يحس بها أحد، حزينة القلب، كسيرة النفس، تعيش على ذكريات أمجاد الخلافة فحسب؛ فلم تقاوم، واستسلمت مغلوبة على ما لو حدث قبل ذلك بقرن لكانت دونه دماء وأهوال.

وقد خص الرحالة المغربى ابن رشيد المصحف برسالة أدبية ضافية، أتى عليها

كاملة المقرى فى نفح الطيب، وأقامها على معلومات استقاها من الوزير أبى زكريا يحيى بن أحمد، عن كتاب لجده أبى بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل، الفيلسوف الأندلسى الشهير، ورغم أن الرسالة كتبت فى سجع متكلف تقدم لنا معلومات هامة، فنحن نعرف منها :

أن الذى حمل المصحف من قرطبة هما السيدان الأميران أبو سعيد وأبو يعقوب، وأن أمير الموحدين عبد المؤمن بن على فكر فى الأمير طويلا، قبل ذلك بزمن، ولكنه خشى ثورة أهل قرطبة عليه، فتوقف عن الأمر. ونفهم منها أن هناك من أراد أن يدخل السرور عليه، فتحدث فى الأمر إلى أهل قرطبة، وربما احتال عليهم، فخضعوا للأمر، وأذعنوا للرغبة، وقدم المصحف لأمير المؤمنين هدية، فكان سروره به عظيما، وعد من كراماته بين مريديه وأتباعه.

وأنهم «أخذوا فى اختيار حليته، وتأنقوا فى استعمال أحفظته، وبالغوا فى استجادة أصونته، فحشروا له الصناع المتقنين، والمهرة المتفنين، ممن كان بحضرتهم العلية، أو سائر بلادهم القريبة والقصية، فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة، ومهرة كل طائفة، من المهندسين، والصواغين، والنظامين، والحلائين، والنقاشين، والمرصعين، والنجارين، والزواقين، والرسامين، والمجلدين، وعرفاء البنائين، ولم يبق من يوصف ببراعة، أو ينسب إلى الحذق فى صناعة، إلا أحضر للعمل فيه، والاشتغال بمعنى من معانيه، فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة، وأشكال مبتدعة، وضمنوها من غرائب الحركات، وخفى إمداد الأسباب للمسببات، ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم، واستفرغوا فيه جهد قوتهم».

و «أنه كسى كله بصوان من الذهب والفضة، ذى صنائع غريبة من ظاهره وباطنه، لا يشبه بعضها بعضا، قد أجرى فيه من ألوان الزجاج الرومى ما لم يعهد له فى العصر الأول مثال، ولا عمر قبله بشبهه خاطر ولا بال، وله مفاصل تجتمع إليها أجزاؤه وتلتئم، وتتناسق عندها عجائبه وتنتظم»، «ونظم على صفحته وجوانبه من فاخر الياقوت، ونفيس الدر، وعظيم الزمرد، ما لم تزل الملوك السالفة، والقرون الخالية، تتنافس فى أفراده، وتتوارثه على مرور الزمن وترداده، وتظن العز الأقعس، والملك الأنفس، فى إدخاره وإعداده». و «كسى المصحف

العزيز بصوان لطيف من السندس الأخضر، ذى حلية خفيفة تلازمه فى المغيب والمحضر».

«وصنع له محمل غريب الصنعة، بديع الشكل والصيغة، ذو مفاصل ينبو عن دقتها الإدراك، ويشتد بها الارتباط بين المفصلين ويصح الاشتراك، مغشى كله بضروب من الترصيع، وفنون من النقش البديع، فى قطع من الآبنوس والخشب الرفيع، لم تعمل قط فى زمن الأزمان»، «وصنع لذلك المحمل كرسى يحمله عند الانتقال، ويشاركه فى أكثر الأحوال، مرصع مثل ترصيعه الغريب، ومشاكل له فى جودة التقسيم وحسن الترتيب، وصنع لذلك كله تابوت يحتوى عليه احتواء المشكاة على أنوارها، والصدور على محفوظ أفكارها، مكعب الشكل سام فى الطول، حسن الجملة والتفصيل، بالغ ما شاء من التتميم فى أوصاله والتكميل، جار مجرى المحمل فى التزيين والتجميل. وله فى أحد غواربه باب ركبت عليه دفتان قد أحكم إرتاجهما، ويسر بعد الإبهام انفراجهما».

«وذلك أن بأسفل هاتين الدفتين فيصلا فيه موضع قد أعد له مفتاح لطيف يدخل فيه، فإذا أدخل ذلك المفتاح فيه، وأديرت به اليد انفتح الباب بانعطاف الدفتين إلى داخل الدفتين من تلقائهما، وخرج الكرسى ذاته بما عليه إلى أقصى غايته، وفى خلال خروج الكرسى يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة مقترنة بحركته، يأتى بها من مؤخر الكرسى زحفا إلى مقدمه. فإذا كمل الكرسى بالخروج، وكمل المحمل بالتقدم عليه، انغلق الباب برجوع الدفتين إلى موضعهما من تلقائهما دون أن يمسهما أحد، وترتبت هذه الحركات الأربع على حركة المفتاح فقط، دون تكلف شيء آخر. فإذا أدير المفتاح إلى خلف الجهة التى أدير إليها أولا انفتح الباب، وأخذ الكرسى فى الدخول، والمحمل فى التأخر عن مقدم إلى مؤخره، فإذا عاد كل إلى مكانه انسد الباب بالدفتين أيضا من تلقائه، كل ذلك يترتب على حركة المفتاح، كالذى كان فى حال خروجه، وصحت هذه الحركات اللطيفة على أسباب ومسببات غائبة عن الحس، فى باطن الكرسى، وهى مما يدق وصفها، ويصعب ذكرها».

وكان الموحدون «يحملونه بين أيديهم أنى توجهوا، على ناقة حمراء عليها من

الحلى النفيس، وثياب من الديباج الأخضر يجعلونه عليها، وعن يمينه ويساره عصيان[١]. عليهما لواءان أخضران، وموضع الأسنة منهما شبه تفاحتين، وخلف الناقة بغل محلى أيضا، عليه مصحف آخر، يقال أنه بخط ابن تومرت، دون مصحف عثمان فى الجرم، محلى بفضة مموهة بالذهب، وهذا كله بين يدى الخليفة منهم »[٢].

ولم يزل الموحدون يحملونه فى أسفارهم متبركين به، إلى أن حمله المعتضد، السعيد على بن المأمون أبى العلاء إدريس بن المنصور، حين توجه إلى تلمسان آخر سنة ٦٤٥ هـ - ١٢٤٧ م، فقتل قريبا من تلمسان، وتقدم ابنه ابراهيم فقتل أيضا، ووقع النهب فى الخزائن، واستولت القبائل العربية وغيرها على معظم العسكر، ونهب المصحف، ولم يعلم مستقره، ولكنه سوف يظهر فيما بعد فى خزانة المرينيين.

فلما قامت الدولة المرينية على أنقاض دولة الموحدين، واقتحم أميرهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق عاصمتهم مدينة مراكش، يوم عاشوراء سنة ٦٦٨ هـ ٩ سبتمبر ١٢٦٩ م، انتقلت ملكية المصحف إليهم فى ظروف غير واضحة تماما، ويذكر المقرى أن المصحف ظل فى خزانة ملوك تلمسان، إلى إن افتتحها أبو الحسن المرينى، على بن عثمان بن أبى يعقوب، أواخر شهر رمضان سنة ٧٣٧ هـ - ١٣٣٦ م فظفر به، والحق أن المرينيين بعامة، وأبا الحسن من بينهم بخاصة، كانوا يولون المظاهر الدينية التى تكسبهم عند رعاياهم شعبية وقدرا أهمية خاصة، حتى أن السلطان أبا الحسن (١٣٣١ - ١٣٤٨ م)، كان شديد التعلق بالحرمين الشريفين، وأهدى الحرم الملكى فى موسم الحج لسنة ٧٣٨ هـ - ١٣٣٨ م، مصحفا سنيا، خطه بيمنه، متقن الورق، مهذب الصنعة، صنع له وعاء مزخرفا من آبنوس، مطعما بالعاج والصندل، مغشى بصفائح من ذهب، مرصعة بالجواهر وأنواع الدر والياقوت، واتخذوا له أصونة الجلد المحكمة، مرقومة بخطوط ذهبية يعلوها غلاف من الحرير والديباج الرفيع، وبعث مع وفد الحاج عددا وافرا من

---

(١) كذا فى الأصل وصوابه «عصوان».

(٢) عبد الواحد المراكشى، المعجب فى أخبار المغرب، تحقيق سعيد العريان، الطبعة الأولى، ص٢٥٣.

المال لشراء ضياع وحقول بالمشرق، وتحبيسها على الفقراء هناك، وكان لا يسافر إلا ومعه المصحف العثمانى.

ولعب المرينيون دورا رائعا فى دعم مملكة غرناطة الضعيفة بالأندلس، وقفوا إلى جوارها فى أحلك ساعاتها، واتخذوا من شواطئها، مالقة والمرية والجزيرة الخضراء، قواعد لأسطولهم، وكتب لهم النصر مجتمعين فى مواقع كثيرة على ملوك قشتالة وأنصارهم، ولكن الدائرة كانت عليهم فى موقعة طريف، التى نشبت عام ٧٤١ هـ - ١٣٤٠ م، رغم أنهم استخدموا اختراعا جديدا يسمى «الأنفاط»، وهو نوع من المدافع تقذف بالنيران، وارتكب القشتاليون وحلفاؤهم كل المنكرات فى المعسكر الاسلامى، وغنموا ما فيه، ومن بين ذلك علمان لبنى مرين، لا تزال كنيسة طليطلة الجامعة تحتفظ بهما حتى يومنا هذا، وخسر المسلمون مصحف عثمان، استولى عليه البرتغاليون، وكانوا يقاتلون إلى جانب الجيش القشتالى، وتشاءم أبو الحسن كثيرا من هذا، وأعمل الحيلة فى استخلاصه، إلى أن رده إليه أحد التجار، مقابل مبلغ كبير من المال دون شك، ووصل إلى فاس عام ٧٤٥ هـ - ١٣٤٤ م، أى بعد أربع سنوات من المعركة فقط، واستمر بقاؤه فى خزانة المرينيين.

○ ملحق رقم ٢

مسجد قرطبة
فى الشعر الألمانى

[انظر ص ٣٤ الهامش رقم ٥٤ من هذا الكتاب]

ولو أن الوصف الذى قدمه المؤلف لمسجد قرطبة الجامع كامل ودقيق، إلا أننى لم أستطع دفع رغبة قوية تلح على، فى أن أنقل ترجمة لوصف آخر جاء شعرا ونظمه ألمانى آخر، وهو دكتور فشتنراته، ولم يكن أقل غراما بآثار أسبانيا، وجاءت قصيدته على النحو التالى:

عبد الرحمن الداخل والملاك

فى منية الرصافة،
عتبة الجنة على الأرض،
كان ينام عبد الرحمن العظيم،
ابن مروان بن معاوية،
صقر قريش الأبيض،
هاربا من بنى العباس،
يبحث عن ملاذ ومأوى،
وبعيدا عن دمشق وجد مملكة وعرشا.

●

آونة يمد سلطانه،
عبر إسبانيا كلها،
الموتى يرحلون شهداء،
والأحياء يعيشون مرابطين،
وآونة يتأمل نخلاته،
وحيدا مفكرا،
وتثير النخلة فى أعماقه،
ذكريات غالية وحلوة.

●

ومن خلال بريق صاف غريب،
ظهر له كائن عجيب،
يرتدى الضوء والمجد،
إنه الملاك إبليس،
رفض أن يسجد لآدم أول الأنبياء،
شامخًا لم يحن رأسه أبدا،
ولهذا طرد من السماء،
عقابا له على تكبره.

●

ظهر أمام الأمير،
وعلى النحو التالى تحدث إليه :
لا تتذكر النخلة، أجمل ما فى مسقط رأسك،
عندما ترى كم هى عالية،
اجعل غاياتك أشد ارتفاعا.
تيجان كل ملوك القوط أصبحت لك،
منذ «أتأولفو» حتى «لذريق»،

وكلها من الماس والياقوت.

●

عناية الله يا سيدى تتجه إليك،
والأعين مثبتة فيك،
سيفك البتار
قلدك أياه النبى،
الأرض الأندلسية لك،
يحتضنها البحر واليواقيت،
والمرجان الذى تحبه الشمس،
وهو أسير جمالها.

●

وصنعت فى هذه الأرض الجميلة
ملكا قويا وعملاقا،
وأقمت مسجدا عظيما،
يرضى الله وجدير بك،
وغطى على المسجد الأقصى فى القدس،
وأنساه الناس،
وفى داخل محرابه الجميل،
يطمئن آمنا مصحف عثمان.

●

منه تنكسف الكعبة،
وفيه آلاف الحجاج
يعبدون الله طائعين،
فى قرطبة وليس فى مكة.
يهديهم نجمك الساطع،

يجيئون من مصر وفارس،
تظلهم أشجار الليمون الوارفة،
وينعمون بمياه النهر والنوافير.

●

وفى هدى الرسول الأعظم،
رمز النصر والانتصار،
شيدت مسجدك الجامع،
فوق كنيسة المسيح،
وقبلها كانت معبدا رومانيا،
ثم تراجعت الهيبة الإيطالية،
وتقهقرت أعمدة اليشب،
والتيجان الكورنثية[١].

●

ويدخل المؤمنون من أحد عشر بابا،
تنفتح على أحد عشر طريقا،
تقودهم إلى إحدى عشرة بلاطة،
ليؤدوا صلواتهم تقاة خاشعين.
وزادت هذه البلاطات فأصبحت،
ثلاثة وثلاثين. وفى متاهة من
ألف عمود أو يزيد،
يضل الفكر، ويذهل العقل.

●

وتبرق الألف سارية،

---

(١) انظر الهامش رقم٢ ص من هذا الكتاب.

مثل الغوارب الصلبة،
لألف من الرماح القوية،
يحملها «الزناتيون» من جندك.
حدوة البراق،
الذى حمل الرسول والإمبراطورية،
تربط بين الأعمدة،
تمسك البناء وتشد من أزره.

●

العقود الهيفاء تشبه
حركة الموج المجعدة،
حين تدفعها الرياح،
أو تهز راياتك التى لا تقهر.
وعقد يتصل بآخر،
تشع منها الألوان الزاهية والزخارف الثرية،
كقوس قزح حين تبدعه الشمس،
وتصنع منه أقواسا عديدة.

●

لتحذير المؤمنين من هجوم مباغت،
فان الأسوار، والشرفات التى عليها،
تحيط بالمسجد الجامع،
وتجعل منه حصنا.
وعلى أن أدعو الذين حولك والجنيات،
كى يساعدنك، ويقطفن الزهور من جنانك الإلهية،
التى أعارت القيشانى والزخارف العربية المتشابكة،
والمحراب والقبة الرشيقة،

بهاءها ورونقها وبريقها.

●

نوافير الساحة الصافية،
وأشجار البرتقال الزاهرة،
تنادى الطيور المغردة،
كى تترنم بأغاريدها العذبة،
وتملأ بفيض من الروعة والبهاء
داخل المسجد الناضج بالأسرار،
وتملأ جوه الطرى
بأريجها الشذى، وتضفى عليه تناسقا.

●

أنت، اذن، يا عبد الرحمن الشريف
تحقق الروعة المعجزة،
وتسترد الحماسة الفتية.
وما توجك الجامع من مجد،
يبقى خالدًا عبر الزمن،
وثوابك عليه الحوريات العين،
خالدات: حياة وإشراقًا.

●

هكذا قال. وبلا تردد
أنجز عبد الرحمن ما طلب،
وامتلأت قرطبة كلها،
بالنشاط والحركة والضجيج والبهجة،
والمهندسين والعمال،

تجمعوا فى أعداد حافلة،
وارتفع المسجد عاليًا،
وشق عنان السماء مجيدًا خالدًا.

●

وينهض شيخ وقور،
أبيض اللحية، كث الشعر،
ذو عمامة بيضاء ناصعة،
فى لحظة معينة من كل يوم،
وكأشد العمال نشاطًا،
يحزم أمره ويشمر عن ساعده،
ويعمل فى البناء.

●

وعندما أتى الموت المحتوم،
وأنهى خيط الحياة فى أعماقه،
كان المسجد الجامع الرائع،
يوشك أن يبلغ من البنيان غايته،
ومعذرة لإبليس،
وجاء يبحث عن الأمير،
ومضيا معاً،
كلاهما عبر عتبة الجنة على الأرض.

(خوان باليرا)

○ ملحق رقم ٣

حفائر مدينة الزهراء

● كتب هذا التقرير عالم قرطبة الكبير السنيور روفائيل كستيخون، وقدمه لمؤتمر الدراسات العربية والإسلامية الذى عقد فى مدينة رفللو بإيطاليا، بإشراف المعهد الجامعى للدراسات الشرقية فى نابولى، فى شهر سبتمبر من عام ١٩٦٦ ونشر فيما بعد فى المجلد الذى تضمن الأبحاث التى ألقيت فى المؤتمر بعنوان:

Atti del congresso di Studi arabi e islamici, Naboli, 1967.

[انظر ص٤٨ الهامش رقم٨٢ من هذا الكتاب]

مدينة الزهراء أنشأها خليفة قرطبة عبد الرحمن الناصر عام ٣٢٥ هـ - ٩٣٦ م، والتهمتها الحرائق عام ٤٠١ هـ - ١٠١٠ م، وكانت موضع الثناء والإطراء من المؤرخين العرب[١]، وتستأهل أن تكون موضع البحث والدراسة، وفعلا بدأ الحفر للكشف عنها فى القرن الماضى، أو على التحديد عام ١٨٥٤[٢]، ولكن هذه الحفريات ما لبثت أن توقفت.

وفى عام ١٩١٠ بدأت الدولة الأسبانية الحفريات من جديد على نحو منتظم حتى يومنا، مع فترات توقف منطقية، ولكن العمل فى هذه الأعوام الأخيرة بلغ قدرًا عاليًا من التكثيف والتحمس، وثمة دراسات خاصة اضطلعت بتسجيل هذه الأعمال إلى جانب المذكرات الرسمية التى تضطلع بنشرها الهيئات الرسمية المختصة[٣].

---

(١) روساريو كستيخون، مدينة الزهراء فى كتب المؤلفين العرب، مجلة الملك، المجلد الثانى، ١٩٦١.

(٢) روفائيل كستيخون، المئة عام الأولى من حفريات مدينة الزهراء، مجلة أكاديمية قرطبة الملكية، رقم ٧١، ١٩٥٤.

(٣) المجلس الأعلى للحفريات والآثار، الحفريات فى مدينة الزهراء، تأليف ريكادو بلاثكيث، ١٩٢٣. الحفريات فى مدينة الزهراء، من عمل المجلس المدبر، وقام بكتابته: خمينيث، ود. كستيخون، وف. هرنانديث، و ا. رويث، وح. تبسكويس ١٩٢٤. وحفريات مدينة الزهراء لعام ١٩٢٦، وقام بها د. خمينيث، و د. كستيخون و ف. هرنانديث وحفريات الخطة القومية فى مدينة الزهراء حملة عام ١٩٤٣، وحررها رفائيل كستيخون عام ١٩٤٥.

وكان دون ريكادو بلاثكيث بوسكو أول من اضطلع بهذه الحفريات عام ١٩١٠، وكان يشغل فى الوقت نفسه منصب مدير مدرسة الهندسة المعمارية فى مدريد، ومشرفًا على المسجد الجامع فى قرطبة، وظل يوجه هذه الأعمال حتى وفاته عام ١٩٢٣، وشملت مناطق متوازية من الشمال إلى الجنوب، لتحديد امتداد هذا العمل العظيم، وكشف ملامحه الرئيسية. وفى عام ١٩١٢ نشر كتابًا جميلًا تضمن النتائج الأولى المدهشة لهذه الحفريات، وقبيل وفاته بقليل كتب دراسة نشرت بعد وفاته بعام، أى فى ١٩٢٤[٤].

وكانت النتائج الأكثر يقينًا لهذه الحفريات الأولى، فيما نرى، أنها ألقت الضوء وأزاحت الأنقاض بعامة عن الأجزاء الهامة من المدينة، مثل قصر الخلافة فى الجانب الأعلى من المبانى، والمجلس الغربى، فضلا عن أبنية أخرى أقل أهمية، وتحدد نهائيًا الأسلوب العام الذى كان متبعا فى زخرفة مدينة الزهراء، بفضل الكميات الهائلة من الألواح المزخرفة، من بقايا المبانى التى أشرنا إليها. وفيما يتصل بالقيشانى كشفت الحفائر عن مجموعة كبيرة منه للغاية، وتسمح لنا بأن نشير إلى ثلاثة أنواع منه : المذهب، وذو البريق المعدنى، ونلتقى به أبيض مزخرفا للمرة الأولى فى هذا العصر، وربما كان إرثا لتقليد بيزنطى تأصل بين السكان الأصليين، وهو غنى بالزخارف إلى حد كبير، والقيشانى العادى، وهو من طراز مختلف.

ثم توالت الحفائر منذ عام ١٩٢٤ بإشراف لجنة تضم عناصر محلية، تتكون من هيئة الآثار، وأضيف إليها مدير متحف الآثار المحلى، ومهندس البلدية، واتخذوا لهم هدفًا علميًا محددًا، يتمثل فى تحديد اتساع المدينة بدقة، وهو ما تحقق فعلا، بعد أعمال متواصلة ومركزة من جانب اللجنة المشار إليها. وهكذا أزاحت اللجنة الستار عن المخطط العام للمدينة[٥].

وسمح هذا إلى جانب عوامل أخرى كثيرة، بينها ما هو إدارى الطابع، كالاستيلاء على الأرض نهائيًا وبدئ به منذ عام ١٩١٤، بتحديد أمكنة الأبنية الرئيسية التى تحتويها المدينة، وتبدو بقاياها فى أرض لا تكاد تتحرك، لأن العقار

---

(٤) ريكادو بلاثكيث، مدينتا الزهراء والعامرية، مدريد، ١٩١٢، جمعية نشر الدراسات والبحوث العلمية.

(٥) رفائيل كستيخون، مخطط مدينة الزهراء، فى مجلة أكاديمية التاريخ فى قرطبة ١٩٢٥، رقم ١١، ص ١١٧.

حيث أقيمت الزهراء مرعى فى مرج دائم، وبالتالى فهو قليل، أو معدوم، الحركة الزراعية.

وعلى العكس، كان لقربه من العاصمة القرطبية، وهو على مسافة خمس كيلو مترات تقريبًا منها، أثر آخر، فقد استغل القرطبيون هذا الحقل من الأطلال، فى كل العصور، بحثًا عن مواد البناء الغنية، وبخاصة الأعمدة وتيجانها، أو بحثًا عن أشياء أكثر أهمية يؤملون فى العثور عليها، كاستخراج الصالح من أحجار الجير الجيدة، وبها بنيت مدينة الزهراء.

ومنذ أن اكتشف هذا المخطط أصبح توزيع مبانى مدينة الزهراء معروفا فى خطوطه العامة، والأسوار التى كانت تحيط بالمدينة فى صورة تقريبية، وموقع القاعات، أو القصور الرئيسية، ومسجد المدينة بخاصة، وهو المبنى الوحيد فى المدينة الذى أخذ شكلا دينيًا، ويجب أن نوضح أن التصوير الجغرافى الجوى لم يقدم فائدة كبيرة فى هذا المجال، لازدهار الخضرة فطريا هناك، ولو أن المرء يستطيع من أعلى قمم الجبال القريبة منها أن يشير إلى هذه الأمكنة، محددًا موقعها من الأرض.

ويمكن تقسيم حفريات هذه اللجنة إلى فترتين رئيسيتين : الأولى منذ اختيارها حتى بدء الحرب الأهلية الأسبانية، أى منذ عام ١٩٢٤ إلى ١٩٣٦، والتى شملت العمل قرابة ثمانية أعوام، والفترة الثانية منذ عام ١٩٤٤ حتى الآن.

وقد أوجز رفائيل كستيخون فى تقرير رسمى نشره عام ١٩٤٥[٦] الأعمال التى تمت فى الفترة الأولى، وفى نيته أنه يملأ هذه الفجوة، وأن يسجل فى تقرير آخر مفصل الحفريات التى تمت حتى عام ١٩٦٤ م.

فى المرحلة الأولى، واستهدفت خطة لها تنظيف المنطقة بعامة، بدءا من أية نقطة، وكانت خلف «المجلس الغربى» وأتاحت الفرصة لتحديد السور العام المحيط بالمدينة، ويأتى بعده نحو الغرب بمبانيه الملحقة، مما سمح باكتشاف طريقة

---

(٦) أنظر الهامش رقم ٣، وأيضًا مجلة «الملك»، الآثار العربية فى قرطبة : مدينة الزهراء، ١٩٥٩، المجلد ١، ص ١٤٥ وما بعدها.

المنحدرات، أو الاتصال بين المستويات المختلفة، وبيتين كبيرين توأمين، نظن أنهما سكن الحاجب أو رئيس الوزراء فى لغتنا المعاصرة، وبيت آخر أعلى مستوى، ولكنه فى الخط نفسه، وأظنه سكن صاحب الشرطة، إلى أن نصل إلى قصر الخلافة نفسه، والذى اكتشف أخيرًا، وتحددت معالمه.

وتميز العقد الذى بدأ بعام ١٩٣٠ بعمليات الترميم، على مهل وفى خوف بدءا، لا ختلاف الآراء حول القضية، ولكن الواقع فرض نفسه وبخاصة لأن الزهراء بنيت فى سفح الجبل، واختفت باستغلال الجانب الأكبر من أحجار الأسوار الضخمة فى بناء قنطرة متدرجة، وفضلا عن تعقد المشكلة بسبب ليونة الأرض التى تحدثها الأمطار، فلم يكن بد من ترميم الشرفات، وردها إلى أصلها الذى كانت عليه، وبهذا تحقق، على الأقل، ترميم أسس المدينة[٧].

وبعد أن توقفت الأعمال بسبب الحرب الأهلية، عادت من جديد عام ١٩٤٤، وحققت نتائج باهرة فى زمن محدود، باكتشافها قاعة من سبع بلاطات مزخرفة فى ثراء بالغ، وسبق لى أن لفت النظر إليها فى مجلة الأندلس[٨]، ودرسها فيما بعد أساتذة فن المعمار العربى[٩]، ودعوتها «قاعة عبد الرحمن الناصر»، لوفرة النقوش التى تتحدث عن أول خليفة أندلسى. والتواريخ التى ترد فى هذه النقوش تقف بين عامى ٣٤١، و٣٤٥ هـ، مما يجعلنا نظن أن بناءها استمر خمس سنوات.

وهذه القاعة، ويدعوها غومث مورينو «غنية»[١٠]، لثراء زخارفها، حددنا موقعها من خلال الروايات التاريخية والوصفية[١١]، وفى ضوء ما يدعى فى غموض

---

(٧) فى تاريخ حفريات مدينة الزهراء العريض كان هناك منطقيًا أكثر من رأى حول الترميم، ثم أصبح ضروريًا للأسباب التى أشرت إليها فى النص، وفيما بعد بدا أن من الضرورى الأخذ بالرأى الذى يدعو إلى الترميم المتعقل، على الأقل فى المبانى الرئيسية، وفى المخطط العام.

(٨) رفائيل كستيخون، حفريات جديدة فى مدينة الزهراء، قاعة عبد الرحمن الناصر، الأندلس، مدريد ١٩٤٥، المجلد ١٠، العدد ١.

(٩) غومث مورينو، الفن العربى الأسبانى حتى عصر الموحدين، الجزء الثالث، من سلسلة «الفنون الاسبانية» ص ٦٣، مدريد ١٩٥١. طريس بلباس، الفن الأسبانى الاسلامى حتى سقوط الخلافة القرطبية فصلة من المجلد الخامس من تاريخ أسبانيا بتوجيه مينينديث بيدال، مدريد ١٩٥٢.

(١٠) فى المصدر السابق، فى الهامش رقم ٩.

(١١) روساريو كستيخون، المصدر السابق، فى الهامش رقم ١.

«دار الملك» لأنها تستخدم مأوى للشخصيات الملكية، و«دار الوزير» لأن مجلس الوزراء كان ينعقد فيها فى الأحوال العادية.

وقد شغلت أعمال الحفر التى أدت إلى اكتشاف «قاعة عبد الرحمن الناصر»، إلى جانب المبانى الملحقة، وترميمها، الفترة ما بين عامى ١٩٤٤ و١٩٦٣. وتتمثل ملحقات هذه القاعة فى سلسلة من المبانى نحو الشرق، بدءا منها نفسها، وتشمل حمامًا بالغ الروعة والفخامة، ومصلى صغيرًا، وعددًا من الغرف أو الساحات، وكلها فى الصف نفسه، وهى بالتأكيد للكتاب أو المستخدمين.

وهذا الصف من الملحقات، وقاعة عبد الرحمن الناصر الكبرى نفسها، تطل على باب فخيم فى الجنوب، فوق شريحة مرتفعة، تكون كل الواجهة الشمالية تقريبًا من الشرفة الكبرى الجنوبية، وسوف نعرض لها فيما بعد.

وتقسيم قاعة عبد الرحمن الناصر العظمى، وتتكون من خمس بلاطات يجرى على النحو التالى : ثلاث بلاطات فى الوسط، ذات أعمدة مصطفة غير منتظمة، مثل ما عليه الحال فى مسجد قرطبة الجامع وتأتى ألوان سيقانها بالتناوب : وردية الرخام من قبرة، أو زرقاء اللون من قرطبة، وقواعدها وتيجانها غنية بالزخارف، وسلسلة من العقود ذات جمال زخر فى بالغ الروعة، ويجىء بناؤها على التوالى : طوبة حمراء، وحجر مزخرف، طبقًا لأسلوب فن الخلافة القرطبية التقليدى.

وبلاطها ألواح عريضة من الرخام الأبيض، وسقفها مبطن بالخشب، ويشبه أيضًا ما عليه الحال فى المسجد الجامع فى العاصمة ومن المنطقى ألا نجد أى لوح من الخشب، ولا أية رافدة من خشب السقف، ولكننا وجدنا بين أكوام الأنقاض كثيرًا من الأخشاب المحروقة ومسامير من الحديد ترك صدؤها أثره فى رخام البلاط.

والبلاطتان اللتان فى أقصى الجانبين، على نحو ما فى قاعة المجلس الغربى، يمكن عزلهما عن البلاطات الثلاث التى فى الوسط بالباب الوحيد الذى يوجد فى وسط الجدار الفاصل، أى أنه يوجد فى هذه القاعة الغربية الأخرى ثلاثة أبواب فى كل جانب تسد البلاطة المتطرفة. وفى هذه التى نصفها فإن عمق البلاطتين

الجانبيتين يمكن أن يغلق، فتأخذ شكل مربع تقريبًا، تعلوه قبة من الحجر، مجموعة أحجارها لا تزال سليمة فى جانب كبير منها، وما فى باطن العقد مدهون باللون الأحمر مع زخارف تأخذ شكل خطوط متعرجة، وصلتنا منها بعض البقايا.

والأقسام الداخلية من البلاطتين الجانبيتين مخصصة، فى حالة الضرورة، لتكون غرفًا للشخصيات الكبيرة، وهى مشهورة لا بالقبة التى تعلوها فحسب، وإنما أيضًا بالمرافق المبسطة فى كل منها.

ونعيد القول من جديد بأن الثراء فى زخارف العقود بالغ الروعة وبخاصة عقود أبواب الدخول أو الموصلة، والجانب الأكبر منها عقود محددة، وذات زخارف متنوعة، والبلاطات الثلاث الوسطى تضم فى مدخلها بهواً، أو بلاطة مستطيلة كمعبر، وتضفى عليها فخامة منقطعة النظير، والبلاطة الوسطى، فى نطاق هذا البهو، منفصلة بثلاثة صفوف من العقود، والبلاطتان الجانبيتان بصفين. والبلاطات التى فى الأطارف تنفتح على غرف يفصلها باب من الخشب، والواجهة الرئيسية فى هذا البهو تطل خلال صف من الأعمدة، تلاشى الآن، على مدخل عام جنوبى.

وموضوعات الزخرفة مما هو تقليدى فى عصر الخلافة القرطبية، فهى تتكون من توريقات، أو موضوعات زهرية إن شئت، مستمدة من العالم الكلاسيكى ومن العالم المشرقى على السواء. وتنهض زخارف الجدران على قاعدة من المربعات الكبرى تمثل شجرة الحياة، وتبدو بين أغصانها الزهور والثمار، ذات طابع رمزى تقريبًا، وكل مربع مع آخر يكونان جانبى الأبواب، أو النوافذ، أو الخزائن، وتتواصل فيما بينها حتى تغطى الجانب الأسفل من الجدران. وعندما اكتشفت هذه القاعة عام ١٩٤٤، كان عمق البلاطة الجانبية، الأكثر امتداد نحو الغرب، بين البلاطات الوسطى، كاملا تقريبًا فى مربعاته، مما أتاح لنا فرصة تصور النظام العام للزخارف فى المدينة.

ومما يسترعى الاهتمام عمدان الأبواب المربعة، التى تصل بين البلاطات الوسطى وما على جانبيها، لأنها منحوتة من الرخام فى روعة، وتومئ اليمنى منها

إلى إشارات تطعيمها بالجواهر، وعنها تحدث ابن خلكان[١٢]، وكل واحدة فيها صفان من هذه النقوش، الأعلى منها يتضمن مدح الخليفة وما تحته يشير إلى أسماء ثلاثة من النحاتين اشتغلوا فى هذه القاعة، ويبلغ عددها اثنى عشر صفا بين هذه الأعمدة الأربعة.

ومنذ اكتشاف هذه القاعة الملكية حتى كتابة هذا التقرير، لم تتوقف أعمال الترميم فيها، ويقوم عليها المهندس هرنانديث خمينيث، وشملت كل البلاطات باستثناء بهو المدخل، وحتى هذه اللحظة، فرمم كثيرًا من الأعمدة الزخرفية، مستخدمًا العديد من القطع التى ظهرت بين الأنقاض، وأحجار العقود، وكلها ذات جمال آخاذ.

ومن الضرورى أن نأخذ فى الاعتبار أن إعادة بناء السقف تمت إجمالا، فى نطاق خطة، ويتكون من دعائم وألواح من الخشب، على نحو ما عليه الحال فى مسجد قرطبة الجامع، ولكن هنا على نحو نهائى، أما هناك، كما يجب أن نذكر، فإن السقف ظل ناقصا، لعدم وجود نماذج من الدعائم الصغيرة التى تغلق بطانة السقف فى استطالتها.

ومع هذه الترميمات اتضحت القطع المجاورة، مثل الملحقات التى يتحدث عنها المؤرخون[١٣]، وتم تنظيف البركة الكبرى التى كانت أمام القاعة، وبعض الأشياء الأخرى الصغيرة.

وفى عام ١٩٦٤ تلقت حفائر مدينة الزهراء دفعة قوية من الدولة، فقد رفعت إدارة الفنون الجميلة الميزانية السنوية، المقررة لها منذ عام ١٩٥٤، من أربع مئة ألف بيزيته إلى مليونين من البيزتات، وحصلت على مساحة واسعة من الأرض تبلغ ثمانية هكتارات تقريبًا، بلغ ثمنها مليونين وربع من البيزتات، وهى تضم كل الأجزاء الهامة فى مدينة الزهراء، كالمسجد، والشرفة الجنوبية الكبرى بقاعتها الوسطى، وكانت تعرف باسم دار الجند، والقاعتين الكبيرتين، إلى جانب

---

(١٢) روساريو كستيخون، فى مقالها الذى أشرنا إليه فيما سبق.

(١٣) المصدر السابق نفسه.

المجلس الغربى واكتشف عام ١٩١٢، وتكون كلها مجموعة قاعات الاستقبال الكبرى التى تطل على السطح الكبير، ويعرف باسم «السطح الممرد».

وفى هذا العام نفسه، ١٩٦٤، تمت جملة اكتشافات ممتازة، وفيها تم تنظيف مسجد الزهراء تمامًا، ونقوشه الأدبية معروفة جيدًا، وأوردها عدد من المؤرخين[١٤].

وكان يشرف على أعمال الحفر ويوجهها المهندس الأثرى هرنانديث خمينيث، كما أن المهندس باسيليو بابون ملدونادو قام بالدراسات المعمارية، واستطاع أن يميز بين ما يتصل بمادة البناء وما يرتبط بالجانب الزخرفى، وجمع خلاصة بحثه فى دراسة موسعة ومفصلة نشرها من قريب، وزودها بالخرائط والصور والرسوم، ونشرتها إدارة الفنون الجميلة[١٥].

ويتكون المسجد على نحو ما وصف لنا من خمس بلاطات، تتجه نحو المشرق فى دقة، وله صحن ومدخل، ومنارة إلى جانبه، وقاعات على جوانب الصحن، وعين فى وسط هذا، واكتشفت وقد تهدمت كلها تماما، لاستغلال الناس كتل البناء، والمواد النافعة فيه، فى مبانيهم الحديثة، ولكن ما بقى منه سمح لنا بدراسة متعمقة له، والتعرف على أجزائه.

وكانت بلاطاته الخمس المسقوفة تتكون من ممرات ذات عقود، فوق سوارى من الرخام، واحد وردى اللون من قبرة، ويليه آخر أزرق من قرطبة، وهكذا على التوالى، وتيجان الأعمدة بدائية، تكاد أن تكون قوطية، لأنها كانت أول ما بنى من مدينة الزهراء، وألقيت أول خطبة فيه فى شهر شعبان ٣٢٩ هـ - مايو ٩٤١ م، أو أن شئت بعد أربع سنوات من بدء العمل. وبقية زخارف العقود، وأبواب الدخول، شبيهة بما عليه فى بقية أجزاء المدينة. ووجدوا فى سقيفة الصحن بقايا محروقة من حصائر من الحلفاء. وعمق البلاطات الخمس الداخلية مبلط ببلاط أحمر، ولكن بقيتها تشبه الأرض.

(١٤) انظر الموجز الذى قدمته روساريو كستيخون، فى الدراسة التى أشرنا إليها سابقًا، ص ٧٤ - ٩١.

(١٥) بابون ملدونادو: تقرير عن حفائر مسجد مدينة الزهراء، رقم ٥٠، من منشورات الأدارة العامة للفنون الجميلة، مدريد ١٩٦٦.

وترميم الأسوار الرئيسية تم بسرعة للاحتفاظ بالمخطط الذى تم اكتشافه، وبخاصة جدار القبلة، وكان أشدها دمارا، ونحيل كل من يرغب فى معرفة المزيد من التفاصيل عن هذه الكشوف الأثرية إلى تقرير بابون ملدونادو، وهو ذو أهمية فريدة لدراسة الفن العربى.

وفيما يتصل بالحفائر المرتبطة بمسجد الزهراء اتضحت مشكلة لم تكن حتى هذه اللحظة واضحة تماما، وهى الإشارة إلى الممرات المسقوفة التى تمتد عبر كل المدينة للخدمة الرسمية، يمر منها الخليفة وكبار حاشيته، حتى لا يظهروا علانية أكثر مما يجب، ولحمايته من تقلبات الجو.

نحن عامة بصدد قاعات قوية، ذات قباب من طابق أو اثنين، تصل بين الأبنية الرئيسية فى مدينة الزهراء، وتقوم بنفس الدور الذى يقوم به الساباط فى المسجد الجامع بقرطبة العاصمة.

ويستند الممر، أو الساباط، فى مدينة الزهراء على الجانب الجنوبى من المسجد لتبلغ نهايته المحراب، فى موقف شبيه بما عليه الحال فى المسجد الجامع، حيث يمثل الخليفه فى الجانب الاكثر ميلا نحو الغرب منه نفسه.

واكتشاف هذا الساباط، والجانب الذى يؤدى منه إلى السطح الجنوبى، بدا فيه العمل فعلا عام ١٩٦٥، ومثله فى ذلك الأسوار الوسطى بممراتها، والدعائم الكبرى التى تفصل بين الأجزاء العليا المبنية فى المدينة عن الأجزاء السفلى التى توجد فى السهل.

ولكن أعظم أعمال عام ١٩٦٥ تتمثل فى اكتشاف القاعة التى توجد فى وسط السطح القبلى، وتسمى دار الرخام، لثراء الرخام الذى استخدم فيها ووفرته، وأيضا دار الجند، وطبقا لما يذكره المؤرخون سميت كذلك لأن الخليفة كان يجلس فى أروقتها حين يشهد الاستعراضات الحربية فى السهل، ويؤكدون أيضا أنها كانت محل إقامة قائد الفرسان.

لقد ظهرت هذه القاعة الوسطى فى السطح القبلى مهدمة تماما، ربما لتميز موقعها، فهى أظهر ما فى المدينة، أو على التأكيد لهشاشة مبانيها. وفيما يبدو كانت

تتكون من ثلاث بلاطات ذات عقود، وتصنع هذه مجتمعة مربعا أو مستطيلا، تحده من واجهاته الأربع الأروقة والبرك. ويرى المهندس المعمارى هرنانديث أنها ربما كانت تشتمل فى الأصل على خمس بلاطات، ولكن فى إصلاحات تالية اقتصر فيها على ثلاث، وضموا إليها البرك.

وتحيط بها قنوات المياه والحدائق، وكان مظهر القاعة العظمى فى وسطها رائعا على التأكيد، وترميمها ليس مستحيلا، ولكنه بالغ الصعوبة إلى حد كبير.

هذه الأجزاء : الشرفة القبلية، والقاعة فى وسطها، وهذه فى وسط المدينة كانت طريق الدخول الرئيسى إلى الزهراء، وفيها كان الزوار من طبقة الخاصة يستريحون، قبل أن يبلغ خبر قدومهم الخليفة، ويستعد للمقابلة.

وبلغت الأعمال فى هذا العام، ١٩٦٦، نهايتها، وتمثلت فى الكشف عن هذه القطاعات، وترميم الجدران الكبرى التى تحمل الشرفات، والاستمرار فى ترميم زخارف القاعة الملكية، والمسجد، والممرات التى تربط بين المنشآت المختلفة بخاصة، وترميمها بالغ الصعوبة، نظرا لحالة الهدم والدمار التى وصلتنا عليها.

وأود أن أشير إلى اهتمام الدولة الاسبانية المتزايد فى ترميم مدينة الخلفاء القديمة، وطالما تغنى بأمجادها المؤرخون والشعراء، مما يجعلنا مطمئنين إلى أننا فى أعوام قليلة يمكن أن نلقى الضوء كاشفا على عناصرها الهامة التى لا تزال فى حاجة إلى الحفر والتنقيب.
(المترجم)

○ ملحق رقم ٤

قصور غليانة

[انظر صفحة ٨٢ الهامش رقم ١٦٣ من هذا الكتاب]

يصف السنيور أمادور دى لوس ريوس فى كتابه «طليطلة الحالمة» فى أطناب ودقة بقايا قصور غليانة هذه، ووصفها الرحالة الألمانى الدكتور فشتنرته أيضا فى كتابه «خوالد طليطلة» على النحو التالى ؛ فى وسط السهل الخصيب، إلى الشرق من المدينة، على ضفاف نهر تاجه، وفيها يسمى «بستان الملك»، توجد مزرعة، فيها نقوش تشى بأنها بقايا قصر قديم، ويطلق عليها الناس اليوم اسم «قصور غليانة»، وتتكون من برجين مرتفعين، وأسوار مهدمة تشكل مربعا، ومازال يرى فى المدخل حتى الآن عقد حدوى. وفى قبوه شعاران من الرخام الأبيض، وطابع سلاح بيت بنى قزمان النبلاء، والعقد مغطى فى الداخل بزخارف عربية سودها الدخان والهباب، ونقوش عربية أخرى كان من الصعب قراءتها. وأربع قباب يستخدمها الفلاحون اليوم اسطبلا ومطبخا وحجرة نوم، وهى كل ما بقى من القصور الضخمة التى كانت تسكنها غليانة فى عصور خلت.

وقدم لنا كل من السنيور أمادور والدكتور فشتنرته فيما يتصل بهذه الأميرة الأسطورية الشعبية الخيالية معلومات مثيرة، أرى من الواجب أن آتى بها ملخصة.

كثيرون من الشعراء، فى عدد من البلاد، صوروا الرحلة الجميلة التى قامت بها غليانة، وترنموا بحبها للامبراطور شرلمان، والعجيب فى هذه القصة المغرقة فى الرومانسية أنها لم تأخذ طريقها إلى أى من أغانينا الرومانسية، والتى ورثناها شفاها وسليمة من الأدب الشعبى، ومع ذلك فإن القصة إسبانية تماما، أو على الأقل أخذت طريقها إلى إسبانيا فى وقت مبكر جدا، لأن الأسقف لذريق يشير إلى أن شرلمان أقام أيام صباه فى طليطلة، وأنه عاد إلى فرنسا عندما علم بوفاة والده،

وكانت الأميرة غليانة، ابنة الملك خلف Galafre قد أحبت شارلمان، وبدون شك فإنها كانت تستحق شرف أن تصبح إمبراطورة فرنسا، ذلك لأن الشعراء جميعا يطرون جمالها. وأنه يفوق كل وصف، ويتجاوز ما هو بشرى، وقد وصفه بلبوينا على هذا النحو فى ملحمة «البرناردو El Bernardo» :

غليانة.. ابنة الملك خلف،
جمالها على ما تعرفون من السماء،
وخلقت من عجينة ملكية،
وهبطت لكى تثير وتشرف بها الأرض،
العنبر وتورد الصباح،
حيث تتسرب أشعة الشمس، وجواهر الثلج،
ويكتسى العالم ثوبا فضيا وينزاح الظلام،
ولك أن تقول: كله من نور وجهها وليس من الشمس.

وكان ملك وادى الحجارة، وهو مسلم عملاق، قوى وشجاع، ويدعى بردمنت Bradament، قد ذهب بعقله حب الأميرة، ولكى يزورها حفر طريقا تحت الأرض، يمتد من وادى الحجارة حتى قصور غليانة، وعرف باسم «طريق غليانة» ولكن لا هو، ولا ألف غيره، بالغوا فى اللطف والعشق استطاعوا أن أن يقنعوا الأميرة الجميلة، أو أن يخففوا من قسوتها، وأنما كانوا وسيلة لإثارة الغيرة فى الشاب شارلمان، والذى قرر أن يزيح من طريقه ذلك الخصم الكريه، وكما يقول كريستوبال لوثانو فى كتابه «ملوك طليطلة الجدد» تصارعا وجها لوجه، بقوة وفى شجاعة، ومع أن الملك المسلم كان عملاقا الا أن النصر كان إلى جانب شارلمان. لقد غلبه فى التحدى، وقطع رأسه، وقدمها هدية لغليانة، فتلقت الهدية فرحة، لشجاعة حبيبها من جانب، ولتخلصها ممن كانت تكرهه، وطبقا لرواية لوثانو نفسه، فإن الأميرة اعتنقت المسيحية، وعمدها سخيلا أسقف طليطلة، وزوجها من الملك شرلمان، وذهب الزوجان إلى فرنسا ليعتليا العرش الذى كان قد شغر من قريب بوفاة الملك بيبيتو.

وبالرغم من ملحمة البرناردو، التى ألفها بلبوينا، فإن هذه القصة الأسطورية

ألهمت لوبى دى بيجا مسرحية : « قصور غليانة »، ونصها نادر العثور عليه الآن، رغم أنها طبعت فى الجزء الثالث والعشرين من مسرحياته. وقد أورد الدكتور فشتنرته فقرة من هذه المسرحية، وأبياتا كثيرة، ومناظر ترجمها إلى الألمانية، وأيضا ألف السنيور روبى مسرحية عن « غليانة »، وجعل منها زوجة شارل مارتل وليس شرلمان.

وفى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى ألف أولبرت كيلير ملحمة ألمانية بعنوان : « كارل مينت Karl Meinet »، وتقص تفصيلا، وفى لغة شاعرة، الغراميات التى حدثت بين غليانة وشرلمان، لقد جاء هذا عندما كان صبيا إلى طليطلة، صحبة مثتين من أتباعه، هاربا من هينفريت وهودريش اللذين اغتصبا منه العرش. وأفسح هذا المجال لتتوطد صلات الحب بينه وبين الأميرة غليانة، ويسميها الشاعر غالية ابنة الملك خلف، وقتل شرلمان كلا من برومونت وكيفاس ابن أخيها، وأصبح صديقا ودودا لخلف، والذى ذهب معه إلى فرنسا ليساعده على استرداد عرشه من الذين اغتصبوه منه، ودفع المغتصبون ثمن جريمتهم فى المشنقة، وعاد خلف إلى طليطلة محملا بالهدايا، ولكن لا شارلمان على عرش فرنسا، ولا غليانة فى قصورها الفاتنة، استطاعا العيش منفصلين أحدهما عن الآخر، فترك شرلمان عرشه ومملكته وعاد إلى طليطلة متخفيا فى ثوب حاج، وهنا سنحت الفرصة ليقدم لنا المؤلف عددا من المناظر الرومانسية، وتهرب غليانة، مع وصيفتها فلورينا، صحبة شارلمان، وبعد ألف مخاطرة ومغامرة يصلون إلى باريس، حيث يعمدها الأسقف. وتتزوج غليانة من شارلمان، وتصبح أمبراطورة فرنسا وعندما كان شارلمان فى ألمانيا يقاتل السكسونيين توفيت الأمبراطورة فبكاها الامبراطور بحرارة، وطبقا للملحمة كان على الأمبراطور أن يتأسى أخيرا، وأن يتزوج للمرة الثانية من هيلدجردا دى سوابيا، وللمرة الثالثة من اللطيفة فستيرينا.

(خوانباليرا)

○ ملحق رقم ٥

أيهما أشد تعصبا :[1]
الأسبان أم بقية أوربا

[انظر ص ١٢٤ الهامش رقم ٢٢ من هذا الكتاب]

يبعد عن الاعتقاد أن المسيحيين الإسبان كانوا منذ البدء أشد قسوة، وأفظع تعصبا، وأقوى عدم تسامح، عن بقية أوربا، ويمكن القول بعكس كل ما سبق، والدفاع عنه : لقد أصبح الإسبان مدفوعين بأوربا المسيحية، تستثيرهم، وتدفعهم إلى التعصب ضد المسلمين، وبالتدريج أصبحوا أشد قسوة وعدم تسامح معهم. لقد تعود الإسبان فى العصور الوسطى، مسلمين ومسيحيين، أن يعيشوا فى صداقة وطيدة، وقوانينهم وآدابهم وعلومهم وفنونهم تتبادل التأثير فيما بينها، وارتبطوا معا أكثر من مرة بوصفهم إسبانا فحسب، لمواجهة الأجانب والغزاة، سواء كانوا من المرابطين أو الموحدين، وكان للملوك المسيحيين أتباع بين الملوك المسلمين، مثل سيف الدولة ابن هود الشهير، فقد سلحه ألفونسو السادس، الشهير بالامبراطور، وجعله تابعا له. وكان هناك ملوك مسلمون فى مرسية، وإشبيلية، ونبلة، ووادى آش، يدينون بالولاء للملوك المسيحيين.

ومنذ استولى ألفونسو السادس على طليطلة حتى أيام ألفونسو العاشر الملقب بالعالم، ازدهرت فى قشتالة ثقافة إسلامية على يد المدجنين، وازدادت أهمية وقيمة، ولعبت دورا لامعا فى علم وأدب المسيحيين، من خلال مؤلفات الملك المذكور، وآخرين من العصر نفسه أو جاءوا بعده. ويطرى السنيور فرنانديث أى جونثالث. فى الفصل العاشر من الجزء الأول، والفصل الرابع من الجزء الثانى فى مذكراته، جمهرة كبيرة من العلماء والمؤرخين والشعراء المسلمين الذين عاشوا تحت الحكم

(١) العنوان من وضعى أنا (المترجم)

المسيحى، وكانوا موضع الحماية والاحترام من ملوكنا وكبار رجالنا. وباختصار فإن كل مذكرات السنيور فرنانديث تعكس التسامح الكبير الذى أبداه المسيحيون الاسبان نحو المسلمين، وهو تسامح بدأ ينحصر شيئا فشيئا مع تقدم حرب الاسترداد، وطبقا لما أملته الحضارة المسيحية.

ودون شك أعان على التسامح القديم احترام، وحتى إعجاب، المسيحيين، بمن هم أعلى ثقافة منهم، ويجب أن يكون قد أعان على الاضطهاد التحمس للحضارة المسيحية، عندما رأى أصحابها أنفسهم فى القمة، والحضارة الاسلامية فى طريقها إلى السفح، وبالتالى موضع الاحتقار، ومع ذلك فمن الفضيلة دائما أن يُعجب المرء بالحضارة الأرقى، وأن يحترمها، وكان الأجانب الذين يجهلون الحضارة الاسلامية أشد خشونة وشراسة مع أهلها. فالصليبيون الذين جاءوا من فرنسا وألمانيا، وبلاد أخرى، إلى شبه جزيرتنا، فى مناسبات مختلفة، تميزوا دائما بشراستهم وهمجيتهم فى مواجهة المسلمين واليهود، وبخاصة أولئك الذين قدموا قبل معركة العقاب المجيدة. وتقول الحوليات الطليطلية: «تحركوا من الموانى البعيدة، وجاءوا إلى طليطلة فى تلك الأيام، وفيها عاشوا، وقتلوا كثيرين من اليهود، وتسلح فرسان طليطلة، ودافعوا عن اليهود». ويقول مؤرخ عربى: «ووجد ألفونسو نفسه، وقد تخلى عنه الروم، لأنه منعهم من قتل المسلمين، وعندما تخلوا عنه تحدثوا اليه قائلين: «لقد طلبت منا المجىء لكى نستولى على المدن، والآن تمنعنا من النهب، ومن قتل المسلمين، وليس ثمة ما يدعونا لكى نبقى فى حملتك».

ولم تنجح كثيرا حملة الإثارة التى قام بها البابوات لاضطهاد المسلمين واليهود، ومنعهم من الاختلاط بالمسيحيين، وتمييزهم بملابس مخصوصة، وتعليمهم بإشارات مميزة، حتى يظهروا فى وضع شائن ومعيب، ويحركوا البغض والاحتقار. وجاء إحساس الجنس الأوربى بتفوقه على الجنس السامى فزاد من هذا الرعب، وحتى فى عصر فليب الثانى كان هناك بابا لا يزال غاضبا، ويدعو الإسبان إلى اعتبار اليهود والمسلمين نجسا، وجعل من نفسه صدى للاضطهاد الشائع، لا ضد أناس من دين آخر فحسب، وإنما ضد المسلمين الجدد، أى الذين قبلوا اعتناق

الكاثوليكية مكرهين، من اليهود أو المسلمين.

وقد لام البابا فرانسيسكو الأول الامبراطور كارلوس الخامس، لأنه يتسامح مع الموريسكيين فى ممالكه، وهو الامبراطور والملك الكاثوليكى فيما دعاه. وهكذا أدت روح التعصب التى سادت القرن، وكانت عامة فى كل أوربا، أن تمد تأثيرها إلى إسبانيا، فازدات الآلام، والاضطهادات المتوالية، حتى يمكن القول أن فيليب الثانى المتعقل، واللين، وغير المهتم، يستحق المدح لموقفه، لأنه عرف كيف يقاوم، على الرغم من ثورة الموريسكيين فى جبال البشرات، كل عوامل الإثارة المستمرة التى اضطلعت بها الأغلبية من رعاياه، ورفض أن يطرد الموريسكيين من مملكته، واحتفظ التاريخ بهذا المجد (!!) للملك التقى فيليب الثالث، الذى طرد من إسبانيا أكثر من تسع مئة ألف موريسكى، كانوا أشد رعاياه مهارة وعملا، قبل ونفّذ ما قال عنه الكاردينال ريتشليو: «النصيحة الأشد جرأة وهمجية بين كل ما يذكره تاريخ القرون السابقة».

(خوان باليرا)

○ ملحق رقم ٦

الحمراء كما رآها رحالة ايطالى[1]

[انظر ص ١٦ الهامش رقم ٦٨ من هذا الكتاب]

أقدم وصف للحمراء قدمه لنا نفجيرو عام ١٥٢٦، أى بعد ٣٣عاما من سقوطها فى يد المسيحيين، وهو بالغ الأهمية، ويجب أن نفسح له هنا مكانا، يقول :

«الحمراء تحيط بها الأسوار على هيئة قلعة، ومنفصلة عن المدينة، وتسيطر عليها كلها تقريبا، وتوجد بداخلها بيوت كثيرة، ولكن أغلب المساحة يحتله قصر كان يمتلكه ملوك غرناطة. وهو بالغ الروعة فى الحقيقة، وقد استخدموا فى بنائه أجمل أنواع الرخام، وكل المواد الأخرى من الأنواع الغالية والثمينة، ولكن هذا الرخام لا يوجد فى الجدران، وإنما على الأرض، وهناك ساحة كبيرة بالغة الروعة، واسعة وتتماشى مع الذوق الإسبانى».

«ويحيط بها مبان، ويوجد فى جانب منها برج ظاهر جدا، يسمى قمارش. وهناك توجد بعض القاعات والحجرات رائعة الجمال، وبها شرفات أنيقة، وذات زخارف موريسكية ممتازة، وتوجد على الجدران وفى السقف. وهذه الزخارف فى جانب منها من الجير، وذات ذهب كثير، وفى جانب آخر من الذهب والعاج، وكلها فخيمة فى الحقيقة، وبخاصة سقف القاعة، الكبرى السفلى، وكل جدرانها. وأرض الساحة كلها مغطاة برخام أبيض ناصع البياض، دقيق الصنع، وألواحه عريضة جدا، وفى وسط الساحة يوجد تجويف على هيئة قناة، مملوء بالماء البارد، يجىء من نبع يجرى عبر القصر، ويدخل إلى كل مكان، حتى إلى الغرفات

---

(١) العنوان من وضعى أنا. (المترجم)

نفسها. وفى طرف هذه القناة يمتد سياج خفيف فائق الجمال، تطوقه أشجار الريحان، وتوجد أيضا بعض أشجار البرتقال».

«ومن هذه الساحة يمكن الدخول إلى أخرى أصغر من الأولى، وهى مكسوة برخام ممتاز، وحولها غرف ورواق يحيط بها. وفى هذه الساحة توجد أيضا بعض الغرف الجميلة، بالغة الطراوة صيفا، وحيدة الزخرفة نقوشا، ولكنها ليست بالغة الروعة كالبرج الذى تحدثنا عنه».

«وفى وسطها نافورة جميلة، قائمة فوق عدد من الأسود تمج الماء من أفواهها، ولهذا يطلق عليها ساحة الأسود، وهذه تحمل حوضا فوقها، وعندما يتوقف الماء من الاندفاع فى أفواهها تقدم حالة فريدة، تتمثل فى أنك إذا نطقت أو وشوشت بكلمة فى فم أحدها، بصوت مهما يكن منخفضا، على حين يضع شخص آخر أذنه فى فم أى واحد آخر منها، فإن الصوت يرن واضحا فى أى منها شئت، وتسمع أية كلمة.

«ويجب أن نذكر بين الأشياء الجميلة التى تميز بها هذا القصر بعض الحمامات التى تحت الأرض، ولما تزل تحتفظ بجمالها الفائق، وكلها مكسوة بالرخام أيضا. وهذه الحمامات تتلقى الضوء من السقف، عبر عدد من النوافذ الزجاجية الصغيرة».

الفهرس

صفحة

صفحة

كتب أخرى للمترجم

- أمرؤ القيس، حياته وشعره. الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.
- دراسة فى مصادر الأدب، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.
- ملحمة السيد، دراسة مقارنة، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٨٣.
- مع شعراء الأندلس والمتنبى، ترجمة لكتاب المستشرق الاسبانى اميليو غرسيه غومث، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٩٨٥م.
- بابلو نيرودا، شاعر الحب والنضال، كتاب روز اليوسف، مايو، القاهرة ١٩٧٤. [نفد ويعاد طبعه الآن].
- تحقيق طوق الحمامة لابن حزم، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.
- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢.
- القصة القصيرة، دراسة ومختارات، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.
- العجوز يرحل، قصة مترجمة من البرتغالية للكاتبة البرازيلية ليفى فيرنيك، القاهرة ١٩٧٨.
- الشعر العربى المعاصر، روائعه ومدخل لقراءته، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.
- الحضارة العربية فى إسبانيا، ترجمة كتاب المستشرق الفرنسى، ليفى بروفنسال، دار المعارف، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٨٥.
- الفن العربى فى إسبانيا وصقلية، ترجمة كتاب المستشرق الألمانى فون شاك، الطبعة الثانية دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥.

● دراسات أندلسية: فى الأدب والتاريخ والفلسفة، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣.

● الأخلاق والسير فى مداوة النفوس، لابن حزم الأندلسى، تحقيق وتقديم وتعليق، دار المعارف القاهرة ١٩٨٢.

● التربية الإسلامية فى الأندلس، ترجمة كتاب المستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا، دار المعارف القاهرة ١٩٨١.

كتب تحت الطبع:

● الأدب المقارن، أصوله وتطوره ومناهجه.

● الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف، ترجمة كتاب المستشرق الفرنسى هنرى بيريس.

● الحب عند ابن حزم ودانتى، دراسة مقارنة، مع ترجمة كتاب الحياة الجديدة لدانتى.

١٩٨٥ / ٥٤٦٧		رقم الإيداع
ISBN	٩٧٧-٠٢-١٤٧٧-٩	الترقيم الدولى

٣ / ٨٥ / ٢٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)